للشاعر

١) شعر

قصائد أولى ، ط١ ، دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٥٧ ؛
ط٣ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٠ ؛
ط٤ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ ؛
طبعة جديدة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٨ .

أوراق في الريح ، ط١ ، دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٥٨ ؛
ط٢ ، دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٦٣ ؛
ط٣ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٠ ؛
ط٤ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ ؛
طبعة جديدة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٨ .

أغاني مهيار الدمشقي ، ط١ ، دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٦١ ؛
ط٢ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٠ ؛
ط٣ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ ؛
طبعة جديدة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٨ .

كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل ،
ط١ ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٥ ؛
ط٢ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٠ ؛
طبعة جديدة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٨ .

المسرح والمرايا ، ط١ ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٨ ؛
طبعة جديدة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٨ .

وقت بين الرماد والورد ، ط١ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٠ ؛
طبعة جديدة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٠ .

هذا هو اسمي ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٠ .

مفرد بصيغة الجمع ، ط١ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٧ ؛
طبعة جديدة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٨ .

كتاب القصائد الخمس ، ط١ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٩ .
كتاب الحصار ، دار الآداب ، بيروت ١٩٨٥ .
شهوة تتقدم في خرائط المادة ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧ .
احتفاءً بالأشياء الغامضة الواضحة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٨ .
أبجدية ثانية ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٩٤ .
الكتاب I ، دار الساقي ، بيروت ، ١٩٩٥ .

٢) الأعمال الشعرية الكاملة

ديوان أدونيس ، ط١ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ ؛
ط٢ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٥ ؛
ط٣ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

الأعمال الشعرية الكاملة ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٥ ؛
ط٥ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٨ .

٣) دراسات

مقدمة للشعر العربي ، ط١ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ ؛
ط٥ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٦ .
زمن الشعر ، ط١ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢ ؛
ط٥ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٩ .

الثابت والمتحول ، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب :
الطبعة السابعة (طبعة جديدة ، مزيدة ومنقحة ، في أربعة أجزاء) :
١ـ الأصول ،
٢ـ تأصيل الأصول ،
٣ـ صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني ،
٤ـ صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري ،
(دار الساقي ، ١٩٩٤) .
فاتحة لنهايات القرن ، الطبعة الأولى ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٠ .
سياسة الشعر ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٥ .
الشعرية العربية ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٥ .
كلام البدايات ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٩٠ .
الصوفية والسوريالية ، دار الساقي ، بيروت ، ١٩٩٢ .
النص القرآني وآفاق الكتابة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٩٣ .
النظام والكلام ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٩٣ .
ها أنت أيها الوقت ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٩٣ .
(سيرة شعرية ثقافية) .

٤) مختارات

مختارات من شعر يوسف الخال ، دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٦٢ .
ديوان الشعر العربي :
الكتاب الأول ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٤ .
الكتاب الثاني ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٤ .
الكتاب الثالث ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٨ .

مختارات من شعر السياب ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٧ .
مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢ .
مختارات من شعر الرصافي (مع مقدمة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢ .
مختارات من الكواكبي (مع مقدمة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢ .

مختارات من محمد عبده (مع مقدمة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٣ .
مختارات من محمد رشيد رضا (مع مقدمة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٣ .
مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدمة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٣ .
مختارات من الإمام محمد بن عبد الوهاب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٣ .
(الكتب الستة الأخيرة ، وضعت بالتعاون مع خالدة سعيد)

٥) ترجمات

مسرح جورج شحادة
حكاية فاسكو ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٧٢ .
السيد بوبل ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٧٢ .
مهاجر بريسبان ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٧٣ .
البنفسج ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٧٣ .
السفر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٧٥ .
سهرة الأمثال ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٧٥ .

الأعمال الشعرية الكاملة لسان جون بيرس ،
منارات ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٦ .
منفى ، وقصائد أخرى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٨ .

مسرح راسين
فيدر ومأساة طيبة أو الشقيقان العدوان ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٧٩ .

الأعمال الشعرية الكاملة لإيف بونفوا ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٦ .

الأعمال الشعرية

مفرد بصيغة الجمع

وقصائد أخرى

أدونيس

الأعمال الشعرية

مفرد بصيغة الجمع

وقصائد أخرى

المدى

منشـورات

٣/١١	المدى	شعر

Auther: ADONIS
Title : The Poetical Works, III
Al Mada : Publishing Company
First Published in 1996

اسم المـؤلف : أدونيس
عنوان الكتـاب : الأعمال الشعرية / مفرد بصيغة الجمع وقصائد أخرى
النـاشـر : دار المدى للثقافة والنشر
تاريخ الطبع : ١٩٩٦

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

إشارة

آثرتُ أن أنشر أعماليَ الشعرية بترتيبٍ آخر : القصائد القصيرة في مجلد ، والقصائد الطويلة في مجلد ، والنصوص غير الموزونة في مجلد .

يتخلى هذا الترتيب عن التتابع الزمني ، وفاءً لتتابع البنية والإيقاع . إنه ترتيب ينحاز إلى السياق التشكيلي ــ الفني الذي يتأسس فيه النص ، وليس إلى تسلسل زمن كتابته أو نشره .

هكذا تقطع هذه الطبعة كلياً مع الطبعات السابقة من هذه الأعمال ، إضافة إلى أنها تنسخها .

وهي ، إذن ، المعتمَدة ، وحدها .

باريس ، نيسان ١٩٩٦

أدونيس

أرواد، يا أميرة الوهم

(مقاطع)

1

الشعر يحرق أوراقه القديمة ، والقصيدة الآتيةُ بلادٌ من الرّفض ، ـ آه ، يا كلمات الموتى ، آه يا بكارةَ الكلمة . وتلبس القصيدة أهداب الطفولة ، وتخشع لكوكب الثّدي .

2

للسّاعات هاربةٌ كمخمل الثلج ، للعمر مجنّحاً بالقَشّ ، تتمزّق الحياة ، وتصير حروفاً أُخرى .

هوذا الحبيبُ يغرق في خليجِ النّهدين . هوذا يعرف المرأة والجزيرة المسمّاة امرأةً ، وعلى شواطئ العشب العشرينيّ يشعل الموجَ والزّبدَ ويقطع خيط الفجر . هوذا يَسْبحُ تحت المِشدّ ، لاصِقاً بالقعر ، في مغارةٍ من الحرير والحمّى .

لِينطفئْ هذا الجمرُ ، ليشتَعلْ . لِتُمجَّدْ هذه الأطرافُ مصلوبةً بالحبّ . تحت شمسها تنمو عرائش العمر ، وجسدُ الحبيبةِ الورَقُ ، وجسَدُ الحبيبة إنجيلٌ من الحبر .

والحبيب ، في فراش الساعات النائمة ، يستفيق من دُوار الغبطة ، مرسوماً بالعَرق ، مزيّناً بجسد امرأة .

3

. . . وتأتين يا طفولة يا تميمة العمر ، والموت يرسم صلبَاننا ، ويقضمُ أطرافنا الحالمة ، وليس عندنا لأرواد غير الشعر وغير أطيافٍ من البحر والكنائس . وتتركيننا ، يا حضورنا ، لأيامنا الميّتة وحُفرٍ صغيرةٍ كأجسامِنا مسقوفةٍ بالصّلاة والرّمل .

املأني ، يا وَهْمَ الطفولة ــ حيث العمرُ حَرْبةُ الموت . أمامك أنحني ، أصير قوساً من الشعر ، وأَسْتَنفِدُ انحنائي .

4

التاريخ يُقبل في جريدةٍ ، في لفافةٍ من التّبغ ، وأنا بأسوار الإبر أطوّق ذاكرتي ، وأصغي إلى الطفولة :

«شجرة تُفْرِعُ تحت قدميّ . شجرةٌ أجهل اسمها . في الشجرة أصواتٌ ، وبحيرات . وأهدابي سياجٌ يشرد وراءها .

صورة امرأةٍ هذه الشجرة . غيمة تحضن سريري .

أَفْسِحوا لوجهيَ أن يصارع اليأس . شقوق في نوافذ بيتنا تعذّب الضوء ، والفرح مريضٌ يرقد بلا وسادة . أَفسحوا ــ النّهار يرسم المدينة بأصابعي ، وأنا أسمّيها امرأةً وحيّاً ، وأرفع باسمها راية الطفولة .

صورة مدينةٍ هذه الشجرة ، ووراء غصونِها يختنق الموت .

وأنتِ يا أهدابيَ ، دوري مع كوكبٍ يطلع تحت قدميّ ، وانقلي ضوءه إلى جنين الأيام الآتية . في جفوني قريةٌ من العصافير تعبر وتعلو . أغفو ، وعلى سريري يجلس كوكب السَّهر .

5

السّماء ، هذه اللّيلة ، امرأةٌ تفرش سريري
السّماء فراشة تسكن المكتبة ، ـ
وأنا كلماتي بلا وقع . أتوّج بريشةٍ قلبي ، وأتزوّج الرّيح ، وليس في طريقي غير الخرائط الممزّقة وغير الرّعد . لا النّهار يعرفني ولا البيت ، وفوق ترابٍ بلون النّسيان ، أترك خطواتي تنمو .

6

أرواد ، يا أميرة الوهم ، أرواد يا أميرة الحضور ، أيها الظلّ الآتي من جذورنا ـ أمّكِ وأنا رياحٌ تهاجر ، وأنتِ الأرض . ولا طريقَ تلحقُ بكِ . وجهكِ فضاءٌ ، وعيناكِ تثقبان الدّنيا . وها أنت تعلّميننا قصائد العشب ـ حيث نسكن في مدنيّةٍ من الجوع والقَتْل ، وحيث نتعلّم الحكمة على طرف خيطٍ من الرّصاص .
أرواد ، يا أميرة الوهم ، أميرةَ الحُضور ، لكِ أَحُكّ عينيّ بجلد النّهار ، وفي عروقي أترك سفينة العذاب تترجرج وتُبحر .

7

إنها ساعة الصّمت ، ساعةُ أن أصيرَ شجرةً أو نبعاً . إنها ساعة الغبطة ، ساعة أن أصير عاشقاً أو قصيدة .

لأروادَ ، أزرع الهاوية وأفرح . وفي بلادي أنشر حياتي ريفاً كوكبيّاً ، وتلالاً من القمح والشّقائق .

إنها ساعة الولادة ؛ أسْعفيني يا سُلالَة الكلمات ، واخلقي لشعري أبعاداً أخرى من السرّ والإشارة . ويا طفولة ، يا شعريَ الخفيّ المقبل ، أضيئي وجهي ، وكوني ملجأ الفاجعة . باسمكِ نهمس تحت الجليد ، والنّهار يقتل النّهار . ونصرخ : «الموت يقترب ، والمقابرُ العاشقة تجدّد ثوبَها كلّ يوم» ، وتردّين يا طفولة : «أنا الخليقةُ الطّالعةُ ضدّ الموت» . وتجرح شفاهنا أغانٍ من اليأس : «الأرض هيكلٌ يهترئ ، والدّموع تأْسَنُ في تجاويفها» ، لكنّ أغانيك تأتي إلينا : «أنا الحبُّ والشّعر ـ طالِعيْنِ ضدّ الموت» .

وأنتَ ، أيها الحبّ أيها الشعر ـ لكما نرفع أجسادنا ، لكما نبدع إرْثنا من الموت والطفولة .

(بيروت ، تشرين الأول 1958)

مرثية الأيام الحاضرة

1

عرباتُ النفيْ

تجتاز الأسوارْ

بين غناء النفيْ

وزفير النارْ .

الرّيح ثقـيلةٌ علينا ورمـادُ أيّامِنا يلبسُ الأرض . نلمح روحنا في بريق شفرةٍ أو على خوذة ، وفوق جراحنا يَتناثر خريف الممالح .

بعيداً تجرّ المأساة وجهَ تاريخنا ، وتاريخنا ذاكرةٌ يثقبها الرّعب ، وسهولٌ من الشوك الوحشيّ .

وعبثاً يتزحزح الباب الموصد . ونصرخ ونحلم بالبكاء ولا دمع في العيون .

وبلاديَ امرأةٌ من الحمّى ، جسرٌ للملذّات يعبره القراصنة وتصفّق لهم حشود الرمل . ومن شرفاتها البعيدة تلمح عيوننا أشياءَ الناس ـ أضاحيَ لقبور الأطفال ، مجامرَ للأولياء ، شواهدَ من الحجر الأسود ؛ والحقولُ مليئة بالعظام والرّخَم ، وتماثيلُ البطولة جيفٌ ناعمة .

ونمضي ، صدورنا إلى البحر ، وفي كلماتنا يرقد نحيبُ عصرٍ آخر ، وكلماتنا لا وريث لها .

نعانق جُزر الوحدة ، نشمّ الغرابة البكْر في قعر الهاوية ، ونسمع مراكبنا ترسل خوارها اليائس ، واليأس هلالٌ طالع والشرّ في طفولته .

ونمضي ، في الرّعب يحصد الرّكب ، في منحدرات من الوحل والنحيب ، والأرض تنزف دماً في خواصرنا والبحر سَدّ أخضر .

2

في أيّ وبٍّ جديدْ
تنهض أجسادُنا
ضاق علينا الحديدْ
وضاق جلاّدُنا
باسم خراب سعيدْ
يَيْأس ميلادُنا ــ

ضيّقةٌ جباه أيامنا والسّنون عجفاء راكدة .

ألحياة هزيلةٌ في هذه الدقائق من العمر . النهارُ لا حواجبَ له ، وليس للشمس أهدابٌ طويلة . ولا همس في بردَى والفرات ؛ لا لقاح ، لا تململ . السلالة عاقرٌ في بلادي وخرساء ، والتاريخ يحمل بقاياه إلى أرض أخرى .

أيتها الأرض المفروشة بالوبَر ، أيتها الخريطة الجامحة من القمح والنفط والمرافىء ، يا أرضاً بلون الهجرة وبلون الرّيح ،

هل ستنهض ريحٌ جديدة ضد الرّمل؟

وأنتَ أيها المطر ، أيها المطر الذي يغسل الأنقاضَ والخرائب ، أيها

المطر الذي يغسل الجيف ، ترفّق أيضاً واغسلْ هذا التّاريخ .
يجهل أن الصّخرة الجارحةْ
قصيدةٌ مخنوقةٌ في الشفاه
ويفهم الجاموسة النابحه
حَمامةً أو زهرةً أو إلهْ .
وذات يوم تُبعث الحشْرجاتْ
في وطن الضفادع الجائعه
وتنقل الخبزَ لنا والصلاة
جرادةً أو نملةً ضائعه .

هوذا اعتراف الرمح التائه ،
هوذا أنا
اقتلْني أيها الصّدق .

3

ــ . . . تَضَفّري يا فتوّة بأوراقٍ أكثر اخضراراً . لا يزال الشعر معنا ، لا يزال الحلمُ :

لسيحون هذه الأفراس المحمحمة ؛ لخراسان هذه الرمّاح . بيتُنا ذَهبٌ على سفوح هملايا ، وسمرقند راية . بأهدابنا مسحنا جَسدَ الأرض ، بعروقنا ربطنا الأزهار الهاربة . كنا نغسل النهار ، والحجر حريرٌ تحت أقدامنا ،

والأفق صهوة جيادنا ، ونعالها الرياح الأربع .

تلك هي دروبُنا ــ نتزوج الصاعقة ، ونملأ الأرضَ بصراخ الأشياء الجديدة .

تلك هي تخومُنا ــ نحن أكثر اخضراراً من البحر ، نحن أكثر فتوّةً من النهار ، والشمس بين أصابعنا نردٌ أخضر .

تلك هي عتبَة المستقبل :

أسمرُ طالعٌ من البحر ، مليءٌ بغبطة الفهد ، يعلِّم الرفض ؛ يمنح أسماءَ جديدة وتحت جفونه يتحفَّز نسر المستقبل .

أسمر طالعٌ من البحر لا تُغويه أعياد الجثث ، مليءٌ بالعالم مليء برياحٍ تكنس الوباء ، والنسمة الخالقة في رياحه تقسر الحجر على الحب ، على الرقص والحب .

آلهة الرمل تنطرح على جباهها والنبعُ يدفق تحت العوسجة ؛ ولا موت في البحر .

. . . ونأتي إلى بلادنا الأسيرة حيث المصباح كنيسة والنّحلةُ راهبة .

4

ــ من أي بلادٍ أتيت ، من أيّ حظيرةٍ لا اسْم لها؟

ــ لم يكتمل وطني بعد . روحي بعيدةٌ ولا ملْكَ لي .

حيث يبدأ القراصنة ، تنتهي الكلمة . أحمل كتبي وأمضي ــ أسكن في فَيْءِ قلبي وأنسج بحرير القصائد سماءً جديدة .

أيها البحر يا صديق الجرح أيها الجرح يا صديق الملح ،

أيها البحر الأبيض

أيها الفرات يا أياماً بلا رقم

أيها العاصي يا سريراً بلا طفل

وأنت يا بردى ــ

لقد شربتكِ جميعاً وما ارتويت ، لكنني تعلّمت الحب ، ووحده اليأسُ جديرٌ بالحب .

يائسٌ وليس من موت ، تائهٌ وأكره الهداية ،

أترك ورائيَ أصدقائي ــ قضبانَ الحديد والسجون ، وأترك بلادي لأولئك الرواقيين المجانين .

وأمضي وليس لي غير أحزاني ومسافاتي ، وفي موكبي حبيبتي وشعري ، وفي عينيّ يرقد شعبيَ الضائع .

وأمضي وأنا أحلم ــ بالقلوب المعلّقة في الدوالي والرؤوس المزروعة في الحقول ، وأتذكر أن هذه ليست إلا بقايا أحبابي .

وحين تدخل في عروقي رائحة البحر ، وتملأ شَعر حبيبتي قُبَلُ الرّيح وتموت الشواطئ وتُبعث ، لن أتذكّر غير أمّي وسأنسج لها في ذاكرتي حصيراً ليّنةً تجلس عليها وتبكي .

وداعاً يا عصر الذُّباب في بلادي .

. . . ورقٌ ولا حبر ، ولا قلبَ ينفضه الحبر ، واليأس نجمةٌ في الجبين
والشرُّ في طفولته والصمتُ رملٌ كاسح ولا ورق .
ــ من أي بلادٍ أتيت ، من أيِّ حظيرة لا اسمَ لها؟
ــ لم يكتمل وطني بعد ، روحي بعيدةٌ ولا مُلْكَ ليَ .

(بيروت ، 1958)

مرثية القرن الأول

أغنية

مات عيدُ المطرِ
في وجوه الشعراءْ
فَبدّلْناه بعيد الحجَرِ
أنا والرّفض ووجه الكَلِمهْ
وتركنا
للنواقيس على أهدابنا
لسماء العُروة المنفصمه
وتركْنا
للرّياحين لأجران البكاء ،
هذه المرثيّة المنهزمه .

1

ذاهلٌ تحت شـاشـة النبـوءةِ ، مـأخـوذٌ بالرّمل ــ يا رجل! قل لنا آيةً تأتي . . .

التاريخ يهبط المنحدر في حوار مع النّمل ، راحلاً على غباره ، مليئاً

بالمخاط الحلزونيّ ، مليئاً بالأصداف .

كان للقمر عينٌ في غُرّته . كان للسماء جبين الأفعى : لا طريقَ لا كلمة ، لكنِ البرَصُ الباحث عن وجه ، لكن التجاويفُ والشقوق .

افتحْ جوفَك يا خليج الطحالب : جمجمة حمامةٍ على العتبة ، والحمّى تثقب خوذة الفارس .

ــ ماذا ، ما تريد أيها الروميّ؟

ــ تمْراً يا سيّدي ، ثريداً . الطريق رَسنٌ تائهٌ والجوع فرسٌ تصهل بين أسناني .

ــ (هاتوا ماءً لملاقاة العطشان ، وافوا الهارب بخبزه!) .

تحت راية الغبار انهزمْنا . ملأنا وجوهنا بالمقابر وكتبنا وصيّة الجوع . لم تكن أمامنا نجمةٌ تتلألأ ، لم تكن غير أشباح الرمل وغير مناجم الرّيح والدّمع .

ــ «نطلب يا إلهنا بطن الأرض» ، هكذا صلّينا .

ــ «خذني يا نهر ولا يغتصبني العدوّ» هكذا غنّت عذارانا .

البحر لوّح لنا ، البحر بكى لأجلنا . من يسبح هناك؟ قل لنا فألكَ يا زَبد ؛ الموت يبقّع أطرافنا وفي عيونِنا رماد الكواكب الأخيرة .

2

جبلٌ يلفظ اسمه أمامي . ورق اعتمادٍ بين يديّ .

من يشتري هذه الجموع منا ــ يأخذها بعيداً بعيداً؟

من يقبل هديةً هذه الحشود؟ وليأخذ معها السيوف والخناجر ، وليأخذ

معها الخلاخيل وليأخذ الوشْم والودَع .

في أسواق الماس والأكاجو دلّلنا . لفيلٍ أعمى كتبنا رسالة البيع .

رجلٌ يتبرّك بخفّ الوالي ، رجلٌ يسقط شقّين مقطوعاً بالصراط ، رجل يمشي بساقين خيطين ، رجل مهروسٌ بالنذير ، رجلٌ يتكلم ولا رأس له ، رجلٌ لا اسم له ، رجلٌ يرسم وجهه بحليب ناقته ، رجل يعرف أمه في ولائم الملك ، رجلٌ يرقد مع زوجته تحت عباءة الأمير في حرير التسرّي والرعب ، رجلٌ يُحشى جلده بالقشّ ويُعرض في الشوارع ، رجلٌ ميت يجلد ثمانين سوطاً ، امرأة بنهدٍ واحدٍ تُجرّ على الأرصفة ، طفل يلبس رداء المشنقة ،

أحمد أبو الفوارس ، كافور أبو المسك ، تيمورلنك ــ هؤلاء أسياد أرضنا . هم أمراؤنا وهم تيجاننا الفاتحة ، هؤلاء حياتنا على الأرض .

والنجوم جيشٌ يبصقُ علينا باسم سيد الأعالي .

اعبري يا سنواتنا مكسورة الجناح . التصقي بجباهنا يا خشبة . السقوط بلادنا ، و(لتنصر اللهمّ السلطان ابن السلطان مالك البرّين والبحرين) .

وأنتم أيها الشيوخ ابحثوا لنا عن رجالٍ وراء تخومنا ، رجالٍ يسكن فيهم البرق . باسمهم نضرب نقودنا ، باسمهم ترقد نساؤنا فوق وسائد الزئبق .

3

هوذا شعبٌ يفرش وجهه للسنابك ، هي ذي بلادٌ أجبن من ريشةٍ وأذلّ من عتبة .

من يُرينا عصفوراً ما ، شجرةً ما؟ من يعلّمنا أبجديّة الهواء؟ وحدنا في

المفارق ننتظر ؛ الرملُ يمحو مناراتِنا ، والشمس تهترئ في تجاعيد أيدينا .

آهِ يا بلادي يا جلد الحرباء ، عطركِ مطّاط يحترق ، فجرك وطواطٌ يبكي . غير الفاجعة لا تلدين ، غير الحلزون لا ترضعين .

هوذا سيّدك يا خادمة . هاتي له قهوة عدن ، هيّئي سريره . وأنا سيد الرفض ــ بعيداً عن النافذة أرتجف ، وبالفُتات أكتب هذه القصيدة .

في أهدابي دمع الرتيلاء ، في حنجرتي مزمار الموت .

سلاماً أيتها الجثّة العائمة يا حياتي . واحترقْ يا جسدي أيها الرؤيا الكئيبة ، يا حمامة الوداع!

4

كلماتٌ بلا قمر تعبر نحونا . غيمةٌ عابسة تحمل ثلج الميلاد ــ ابتعدْ أيها المجوسيّ الضيف . قبل الأوان تدخل تخومنا ؛ وجهُنا أمير على الفراغ وتاريخنا زبد .

ابتعدْ ابتعدْ .

الوحل يطرح شباكه علينا .

الوحل يلفُّنا بنسيجه .

الوحل بين الجفون حريرٌ وعند الرقبة

ولا غيم

وأين أنتَ يا رعد يا رسول الطوفان؟ اقتحمْ حرُماتنا . نساؤنا ينتظرنك خلف سياج الحلم . في الغرف ينتظرنك وفوق العشب . الجنس يلفح جلودهنّ ولا حبيب غيرك .

أيها الوطن يا كتل الملح ، أيها الهزيل كالهواء ، الصابغ جلده برماد الكتب ، أيها الجندي الشيخ يا وطني ،

أمنحك في أحشائي أن تمشي ، أمنحك الأنين مع خطواتي . تنهّد يا وحيداً مثلي ، تنهّد مكسور الخاصرة ؛ يائساً يائساً تنهّد .

لن أموّه جذور الطاعون ــ تحت شجرة يأسي أتفيأ ؛ أجلس على أهدابي وأنتظر نسر الموت .

على كتفيْ غمامةٍ هاجر الأمل . كسر مزاميره في صدري . أسمع طريقاً تنزف شقائق وأكفاناً ، أسمع نحيباً في الشوك .

أسميك أيها اليأس لكنك لا تُسمّى . بعد الآن لن نفترق ولن نمشي معاً بعد الآن .

5

تحت بيارق الرفض أُسرج كلماتي ــ في غضون وجهي عرسٌ آخر والأرض بين يديّ امرأة .

أحارب لحميَ الممزق ، أنحني لصداقة البرق ، وبالرعد أمسح جراحي .

قاتلُ القمر أنا ، قاتلُ العنقاء المشعوذة . أركب صهوةَ السمندل وأتنشّق الجمر .

العقرب يرتسم وطناً . الضفدع يلبس قناع التاريخ . المجد يكتبه سطيح والزّخّ ــ لكن صراخي سيبقى : آه يا قفا العالم ، آه يا عذوبة الأشياء المنكَرة .

فوق طفولة الأرض أكتبُ تاريخنا . لأبجدية المطر أزوّج الحبر ، ولْتخدشْ وجهي أظفار الشمس ، ولْيفرح قايينُ بحفيده .

6

حجرٌ تحت أقدامنا يعلو ، يعلو . جرسٌ أخضر في خطوات النهار . نجمةٌ جلست عند البحر ، تركت لنا جلدها وغابت .

ثمة حرذونٌ يغازل السماء . ثمة جبلٌ ينبعُ دخاناً وثلجاً . ثمة ساعةٌ لا تأتي .

من كهوف الحجر أيها الشاعر اخرجْ . مع الفأر والسمندل والحباحب اخرجْ . واشهد لشعراء يسكنون وطناً لا اسْمَ له ، وطناً منفوخاً بالجثث ،

لشعراء يقرأون قصائدهم للعشب ،

اخرجْ واشهدْ للشعر ـــ

بعد القناديل هاويةُ الأجنحة ، بعد البحر موت الفُجاءةَ .

7

ذاهلٌ تحت شاشة الرؤيا مأخوذٌ بالرفض ـــ يا رجل! قل لنا آيةً تأتي . . .

أغنية

النواقيس على أهدابنا

واحتضارُ الكلماتْ

وأنا بين حقول الكلماتْ

فارسٌ فوق جوادٍ من ترابِ
رئتي شعري وعيناي كتابي .
وأنا تحت قشور الكلماتْ
في ضفاف الزبد المؤتلقه
شاعرٌ غنّى فماتْ
تاركاً تحت وجوه الشعراءْ
للعصافير لأطراف السماءْ
هذه المرثيّةَ المحترقه .

تحولات العاشق

. . . هن لباس لكم وأنتم لباس لهن .

قرآن كريم

الجسد قُبَةُ الروح .

القديس غريغوار بالاماس

1

كان اسْمُها يسير صامتاً في غابات الحروف ،
والحروف أقواسٌ وحيواناتٌ كالمخمل
جيشٌ يقاتل بالدموع والأجنحة ،
وكان الهواء راكعاً والسماء ممدودةً كالأيدي .
فجأةً
أورَق نباتٌ غريبٌ واقترب الغدير الواقف وراءَ الغابات
رأيتُ ثماراً تتخاصر كحلقات السلسلة
وبدأ الزهر يرقص
ناسياً قدميه وألْيافه
متحصِّناً بالكفن .
كانت المرافقُ العضلاتُ الوجوهُ بقايا وليمةٍ لنهارٍ مرض ومات
ومدعوِّين لم تولد أسماؤهم بعد . . .
(ورأيت موكباً من الأفراس البيض تمتطي السماء ، فهرولت صائحاً : ثعبانٌ
يركض خلفي» . وكرّرتُ صائحاً : «ثعبان طويل كالنخلة . . .»

لكن موكب الأفراس أسرعَ ولم يسمعني . وقلت
آخذ فرساً وأنجو
توسّلتُ وتحقّقتُ : لا صوتَ لي .
ربطتُ خاصرتي بريح الجزع ، وتطايرت .

هوذا شيخٌ برائحةٍ طيبة ، في طريقي
ــ «هل تقدر أن تجيرني من هذا الثعبان؟»
ــ «أنا ضعيف وهو أقوى مني . في الطريق من يجيرك ، أسرعْ» .
أسرعتُ حتى انتهيتُ إلى الهواء
كانت السماء ترنو إليّ أظهرُ وأغيبُ في الظلمة
والرّيح تتلفّظ بي وتردّدني ،
سمعت صوت الشيخ من بعيد :
«أمامك جبلٌ ملآن
بودائع الحياة . لك فيه وديعة تنصرك وتجيرك» .
وسمعت صوتاً آتياً من الجبل :
«ارفعوا الستائر وأَطِلّوا» .
التفتُّ فإذا الجبل نوافذُ
والنّوافذ أطفالٌ وأمّهات . ونظرت مصعوقاً : طفلةٌ تبكي ، تقول هذا أبي ثم أشارت إلى الثعبان فولى هارباً» .
وامتدّت نحوي يدٌ

جذبتني وأدخلتني مكاناً لم أعرف عمره .
كان هناك سريرٌ ينتظرني . يجلس عند رأسه طيفٌ ينهض كالثدي ويلبس عجيزة وصدراً وما تبقّى ،

واستيقظ جسدي ، وهوَى أسيرَ المسامِّ وخواتمِ العين والسّرةِ والطبيعةِ الثانية التي تتناسل فيها أنواعٌ ثانية من الخشخاس واللُّفّاح وسواهما من نباتات الذكورة والأنوثة ،
وأخذ جلدي يتهيّأ لسقوط كوكبٍ آخر في تجاعيده .

2

تكبرين في الجهات كلّها
تكبرين في اتّجاهِ الأعماق
تَتفتّحين لي كالنّبع
وتستسلمين كالشجرة .
وأنا
كنتُ عالقاً بأبراج الحلم
أرسم حولها أشكالي
أبتكر أسراراً أملأُ بها ثقوب الأيام ؛
نقشتُ على أعضائِك جمرَ أعضائي
كتبتكِ على شفتيّ وأصابعي

حفرتكِ على جبيني ونوّعتُ الحرف والتّهجية وأكثرتُ القراءات
كان تنهّدي سحاباً يسندُ الأفق
رداءً أنسجه وتلبسينه مصبوغاً بالشمس
وكان اللّيلُ ضوءاً يقودني إليكِ .
في طيّاتِ ثوبك اختبأت
رافقتك إلى المدرسة
سرقتْ خطواتنا أجراسَ العتبة
وانسللنا
جلستُ إلى يسارك في الصفّ
نمتُ بين أهدابك
وما رأيتكِ

في سفَرٍ لم يصل إلينا كنتِ
ثيابك الأقاليمُ والفصولُ دربكِ إليّ .

على جذوع الشجر قرأنا اسمنا
مع الحجر تدحرجنا
الشّجر أصواتٌ مثلنا والتراب تحت وهجنا ثمرة
نرافق غيمةً
نتحدث مع البيوت
والنهار يسير خلفنا مكسوّاً بالعشب

ثم تصعدين بخوراً صوب قاسيون
وفي دخانكِ أترنّح
طيّعاً ، أليفاً ، ولي طعمكِ الخجول .

3

ليبير ، ليبيرا ، فالّوس . . .
خيطٌ من الفجر حامضٌ على العين يوقظنا
أَحكمي عقدة الجفون .
في جسدينا يرفع الضّوءُ تلالَه وراياته
واللّهبُ يمتدّ وسائدَ وسائدَ
أَحكمي عقدة الجفون .
النهار يعلن الليل ــ استيقظي .

أَخترق سفينةَ جسدي إليك
أستطلع الأرض الغامضة في خريطة الجنس
أَتقدّم
أكسو ممرّاتي بالطلاسم والإشارات
أبخّرها بهذيانيَ الأدغاليّ ، بالنار والوشم ،
أحسَبُ نفسي موجةً وأظنّك الشاطئ :
ظهركُ نصفُ قارّة ، وتحت ثدييك جهاتي الأربع .
أَتشجّر حولكِ

وأهوي ، بينك وبيني ، نسراً بآلاف الأجنحة .
أسمع أطرافك الهاذية
أسمع شهقة الخاصرة وسلامَ الأوراك
يغلبني الحالُ
أدخل صحراء الجزع هاتفاً باسْمكِ
نازلاً إلى الأطباق السفلى
في حضرة العالم الأضيق ــ
أُشاهدُ النّار والدمع في صحنٍ واحد
أُشاهدُ مدينةَ العجب
وتسكر أحوالي
هكذا يقول السيد الجسد .

أيّتها المرأة المكتوبةُ بقلم العاشق
سيري حيث تشائين بين أطرافي
قفي وتكلّمي :
ينشقّ جسدي وتخرج كنوزي
زَحزحي نجوميَ الثابتة
وَاسْتلقي تحت سحابي وفوقه
في أغوار الينابيع وذرى الجبال .

تجتمع حوالي أَيّام السّنة

أجعلها بيوتاً وأسرّة وأدخل كلّ سريرٍ وبيت
أجمع بين القمر والشمس
وتقوم ساعة الحب
أَنغمسُ في نهرٍ يخرج منك إلى أرضٍ ثانية
أسمع كلاماً
يصير جنائنَ وأحجاراً أمواجاً أمواجاً
وزهراً سماويّ الشوك
هكذا يقول السيد الجسد .

عاليةً عاليةً عالية
صيري وجهي الطالع من كل وجه
شمساً لا تطلع من الشّرق لا تغيب في الغرب
ولا تستيقظي ولا تنامي . . .
أصعد إليكِ هابطاً إليك
أجمع أقاصي همومي وأطرافَها
وأهجم عليك بقلبي
وأقول للوسوسة أن تطوف بي على كل خليّةٍ فيك .

تنصبين سريرك
أو تفرشين الأرض
نزرع أشجار الجسد

نَتخطّى بأصواتنا
إلى أن يحين ميقات الظهور .
اغتربَ الجسد
مسّه التحول
وَجَع المفاصل نبضُ الأطراف هندسةُ العضل وأُبّهةُ الفعل
الانقباضُ التقلّصُ الانفساحُ
مهابطُ الجسد مصاعده سهولُه مدارجهُ التواءاتهُ
أرضُ الخاصرة المليئة بالنجوم وأنصافها ببراكين الجمر الأبيض
بشلاّلات الجموح والشهوة

بعد هذا نتفيّأ سرادقَ الحوض
حيث يستديرُ كوكب الجنس
يكتملُ التحوّل
يصير ثدياك الليل والنهار .
هكذا يقول السيد الجسد .

4

ليبير ، ليبيرا ، فالّوس . . .
(«الحب على البحر ، البحر على متن الريح ، والدُّنيا كلّها حرفٌ في كتاب الجسد .
ـ ماذا رأيتِ؟

ـ فارساً يقول : «لا تريدين شيئاً إلا كان» .
أخذتُ قمحاً بذرته وقلت له اطلع ، فطلع . قلت انحصد ،
فَانْحصدَ . قلت
انفركْ ، فَانْفركَ . قلت انطحن ، فانطحن . قلت انخبز ،
فانخبز
فلما رأيتُ أني لا أريد شيئاً إلا كان ، خفت واستيقظت وكنتَ
على وسادتي .
وأنت ماذا رأيتَ؟
ـ ريحاً فيها شهب من النار وراءها أطفالٌ يقودونها
ـ ماذا أيضاً؟
ـ هضبةً تتحرّك وتنشقُّ عن غزالةٍ حبلى
ـ ماذا أيضاً؟
ـ كنا معاً في مركب وكنتِ حاملاً . وبينما نحن في عناقِنا الأليف انكسر المركب ، فنجونا على خشبة من أخشابه ، وَضعتِ عليها طفلك .
وصحت : عطشانة ، فقلت : من أين ونحن في هذه الحالة؟ ثم رفعتُ
بصري إلى السماء وإذا بشبح في الهواء يمدّ لي
إبريقاً أخذته وسقيتكِ وشربتُ
ماءً أشهى من العسل وأطيب
ورأيته يغيبُ وهو يقول «تركتُ هَوايَ لِهواه
فأسكنني في الهواء .»)

طامحٌ جسدي كالأفق وأعضائي نخيل
تُثمرين فِيَّ
أُقطف تحت صدركِ ، أَيبسُ وأنتِ ريحاني والماء
كلّ ثَمرةٍ جرحٌ ، وطريقٌ إليكِ
أعبركِ وأنت سُكناي َ أسكنكِ وأنت أمواجي
جسدكِ بحرٌ وكلّ موجةٍ شراعٌ
جسدكِ ربيعٌ وكلّ ثنيّةٍ حمامةٌ تهدل باسمي
تحشرين إليه أعضائي
أَتّجه في تِيهٍ وسكرات

أرتعبُ أتجاسَرُ
أستنجدُ بالغابات والبراري
بالطّينة الأولى

أتمزّق أنفطر نازلاً إلى أغواره
مليئاً بخلائقَ تشتعل تنطفئُ تَشهق وتزفرُ ،
تَخطفني هاويةٌ منه

أصعد
ألملمُ قلبي المتناثرَ في نهاياتي
أرفع بصري إليكِ تنادينني :

«أبطأتَ يا حبيبي أبطأت
جسدي خيمةٌ أنت حبالها وأوتادُها ،
أبطأتَ يا حبيبي . . .»
طفلٌ تحت ثيابي يصرخُ الحبُّ الحبُّ
الشّجرُ مصابيحهُ والهواءُ برجه وأجراسه
راكضٌ حبُّه في قَوادم الرِّيح
طائرٌ حيث لا حدّ
في اتّجاهِ السّماءِ السّماءِ السّماءِ . .

تذكرين
بيتنا واقفٌ على حِدةٍ في نسيج الزيتون والتّين والنبع يرقد حوله
صغيراً كالبؤبؤ
تذكرين
الخشبُ يرفرف كالفراشات
والليل أول الأرض . . .

اللّيل . . .
عَمِّقي فُوهةَ الصّدرِ صِيري متاهةً واحضنيني
يكون لي تاريخٌ من الرّعد
سهولٌ يحرثها الرحيل
جزيرةٌ من محابر الجسد

أصِل أطرافَها بموتي وأسكن في أوائل الحروف
اللّيل . . .
بين الزّغب أنصب خيامي
أختلج
أُهيِّئ عدّة السفر
كلّ خلجة بلادٌ والطرق مضيئةٌ كأحشائي
ننحني نتوتّر نتقابلُ نتقاطعُ نَتحاذى
(أنا لِباسٌ لكِ وأنتِ لباسٌ لي)
تتخمّر العضلة
وتأخذ البشرة لونَ البنفسج وطَعم البحر
حيثُ تُومئ اللجّة وتُبحر أطرافنا
نسمع أنينَ السرائر
نَلمحُ عروقَنا تتزيّا بالموت
نَتقوّسُ ونكبو
آهِ الماءُ المخلِّص الحبُّ
لماذا التّعب الراحةُ يا نسيجاً أكثرَ تلاصقاً من الماء يا حبّ؟

أعراسٌ أعراس
سِحرٌ آخر يُضيئنا لا الشّمس
أعراسٌ أعراس
تفتح وجهَنا على مدائن السّحر

تفتح تخومَنا على الجنس
والحلمُ أرضٌ تدور تحت أهدابنا
يَا لَلْحُبِّ الآخر في الحبّ
أيّها البعدُ الذي يبدأ بعد الأبعاد .

كما خلقتكِ اشتهيتني
كما شئتك انسكبتِ فيّ
تدخلين في إيقاعي
تدهنين ثدييكِ بكلماتي وتغرقين في قَرارة الحب
حيث أرفع مدينتي وأحيا
نحيا ، ومن أعماق الأشياء الحاقدة نعلن الحب

نحلم أنّ أهدابنا محابِر والنّهار كتابٌ مفتوح
أبعدَ من الحلم سرنا
أبعدَ من القلب أحببنا
قلنا لا تُسمّنا لمن يُسمّي واستيقظنا
أنتِ بحيرةٌ
وأنا جذع لفّاحٍ وملآنٌ بالأرض
أرسو في شواطئك وخصركِ مرساتي

أيُّ مَدٍّ ينتظرنا؟

مغلَقٌ نَفَسي كالمحار وأنتِ لؤلؤي وصيّادي
وجهك حاملٌ شراعي وبين حبّنا والسّماء فضاءٌ لا يكفي
أكشفُ الوجهَ الثاني من النهار
ألمحُ الجهةَ الثانية من الليل
أصرخ بالبحر: أيها الجامحُ انكَسِرْ كالقَصبَة
وبالرعد: اسمعْ!
أسألُ:
هل الحبّ وحده مكانٌ لا يأتيه الموت؟
هل يقدر الفاني أن يتعلم الحب؟
وماذا أسمّيك يا موت؟
بيني وبين نفسي مسافة
يرصدُني فيها الحبُّ يرصدني الموت
والجسد عمادتي

من أعماق الأشياء الفانية أعلن الحب
ليبير ليبيرا فالّوس . . .
ـ «كيف تزوّجتَني؟»
ـ «كنتُ أسير وحشيّاً ليس عندي ما أسكن إليه وأرتاح
فنمت نومةً واستيقظت
وإذا على وسادتي امرأة
تذكرت حواء والضلع الآدميّ وعرفت أنّك زوجتي .

يومَها حلمت أنَّ سحاباتٍ رُفعت لي
وناداني صوتٌ : اخترْ ما شئت
فاخترتُ سحابةً سوداء منها وسقيتكِ
وقلتُ
أيها الجسد انقبض وانبسطْ واظهر واختفِ
فانقبض وانبسطَ وظهرَ واختفى
ورأيت ثوبي يميل عني
والظلام يغشاني
وطلع مني العالم صارخاً كالحربة :
«اهبطْ عميقاً عميقاً في الظلمة»
وقعتُ في الظّلمة
رأيتُ الحجر ضوءاً والرّملَ مياهاً تجري
والتقيتُ بك ورأيتُ نفسي
قلتُ :
سأبقى في الظّلمة ولن أخرج
لكن
جاءت الشمس وهرّبتْني
ورأيت كلّ شيء يدخل في الشّمس . . .»
وكيف تزوّجتِني؟
«ــ كان جَسدي هبوباً إليكَ
يتلوّن بالأرض هبوباً إليك» .

5

أمس ،

أغلقت بابَ غرفتي مع النجمة الأولى

أسدلتُ السّتارة الوحيدة ونمتُ مع رسائلها

وها وسادتي مبلّلة والكلمات حُبالى

أحلم ــ

أغسل الأرض حتى تصير مرآةً

أضرب عليها سوراً من الغيم سياجاً من النار

وأبني قبّةً من الدمع أجبلها بيدي

«ــ ماذا أعددتَ هديّةً أخيرة؟

«ــ قميصيَ الذي لفّنا يوم تزوجنا .

وسأنزل معكِ

إلى القبر لأهوّن

عليكِ موت الحبّ ،

أمزجكِ بمائي وأسقيك للموتِ

أعطيك ملكيَ : القَبر ومجّانيّة الموت .»

مَرّةً رأيتها بحراً يَعلو

عشقتُ الزّبدَ

وأقسمتُ أن تكون الأمواج جارتي

أنزّه في ملحها همومي
وتقرأ عليّ أصداءها

(ترى ما تحت الجلد . هل تريد ، إذن ، أن تكشف قارّة الأعماق؟ اتركْ لغيرك أن يكتشف قارَة الأعالي .)
الأعماق . . .

(كنا حشداً كبيراً ، نساءً ورجالاً ، نسيرُ في طريق النساء .
فجأةً خرج علينا فهدٌ قطع الطريق . قلت لرجلٍ بجانبي :
ــ أليس هنا فارسٌ يرد عنا هذا الفهد؟
ــ لا أعرف لكن أعرف امرأةً تردّه .
ــ أين هي؟
سار وسرت معه إلى هودج قريب فنادى :
ــ نادا ، انزلي وردّي عنا هذا الفهد .

قالت :
ــ أيطيب قلبكَ أن ينظر إليّ وهو ذكر وأنا أنثى؟
قل له : نادا تحييك وتأمرك أن تفتح الطريق ،
فحنى الفهد رأسه وغاب .)

الأعماق

لماذا تستعجلن موتي أيّتها الصديقات؟
اتركنني
أسمعُ في ذاكرتي أجراساً
أسمع في الأجراس أرضاً ثانية
تنقصني أرضٌ ثانية لأضيف إلى لغتي كلماتٍ جديدة
ينقصني
الموت
اتركنني
دعتني صدَفةٌ قرأت شِعرها عليّ ،
قرأت أيضاً صفحاتٍ من كتابٍ سمّته «غرفةَ الصدفة» ،
كانت وهي تقرأ تكشف أسرارها :
رأيت فيلاً يخرج من قَرن الحلزون
رأيتُ جمالاً وأحصنةً في محاراتٍ بحجم الفراشة
وُلد أمام عينيّ كائنٌ نصفُه حجَرٌ ونصفه الآخر
حيوانٌ أشارت إليه هامسةً : هذا هو المرأة
ثم وشوشتني :
«ضع أذنيك بين أوراقي» ـ
سمعت إيقاعات الفصول
سمعتُ موسيقى بيت يتهدّمُ ، يكبر وهو يتهدّم وحين آذنت
برحيلي سمعتُ أصواتاً تردّد :
«سلامٌ للأصداف ، للمداخل اللّولبية

سلامٌ لملك الجبال النائم هناك
سلامٌ لخطاطيفهِ المغَنغِنة . . .»

أَغلقي
جسدي غرفةٌ مغلقَةْ
جسدي غابةٌ وسدودٌ وأقنيةٌ مغلَقهْ
أَغلقي
جسدانا زوايا وأغطيةٌ ضيّقهْ
جسدانا رتاجٌ وسقّاطةٌ والممرُّ إلينا
ولَهٌ في النّباتِ المعرّش في الفُسْحَةِ الضيّقهْ
بين أفخاذِنا والعيون
ولَهٌ يفرز الجنونْ
أَغلقي
كلّ أصدافنا تظلُّ ، وإن كُسِّرت ، مغلقهْ
أَغلقي
أَحكمي عقدة الجفون
لون أهدابنا ، حين نعرى
ونلبس أحلامَنا ، ونُوسْوِسُ ،
خَارطِةٌ مغلقهْ . . .

6

شَمسُ العاشق تتدلّى ويحنيها النوم
يلزم أن يأخذَ الغيب عطلة الحصاد
أنْ يسيح وجهي في روح الدنيا
هل أمزّق سفر الخروج
أنحني فوق صورتي وأقرأ رملَها المزرَّد كالدرع؟
هل أهمس لثيابي :
تنقّلي على عُكّازٍ كمن يحلمُ واقفاً
تعلّقي إشارات وبيارق
في أحراشِ الأصابعِ والرّقبة حيثُ أسكر وأدوخ كدوّار الشمس؟
هل أقول لهذا الكرسي :
اتْبَعني ، وابْقَ وفيّاً للتعب الذي تشرّبته خلجةً خلجة؟
هل أُذكّر الموتَ بأوراقه التي نَسيها عندي في زيارته الأخيرة؟
بين أصدافي وبيني قوس ألوانٍ ومسافات
تستطيع المدن أن تعبر تحته وتستريح
لأصدافي أيضاً شوارعها وأشجارها ، ولها غُرف نومٍ وأعياد
لو يتكلم السرطان لسألته أين يبيت الليلة
لو ينام البحر لفرشت له سريراً عندي . . .

1 ـ صوت :
«نترك رأسينا خارج العهد

نمنح لكليهما عقاقيره وأشباحه
رأسكِ وسادةٌ ، رأسي بركان يشتعل

ثم نكتب الوثيقة :
«المرأة بيت موقّتٌ للرجل البيت الموقت
«الرجل غد الرجل ، المرأة مستقبل المرأة»
مع ذلك نبدأ الصفحة التالية
نتحاور بالأرجل
بحبر المسامّ وكلماتِها
ونلهو في ممراتها المقنّعة

فجأةً
تجيء الحمم تومئ الصاعقة
نستيقظ ويجري كلانا وراء رأسه
في حنين السكَن والإقامة وأمواجِ الرّكض
وراء الوطن الآخر
الضّائع الدائم . . .»

2 ــ حوار :
ــ بيني وبينك حجابٌ ولن تريني

أنّى لكِ المفاتحة والكشف؟
وقع في قلبكِ الموتُ فاستنيري بالموت
ومن أين تخرقين العادة؟
تخبطين ، تخلطين . . .
أحوالي لم تستحكمْ فيكِ . . .
ــ أنا قراركَ
طبختُك شمسي
لبسْتكَ خاتماً ختمتُ به على الدهر .

3 ــ أغنية :
جَسَدُ الشّاعرِ
جَسَدُ الطّفل والغرابْ
جسدٌ في الكتاب
في هشيم السّتائر في الباب في الحجر الساهرِ
بين عينيَّ والكتابْ
جَسَدٌ في الزوايا
في السّراب الذي يتناسل تحت المرايا
جَسَدٌ يتناءى
حجراً طائراً يتلقّفُ أو يضربُ السّماء
جَسَدٌ يتفتّحُ في الحلم ، يُغلَقُ في اللّيل ، يَمْتدّ بين الحروفِ

جسَدٌ يتقهقر في أوّل الصّفوفِ
جَسَدٌ يتراءى
كالطّريق المعلّق ، يفتح أوراقَهُ ويستنطِقُ الفَضاءَ
حيثُ لا يعرف الصّدى أدوارَهْ
حيث لا شيء فوق مسرحيَ المقبل غيرُ الصّدى وغيرُ
السّتاره . . .

4 ـ أغنية :
أدعوكِ يا نهايةَ اللّيلِ انْتشي وطولي
صِيري على فراشي
ساحرةً ،
أدعوكِ أن تقولي
ماذا يقول الحبّ للعاشق ،
في نهايةِ الفصولِ؟

5 ـ أغنية :
لم يزَلْ شهريارْ
في السّرير المسالمِ ، في الغُرفةِ الوديعَهْ
في مرايا النّهارْ

ساهِراً يحرسُ الفجيعهْ
سرقَتْ وجهَهُ الكلماتُ الخفيفهْ
علّمتهُ السُّباتْ
في سوادِ البحيرة في زرقةِ الحَصاةْ
بين أنقاضِه الأليفهْ .

لم يزل شَهْرَيارْ
حاملاً سيفه للحصادْ
حاضِناً جرّةَ الرّياح وقارورةَ الرّمادْ
نَسِيتْ شهرزاد
أن تُضيء الدّروبَ الخَفيّهْ
في مدار العُروقْ
نسيت أن تُضِيء الشّقوقْ
بين وجهِ الضحيّه
وخُطى شَهْريارْ .

(بيروت ، 1962)

أقاليم النهار والليل

تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً .

قرآن كريم

آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

الإمام علي

وكنت لا أرى في النوم شيئاً إلا رأيته في اليقظة .

أبو القاسم الجنيد

١ـ فصل الحجر

1

(ــ «سلامٌ . ألكَ رفيقٌ يؤنسك؟

ــ «نعم .

ــ «أين هو؟

ــ «أمامي وخلفي ، عن يميني وشمالي .

ــ «ومن أين تأكل؟

ــ «حين أحتاج إلى الطّعام ، أسمع فوق رأسي صلصلةً . أنظر فأرى كأساً تتدلّى

وشخصاً في الهواء يناولني رغيفاً .

ــ «ومن يزوركَ ويخدمك؟

ــ «الدنيا . تجيء إليّ في شكل امرأةٍ ضيّقةِ الخاصرة .

ــ «هل ترافقني؟

ــ «إذا رأيتَني مرّةً ثانيةً ، لا تكلّمني .»)

2

تعبرُ نارٌ زرقاء في الجمجمة
تعبر في أوائل الهذْب
حيث تنهض أرضي وتومئ وتنحني –
أرضي!
صوتٌ طالعٌ من هنالك
عطرٌ يأتي
جبالاً تَسْتيقظُ كأعناق الأطفال
سُعالاً يتهدّج في حناجر الماء ،
وفي طبقات الورد والزُّرقةِ
أشخاصٌ يأتون يروحون يكتسونَ بالبراعم
ويمسحون دموعهم بالأوراق .

أرضي . . .
امرأةٌ بخضرة اللَّهب
يَتصاعد حنينُها وسائد وسائدَ
تتعرّى المسافة
ويمتلئ وجه اللّيل بشامات الرّوح .
هكذا أزدهي صائحاً : مَن يعرف مثليَ الأسرار وقد نَفخت بين
شفتيَّ الأرض؟
أتربّع في الهواء

أتدثّر بالدّنيا
أتعب ، أضرب خيمتي بين عينيّ ،
وحين أعودُ
أغلق بيتَ نفسي وأشتغلُ بحالي .
أرضي!
عالمةٌ كالجسد ، مليئةٌ كالجسد
كلّ عضَلةٍ فاتحة ،
كلّ فاتحةٍ عتبة :
اقرعْ أيّها الزّمن اقرعْ

ثمةَ سلاسل
مساميرُ
قُضبانٌ
بَشَرٌ بأقدامٍ أربع تصهل وعلى اللّجام أحلامٌ وعطور
التّقديسُ التّصدّيقُ العجزُ
السّكوتُ الإمساكُ الكفُّ التّسليم التّسليم
ثمة أصواتٌ تتعالى
البدعة ، البدعة! المحدث ، المحدث!
نُبطِل سنّةً قديمةً
نردّ للإنسان اسمَه
ونبدأ

اقرعْ أيّها الزّمنُ اقرعْ
يلزم صبرُ الحجَر
تلزم شجاعَة القبر .

أنهضُ نحوكِ يا أبعادي
أرضاً
تتطايَرُ في هواء التّاريخِ
تتقصّفُ غصناً غصناً .
انطفأتْ نيران خيامها ومعسكراتها
انطفأت شهواتها
أسمع فوق رأسها ناقوساً من العناكب
ألمح على قبرها غطاءً من الكلماتِ الشّائبة ، ــ
نجمةً تتقمّصُ نعجةً لتعرف السّماء وتشهد ،
غيمةً تذوب ،
تتفيّأ ظلّ صخرةٍ وتنتظر التّرابَ عشيقَها الشّيخ ،
ريحاً مسحورةً بخرومِ الإبَر . . .
أرضاً
تتقصّفُ غصناً غصناً ، ــ
ثَديُ النّملةِ يفرز حليبَهُ ويغسل الاسكندر
الفَرسُ جهاتٌ أربع ورغيفٌ واحد
والطّريقُ كالبيضة لا بداية له .

أنهض نحوكِ يا أبعادي
أرضاً ــ
جسراً كالطّفل يرضع أعمدته

وَرَقاً تكلّس فوقه الكلام
اللّسانُ ينبتُ في الأقدام طويلاً حتى السُّرّة
واللّغة رمادٌ يتكوّم قربَ العجيزة ؛
أرضاً
تتقصّف غصناً غصناً ــ
الجدارُ يصيرُ دمعاً والدّمع ضَحِكاً
النّهار يَكْتَهِلُ حنيناً إلى الموت
كل شيءٍ يسافر تحت راية البراعم
براعم النشور والقبر
القشّ والمطر
الزّرع والحصاد
كلّ شيءٍ زهرٌ أسود ،
الحوانيتُ غيومٌ حُبلى بالبرق
الشّوارع قامات يكسوها الحلم
الحلمُ طائرٌ مليء المخالب يُعشّشُ في سقف الأيّام
رمحٌ يخرق الفارسَ والدّرع
يجلسُ فوق الغنيمة ويشربُ النّجيعَ كالخمر

نجيع اللؤلؤ والكتاتيبِ ،
الحروفِ المقدّسة وأسرار الموائد والكراسي . . .

أرضاً ، أرضاً ، أرضاً
ثمةَ رأسٌ كالصّندوق يلبس حذاء النبوّة
سُرّةٌ ترتسم على جبين المقاهي
عرسٌ يدور تحت سراويل الموت
حَجرٌ يتثاءب ،
ثمّةَ وارثونَ خِفافٌ كالرّيش يحملون الطّميَ والترسّبات
ثمّةَ نارٌ أجبنُ من الماء .
أنهضُ نحوكِ يا أبعادي
أرضاً
تتطاول خيمةٌ خيمةٌ :
ينتظرني خوانُ الفتوى ـ
باقاتُ الكتب
فناجين الكلام
عطرٌ يتسلسلُ
من أردان امرأةٍ يبست في الدّنيا ونوّر نَهْداها في حدائق الآخرة ،
ينتظرُ مَقْعدٌ بحجم القفص ـ
أشهد مسرح النّهايات ،
نهايةَ الشمس والهواء

الوثب والعلوّ برحمة الشّهيق والزّفير
نهايةَ الثّقوب التي تربط النَّفسَ بخيط الأشياء الحُبلى بالأشياء
ونهايةَ الجنين .
وتحت الخِوان يجثُم النَّهَمُ
ويتكوّمُ الفضاء جُثّةً تسكر حولها مناقيرُ الجوع
والعودةِ إلى أوّلِ

الدائرةِ ،
وراء الاجترار وخطوطه عرضاً وطولاً وإلى أسفل سافلين . . .

أنهض نحوكِ يا أبعادي
أرضاً
موجاً قائماً في الهواء
فَرَساً من المسك تنبتُ حوله أشجار الدّفلى
أنهضُ نحوكِ ـــ
الجبالُ عروقي وبين لحمي وجلدي دبيبُ النّمل : أرتعش ،
يسقط من كلّ رعشة كتاب .

(هنا ،
طلع أمامي ثورٌ بثلاثين قرناً وعشرين قائمة ، وبين أذنيه ياقوتة خضراء .
ورأيتُ دابّةً غريبةً تمشي . تناولتُ حجراً ، فأسرعتْ هاربةً إلى النّهر ،

وسبحتْ على ضفدعةٍ إلى الجانب الآخر . تبعتها . نزلتْ عن ظهر الضّفدعة وسارت . رأت رجلاً نائماً يهمُّ ثعبانٌ كبيرٌ يلدغه . عضّته الدّابَة . قتلته وغابت . فازددتُ تعجُّباً ، ثم أيقظتُ الرّجل فقام ، ولما رأى الثّعبان بدأ يهربُ . فقلت :
لا تخف ، وقصصتُ عليه القصّة) .

أنهضُ نحوكِ يا أبعادي
أتزوّدُ بعصايَ ـ
أشتهي الفاكهة
أغرسُ أشجاراً تورق وتثمر للحال ،
أظمأ ، تصيرُ إبريقاً
أدخلُ مغارة اللّيل
يصير طرفها الأسفل ناراً والأعلى قمراً ،
وقبيلَ النّوم ، تطيّبني وتحادثني ،
وحين تعرف أنني غاضِبٌ تُصبح شيئاً آخر
وتحرقُ ما تراه . . .

أنهض نحوكِ يا أبعادي
أصعدُ في الحَجر والدّمع
أصرخ الهواءَ الهواءَ ، وأشفق على غيريَ من صراخي ،
أصعد ، أتعبُ ، أسقطُ في خدَرٍ بلا لونٍ في عالمٍ لا يليقُ بي .

أرى رجلاً صالحاً يركب على جرادةٍ ويلبس خُفّاً أحمر
ويقول : الدّنيا سِحرٌ سِحرْ . . .

ـ («أين أشاهدُ صديقَنا الخضر؟»)
ـ («عند الصّخرة في كُوّةٍ على البحر ، وترى أَثَر جناحيه في الطّين») .

ورأيتُ الخضر يُدخل جناحيه تحت المدينة ويقتلعها . . .
المدينة!

(السّراطينُ تخرج إليها كاللّيل ، تدخل البيوتَ بَغتةً وتقفز بين الشّفاه)

أصعد نحوكِ يا أبعادي وأدعو ما حولي ليشاركني الولادة :
أصيرُ شيئاً من المكان ـ جدولاً ، أو سمندلاً ، أو خزامى ، أو غير هذا من خلائق الربّ سبحانه
تُولد آنذاك الشّفافية
أدخلُ آنذاك في النسيج الكونيّ ،
أصعد أصعد أصعد
تهتُ
وقعتُ في بَرّيةٍ :
(هذه عجوزٌ جميلة تركب على أسدٍ حوله سباع كثيرة . طاش عقلي .
قَدّمت لي كوزاً أحمر ما رأيتُ أشهى من مائه .

ـ «مَن أنتِ ومِن أين؟»
ـ «قيل لي أن أسقيكَ وأدلّك على الطّريق .»
ـ «مَن قال لكِ؟»

ولم تجبني العجوز الجميلة وغابت عن عيني .
وصاح طائرٌ فسمعت صوتَها يسألني :
ـ «أتعرف ما يقول؟»
ـ « . . . »
ـ «يقولُ : النّهارُ في ضيقٍ وبين جناحيَّ يستطيع أن يُقيمَ ويتَبحْبَح» .
وحين ناداني نسرٌ سمعتها تضحك وهي توشوشني :
«يقول : في البعد عن الناس أُنْس» .
وصاحت الشمس وهي تطلع فقالت :
ـ «أتعرف ما تقول؟»
ـ « . . . »
ـ «تقول : أنا قصدير الأرض ، يُجلى بي صدأ العالم ، وبي تُلحم أجزاؤه .»)

أصعد أصعد أصعد نحوكِ يا أبعادي
وحين تظهرُ غيمةٌ أقول جاءت مرساتي .

3

يلزمني الخروجُ من أسمائي ـ
أسمائي غرفة مغلقةٌ

جُبٌّ غائب
علي أسبر علي أحمد سعيد علي سعيد على أحمد أسبر علي أحمد
سعيد أسبر
يصارع يتكسّر كالبلّور
وأدونيس يموت
والهواء شقائقُ وأعراسٌ في جنازته

أورفيوس!
الرّعاة يبحثون عن ذبيحة . قل لرأسكَ أن يطفوَ مركبَ أغنياتٍ على النّهر ، وامنحهم نعمة أن يروك . الوباءُ جالِسٌ مقيم لا يطرده إلاّ صوتكَ ـ إلاّ دمك ، أورفيوس! أورفيوس . . .

ـ اهدأْ أيّها البقر الوحشيّ اهدأْ
لم يعد وراء جلده غير الإبرَ
والحبّ هذه اللّيلة شيخٌ في العشرين . . .
أهدأْ أيّها البقر المسكون بالزلازل
الجدران تتلوّى كالخيزران

والرّياح تتوافَدُ أبراجاً أبراجاً . . .
اهدأ يا بقراً محشوّاً باللّيل
الضوء يفتح الشّبابيك جارياً كالمهر
والشّارع مِياهٌ وأطفال . . .

يلزمني الخروج من أسمائي ، ـ
ـ هل يخرج من جلده ويمضي؟
يشجّعني ويهتفُ بي هاتفٌ :
حرّكْ شفتيكَ بكلامٍ لا يفهمه غيرُك فيصغي
إليك الورقُ وجحيم الأغصان
تسمع من يجيبُ موشوشاً : تلزمك صحبةٌ مع غير العالم ـ
تطالع بجوارحك الغيبَ ، وتحيا مطبوعاً على البدعة ،
وسوف أعتصمُ بجوعي ،
لن أشبع
لن آكل إلاّ موتي .
لماذا لا يأنس إليّ غير الهواء والحجر؟
لماذا لا تُسَرّ بي غير الأشياء؟
هل أنا وحش الحقيقة في هذه الخرائب حولي؟
ومتى ستُفتحُ عليّ تهاويلُ الدّنيا؟

4

شَبَحٌ يتغلغلُ بين سلالمِ الوقت
شَبَحٌ يَسيرُ في تجاويفَ ليّنة
يحملُ أفكاراً تفرّخ في رؤوس النّخيل ورمل الشّوارع
يحمل قلوباً أحَنَّ من العصافير ؛
ليدخلْ هذا الضّجيجُ الطّويل القدمين الآتي باسم آتٍ لا أنتظره ،
لو استيقظ مثليَ الطّريق الذي سيعبرهُ لَتَناثَر أثيراً من نوعٍ آخر ،
والتفَّ وتقلّص وارتدّت نهاياته ارتدادَ الموجة ، وهدأت
عند قدميّ ،
ليدخلْ ،
لو كنتُ شجرةً لرأيتُ أهدابي موصولةً بالأفق
والأفقَ موصولاً بغيره
وغيرَه موصولاً بالنقطة التي تجذبني وحولها أترنّح وأدور ،
لو كنتُ ثمرةً لرأيتَني
أسافرُ بالورق وغير الورق
بالبراعم والغصون
بالهواء وشعاع الشمس
ثم أَتراجع
أتلملمُ
أتجمّع
وأسقطُ في نفسي ناضجاً وعموديّاً ؛

لو بقيتُ حلماً
لو أبقى
لو البقاء حلمٌ
والحلمُ الأرض .

لِيدخلْ ، ــ
كيف أُمزَجُ كالهواء وأُعجَن غير عجنيَ الأوّل؟
لِيدخلْ ، ــ
مَن لي بما يذكّر ويشهّي :
ذهب الاستطرافُ
ماتت الشّهوة
وشيّخَ كلّ شيء .
لِيدخلْ ، ــ
أعنده الرّياحُ التي تكبّ الأفق؟
ليدخلْ ،

أفتحُ وأطلّ
أسمعُ أنّ حولي أناساً يتناسلون ، يموتون
يحاربون ، يحلمون

ولا أراهم ،

مع ذلك ،
أعرف البشر كلّهم
أذكر
قابلتهم في واحةٍ بين أذنيَّ ــ قربَ سَريرتي ،
لكن لا تزاورَ بيننا ،
الأشياء وحدها أراها وتراني .
أسمعُ أصواتاً ــ
صوتاً يقولُ لي :
«تُفارق نفسكَ وتمضي
سَفينةَ نفسك في نفسك
بيتاً كالسَّحاب
ولا دعامة . . .»

حجراً يصيحُ بي :
«أنِتَ غريبٌ أنا سريرك .»

أجنحةً عابرةً تناديني :
«النَجومُ فوقكَ زَبدٌ ثابت
والغيوم قبورٌ تتحرّك . . .»

٢ ـ فصل المواقف

1

« . . . وأوقفني في الرحمانية فقال : لا يستحق الرضا غيري ، فلا ترض أنت فإن رضيت محقتك» .

النِّفَّري

(موقف العظمة)

2

«وقال لي : النعيم كله لا يعرفني والعذاب كله لا يعرفني ، وقال لي : معناك أقوى من السماء والأرض» .

النِّفَّري

(موقف المحضر والحرف)

1

ـ الزّمنُ فخّارٌ والسماء طحلبٌ . ماذا تفعل؟

ـ أصيرُ الرّعدَ والماء والشيء الحيّ .

ـ وحين تفرغ المسافاتُ حتى من الظلّ؟

ـ أملؤُها بعينٍ تلبس الجهات الأربع ،

أملؤها أشباحاً تخرج من الوجه والخاصرة

وترشحُ بالحلم وذاكرة الشّجر .

ـ وحين لا تواتيكَ الدّنيا؟

ـ ألهو بعينيّ ليزدوجَ فيهما العالم

أرى السّماء اثنتين

الأرض اثنتين

إلاّ أنا ـ

أبقى واحداً .

ـ وحين لا يبقى غير الحجر صديقاً؟

ـ أهتفُ : يا صَدَفة! إنني جزؤكِ الرّخْوا

وأُديرُ قَرنيَّ للشّمس .

2

جَسَدي يحوّم فوقي خفيفاً كالرّوح
حجرٌ يتدحرج ورائي
نَبعٌ ينتظرني ؛ ـ
وداعاً أيها الجوهر الثقيلُ يا رخامَنا البشريّ
ولْيأتِ العابِرُ الخفيفُ
النّهرُ ووجهُه
الرّيحُ وأطفالها
ولْتأتِ الأجنحةُ المليئةُ بالغيم .

أغنية :

إنّه جمرة الزّمنِ اليابسِ :
لِيَغِبْ ولْيَضِعْ
في نسيج خلاياه في الظنّ في الهاجسِ . . .

أغنية :

ـ جاء في آخر اللّيلِ في موسم الكهولهْ
لم ينم في سرير الأساطير ،
لم يعرفِ الطّفولَهْ .

تنهضُ في جَسدي أرضٌ

تهمسُ لأيّامي أن تكون شبابيكها ،
تعلّم خطواتي أن تصيرَ باسمها رسائلَ وعصافير ،
هكذا أعبرُ كالزّجاج ، شفّافاً ولا ظلّ لي ،
في طريقٍ من الأجنحة .
أتحرّر ، أسجن أعضائي داخلَ أعضائي
أصير كبريقِ اللؤلؤة :
أضربُ العيونَ وأعود إلى بؤرتي .

من يعطيني ورقةً أحمّلها أكداساً من البخور والصّندل أنقّطها
كالعروس وأجلوها
أقرأ عليها سورة مريم
أهزّ فوقَها جذوعي من الشّوق والحلم
وأرسلها إلى أحبابي
مليئةً كالتّفاحة
خفيفةً وخضراء كمهرة الخضرا
وأنتم ،
يا من تكرهون التلفّظ باسمي
تُلصقونني بعيونكم حين تقرأون أخبار الوفيات
وتصرخون :
قَسماً ، يسيرُ وفي كلّ جيبٍ من جيوبه مدفعٌ
وامرأة عارية

أنتم أيّها الملائكةُ

الأطهارُ

المنقذون

القوّاد

الحكماء . . . الخ ،

ألتمسُ منكم في هذه اللّحظة معجزةً واحدة

أن تعرفوا كيف تقولون : وداعاً ، واو دال ألف عين ألف

معجزةً واحدة : وداعاً

بيننا بعدُ الرّوح

بيننا الأعماقُ والسّفَرُ في فضاء الأعماق .

برقية من بلاد نسيت اسمها :

البلادُ صغيرةٌ كعلبة الكبريت .

والشّمسُ لا تُشرق هنا ـ هل تشرق

عندكم ، حقّاً؟

مفكرة الشهر الماضي :

السّهر ـ والقهوة أحياناً . نقرٌ وهميّ

على الباب : نقرٌ لا يهدأ . جمعية

جديدة اسمُها جمعية الحيوانات

الميّتة والحيّة لِلرّفق بالإنسان . لعب

الورق مع أرواد . الكلامُ أحياناً .

يومية بدون تاريخ :

حوار قديم :

الطفولة : العالَمُ رجلٌ يُسرج حصانَه
في زيارةٍ إليك . سيدعوكَ إلى
صداقته .

أنا : صداقتِه؟ لِيمتْ أوّلاً وليأتِ . بعد
هذا يأتي الكفن . بعده القبر . ثم
تأتي الصّداقة .

نمتُ مرّةً ولم أكن متخماً
فرأيتُ صديقاً يدخل ويخرج بين أصابع قدميّ
آخرَ يحلّ سيور حذائي ويلتفّ بها
ورأيتُ صديقاً يذبحني .
أسماء أسماء
أسماء تثغو ، تصيء ، تلدغ وتصلّي
تجرح الجنين المهاجرَ بين البرعم والثّمرة وتستضيء بالسّوس ،
أسماء الخنق والحرق واحتضار الماء والأجنحة
أسماء اللّكاعَة
اللّهلَه
اللُّكاثِ
اللّهْوَقَةِ
اللّقْوةِ

لُقْيا اللُّفَاءِ واللُّقْسِ ولهاثِ الموت
وداعاً ، دا دا دا
وداعاً .

أغنية :
من ثلاثينَ عاماً أضيعُ وأكتشفُ الآخرينْ
كان لي سفُنٌ ومرايا
في مغاورَ ، حتّى الصّغارْ
يجهلونَ مفاتيحَها ،
كان لي ساحِرانْ
يخطفان الهدايا
من كنوز البلاد البعيدةِ ، من حارسِ البحارْ ؛
وكأنَّ الفضاءَ النَّحيلْ
كان لي فَرساً لِلرّهان
فَرَساً تتطاوَلُ تيّاهَةً كالنّخيلْ
تَسبقُ حتّى الفراشات ، حتّى ضبَابَ المكانْ . .

مِن ثلاثين عاماً
أضيعُ ، وأكتشفُ الآخرينْ
حيث أعطيتُ وجهيَ لِلغيم ، أعطيتُه للحقولِ الحزينهْ
حيث كنّا ــ أنا والصبّاحْ

عاشقيْن ربطْنا مسافاتِنا بثياب المدينهْ
وملأنا حقائبَنا بالرّياحْ
وجعلنا الرّياحْ
لغةً وقصائدَ للآخرين .

من ثلاثين عاماً أضيعُ ، وأكتشفُ الآخرينْ
أعرفُ أنَّ البكاءْ
رئةٌ للحزينْ
أعرف أنّ العصافيرَ شبّابَةٌ ، والسّماءْ
شَفَةٌ لا تُحاورُ غيرَ الجنينْ
أعرفُ أنّ الطّريقْ
لغةٌ في شعوريَ ، لا في المكانْ
لغةٌ في العروقِ وفي نَبْضِها ، لغةٌ في السّريرهْ
حيث تأتي المسافاتُ من أوّل الرّوحِ موصولةً بالبريقْ
ببريقِ الفتوحاتِ والكَشْفِ والعابرينْ
في التّخوم الأخيره .
أعرفُ أنّ الوجوه مَرايا ، وأنَّ الصّديقْ
حَجَرٌ ؛
كان وجهُ الحجَرْ
حُلُماً ، كان وجهاً يُضيءُ
ويُضيء على شفتيهِ الكلامُ

كان لي دفتراً أتوسّدُ أوراقَهُ وأنامُ .
أعرفُ أنّ الصّديقْ
فارسٌ في الصّفاف القريبةِ لكنّه لا يجيءُ .

وداعاً يا أنقاضي!
دميةٌ تدخل بغتةً من النافذة ، تحمل الجدران الأربعة وتمضي ،
طفلٌ
يعلّق أهدابه على الشجر كالمناديل
وفي الحجر يستريح ،
بيتٌ يحضن دفتراً ويركض حافياً إلى المدرسة ،
كتابٌ يضعُ نظّارةً
يربّى الأرانب ويدرّب العصافير على المهن الحرّة
وداعاً يا أنقاضي!

أغنية :

ذاكرٌ ، ذاكِرٌ شبابي :
جُزرٌ في يديَّ وفي قامتي
جُزرٌ في ثيابي
كنتُ بابَ الصّدى والأغاني
في بلاد الكهوف العريقَهْ
كانت الأرضُ لي زوجةً وصديقَهْ ؛

ذاكرٌ في الدّروب الضّريرهْ
شهقةَ اليائسينَ ينامونَ في الفجوة الصّغيره
بين أحلامهم والرّصيفْ ،
ذاكِرٌ كيف كان الرّغيفْ
مُصحَفاً ، وسماءً كبيره .

أنقاضي!
امرأةٌ تطلعُ من أحشاء النّيلوفر
تتبرّك بي
ثم تصيرُ وردةً في عُروة الشّيطان
وشجرةً على ضفّة الجحيم ،
حالِمٌ يقرأ كتاب الشّوارع راسماً وجهه بنار الإسفلت
شاعرٌ يفضح المدينة ويرقد في سراويلها
مدنٌ تنحني ، أشجارٌ تتلاقى واسْميَ المكانُ والوعد
سلاماً يا أنقاضي!

أغنية :
كتبي يحرقُها الطّاغي هناكْ
هيَ ذرّاتٌ من الغيم حزينَهْ
فوق أشلاء المدينهْ

وغداً ، أو بعده تنهمرُ ــ
أيّها الحجّاج لم تحرق سواكْ
إنّ شعري لغة الأرض هناكْ
وأنا الرّيحُ هنا والمطرُ ؛ ــ

لكن الأرض سائبةٌ ،
والرّعبُ آتٍ في الثّوب والثّور في البثور
في الماعز والحيوان التّوأمِ المسمّى رجلاً وامرأة
آتٍ في الحصاة والصّبر والصّباح
في الحرب وغير الحرب
في النّهد والنّوم
في اللّبن واللّيل
في الحبر والورق في الحروفِ آتٍ آتٍ
في الأمَة الأمّة الجهاد الجنّ والجراثيم آتٍ آتٍ
ميشا ماشا ميلانو سانشو راجا سان جيرمان دوبري ، باري سنْثيا ،

أغنية :
أتهجّاكِ يا لوحةَ الرّعبِ ،
أقرأ صحراءكِ الطّويلهْ

وغدي مائِلٌ ، وعلى وجنتيّ
بُقَعٌ من يَديّ
أتهجّاكِ ، أوقظ النّارَ في وجهكِ ،
أسْتَصرخ الحروفَ البخيله
أحضنُ الفهدَ والغرابْ
أحضنُ الميّتينْ
ألذين أفاقوا من العُشب كي يُبعثوا في التّرابْ
نملةً أو كتابْ
أقبلُ أن أغسلَ الميّتينْ
بغدي أو بأمسي
لأكونَ جديراً بنفسي :
أتخطّى ،
وأسْتَحْدِث الآخرينْ .

3

في الآبار المحفورة بالصّوت
في الصّوتِ
في العدد بين الرّقم والرّقم
في النّبض بين الحاسّةِ وأختها
بين الوريدِ والعنق
أسافر

في قطار النّوم واليقظة ،
في اختلاجه الذّاهب نحو الموت آتياً من الطّفولة ،
في الحركة التي تتسارعُ بين عجلاته وترتخي وتتشنّجُ وتهبط وتعلو ، حركة الجلد والمتاريس والحدود في مملكة الجلد ، حركة الرّشْقِ والدّفع والجذب ، حركة الهدم والزّخم والتفجّر ، حركة الفُقاعة والموت قبيل الموت بين الرّعد والإشارة بين الكلمة والحنجرة أسافر خارجَ الصّيَغِ ـ الشّكل ونقيضهِ

الضّفافِ المزحومة بالأصداف

خارجَ الصّدَفة
أسافر
أصعد ، أتفجّر
ألبس الهديرَ والتهدّج
أتموّج بالرّعب
أتحرّر من التّوبة ، العِظة ، العودة
أتحرّر من الصّبر
من دمي والتّاريخ الرّاقد فيه
أتجزّأ وأعرى وأوسوس نفسيَ ضدّ نفسي
أضعُ نفسي خارج كل شيءٍ وأقول للجنون الرّشيق أن

يسرقَ أهدابي كنسيمٍ غربيّ

أنقطعُ ، أنفصل ، أنفصم

أختبئ تحتَ شفتيّ

بعيداً بعيداً بعيداً

في الضوء في الظّلامْ

في الصّمت في الذّهولْ

في لغةٍ تغيّر الكلامْ

في مطر يغيّر الفصول

في الظّمأِ الجامح والسّير بلا وصولْ

بعيداً بعيداً بعيداً

عن الثقيل والعائق

عمّا يحني ويربط ويحاصر

عمّا يوفّق ويصالح ويعلّم

عمّا يقنع ويخضعُ ويرضى

بعيداً بعيداً

حيث أصيرُ البرقَ والجذرَ العائمَ الجَذْرَ

أسافر

هنا

حيث الجدارُ والجدارُ الكرسيّ والجدار التّبغُ والجدارُ

في حوارٍ دائم

حيث السّاعة خرطومٌ والجريدة نَوَرَسٌ أو يمامة ،

حيث الجسَدُ بساطٌ

والخبزُ ساحرٌ بآلاف الأقنعة
والجسَدُ الحضورُ والمسرح

أسافر أسافر

هنا ـ في العشب اليابس بين العِرْق والعرق
في الكرسيّ المغطّى باللّيل
في كتبي هذه الشعوب المريضة التي تتعانَقُ وتنام حولي

أسافر

في الفراغ وهندسته ـ حيث أكتب وأقرأ : «هنا يرقد إقليدس . . .»
حيث قُبر المتنبّي في صوته
وعاش المعرّي تحت عينيه
حيث عُلّق الحلاّج على خشبَةٍ في خريطة الرّوح
حيث الرّازي وجابر والسّهروردي وأصدقاؤهم يتكفّنون بأصواتهم
ويفرّعونَها أكفاناً ومقابر
هنا حيث الفراغُ وهندستهُ ـ
ظلّ الضوءِ والظلُّ الصّوتُ الشّرارُ

ريمان لوباتشوفسكي

سِلاه سِلاه سِلاه!

أغنية :

ـ رأسُ مهيارَ يعلو ، كأنّ الشّجَرْ

سُفُنٌ وضِفافُ
وكأنَّ المطَرْ
لغةٌ تتساقَطُ منهُ ، كأنَّ الكلامْ
أرضُه والمطافُ
رأسُ مهيار يرسبُ ، يطفو ، يطوفُ
ثقبت وجهَهُ الحروفُ
رأسُ مهيار يكبو ويعشق سِحْرَ الأقاصي
رأسُ مهيار يدمى ، يجفّ ، وينأى . . . كأنَّ الحُطامْ
رايَةٌ للخلاص .

اكتشفتُ أنني مُقعد وليس لي قَدمان
والأرضُ أمامي أضيقُ من القدَم
سأغطّيها بالمزابل كما في سِفْرِ الأمثال المخبوء في الجبال بين
أثداء العجائز ،
لعلّها تكبرُ تكبرُ تكبر
وأنا سأصوّبُ إلى نفسي سهامَ الفضاء وأربط أطرافي
بشلاّلٍ
لا جذرَ له
أو بتيّارٍ يعبرُ كالفاجعة
وأَهوي ،
لابساً قامة البحر والشواطئ فاتِناً كشلاّل ،

نحو الخفيّ المنكر ـ أخي وسيّدي .

أترك هذا الصوت :
كان يَسْتعجل النّجومَ ، يُلاقيها
إلى مفرق الدّروبِ الأمينهْ
مثقلاً بالحروف والحِبْر ، مكتوباً
على دفتر السّماء الحزينه .

أترك هذه الحاشية :
قادرٌ أن أصيّر وجهي بحيرةً للبجع وأجعل أهدابي غاباتٍ ، وأصابعي ربيعاً وأعراساً . قادرٌ أن أبعثَ اليعازَر في كلّ خطوةٍ أخطوها ،
لكنّ الفرحَ غائبٌ ولم تحن ساعةُ الظّهور .

أيضاً ، أترك هذا الحلم :
عرس . فاوست يتزوّج الضفّة الشّرقيّة من المتوسّط . الضفّة امرأة تتزيّن بالقارّات ، بالصنوبر والكرز . الصّخور دافئةٌ كالنّساء ، وديعةٌ كالأعشاش ، والشّواطئ حُبلى بشواطئَ لم تجئ بعد . . .
وجه السّماء الآخر ،
فوهة عصرٍ يقترب . . .

4

أرضٌ تعرضُ نفسَها عليّ ؛
تنهضُ في جسدي ، تومئ وتنحني ـ
أجعلُها مسطّحةً ودونَ أطرافٍ كي لا يعودَ المسافر
ولا يهتدي
أسْقِط فيها ، بين لحظةٍ ولحظةٍ ،
كوكباً خفيفاً كزفير بلبلٍ يموت
ثم أسمح للأحلامِ ـ غريبةً ومن كل نوعٍ ـ أن تسقط فيه
ترصدُ البحر العائد من هجرته
تسمع الفضاء يقول للبجع : اقْبلْني ضيفاً تحت ريشك ،
ليلةً واحدة
وبين غفوةٍ وغفوة
أهمس كي تغافلَ التّاريخ ،
تنسلُّ إلى مغاورهِ وكهوفه وأقبيته التي يحرسها جلاّدون بعينٍ واحدة ورؤوسٍ عديدة ، والتي تزخر بالسّلاسل وأخواتها من أدواتِ التّعذيب والقَتل خنقاً أو حرقاً أو مَزْقاً ، أو بوسائل غير هذه يجهلها اللّسان الفصيح ، ثمّ أعطيها أن تغافلَ الحرّاس أيضاً . . .
هيّا ، عَجلي ، ضعي اللّغم . . . أَشْعِلي الفتيل
لكن . . .
آه أيها الفتيلُ المبلّل ،
والزّمنُ رَطْبٌ

ولا جمرَ في الهواء!

أرضٌ تعرض نفسَها عليّ

تُوحي بالبحث عن تُرّهاتٍ تغذّي مجاعة الحيوان

مثلاً ــ عن برجٍ بابليٍ من الجِمال المجنّحة

أو منارةٍ من أنقاضِ الرّاهبات

أو هَرمٍ من البكاءِ والملاريا

وتمنحُ لكلّ شيءٍ ــ حتى للقبر والشّاهدة والنّعش ، قناعاً من وجوه الأطفال .

أرضٌ تعرض نفسها عليّ

تهتفُ أن أرشّ سحري ماءً أزرقَ على غيرها من الأرض وأتركه في سُباتٍ إلى آخر الدّهر ــ آمين .

ــ والمدنيّة؟

أتركُ لها ، استثناءً ، تيوسَها ، وطلائعَها ورصّادَها من جواسيسَ وزعماء وغيرهم . . .

ــ وهذه الأرض؟

أعجنها كالكرة ،

أقول لأعصابي أن تصيرَ سهاماً تخترقها

ثم أنقش عليها أسماء الشّهور والسّلاطين وأنواع النّبات والنّساء ، وأرفعها على بساطٍ سحري ، هديّةً إلى الأمير من عاملِه على مغارة الكنوز . . .

أرض تعرض نفسها عليّ

تنهض في جسدي ، تومئ وتنحني ، ــ

طاقتي على التحوّل لا آخر لها . تعجز أن تنتهي ولا تعرف كيف
أترون هذا النسيج الأزرق
فوق
تحت القمر ، وراء ظهره
تلتفّ به خاصرة البحر ،
ويصير تاجَ الأفق وكرسيّ الموج
يسمحُ للسماء أن تنسله خيطاً خيطاً لتربط أصابعَ النّجوم كي تتذكّر النّجمةُ
أختها دون أن تنسى الأرض ـ
هل يُعقَل أن يكونَ هذا النسيجُ شخصاً آخرَ غيري؟
لا أصدّق ، ـ
اسألوا التقمّص إن كنتم في شكّ . . .

مرّةً ، صرتُ لؤلؤة ،
تحيا مع اسْمِها
وحيدةً ـ ضمن العالم خارج العالم .
حينذاك عرفتُ كيف تعطي مجّاناً كالشّمس ،
وحين رأيتُها عاريةً تبحث عن ثوبٍ ضائعٍ ترتديه
تعلّمتُ كيف تكسو عُرْيَ العالم .
وصحتُ أيّها الآخرون أيّها الأقنعة
إنني من طينةٍ ثانية ، أعيش في وحدة اللؤلؤة ،
لهذا تبدون لي ، أنا الميّت بينكم ، جُثَثاً ،

وصحتُ قبيلَ ذلكَ ـ تقدّمْ ، تقدّم يا عصراً يكون فيه الإنسانُ طقسَ نفسه :
السّقوطَ والله ، الأرض والجنّة ، القائمَ والقيّوم . . .
ومرّةً صرتُ
عاصفةً ـ مزماراً بآلاف الثقوب يغنّي لنفسه بين نفسه والفضاء
وتنتحب في ثقوبه روحُ الدّنيا ،
كنتُ وأنا أغنّي
أجعل الهواء آنيةً للبخور
والغيوم أهداباً للأرض
والمطَر أجراساً وخواتم .
أرضٌ تعرض نفسَها عليّ ، تنهض في أحشائي ؛ ـ
أعرف الآن أن أجمعَ أشياء الأرض
أجعلَها في وسادةٍ أمدّها تحت خدّي
أعرف الآن
أين يكون اللّيل إذا جاء النّهار ،
والنّهار إذا جاء اللّيل ،
أعرف أنّ جنس الرّبوبيّة يتأصّل في أحشاء الأرض ويتناسل ،
أعرف الأرضَ بالأرض
والسّماءَ بنور الأرض .
هكذا أظهرُ في قميصيَ الجديد!
لكن ،
ما هذا الخوف؟ ما جئت لألقي الخوفَ بل التغيّر .

حتى كورنيش البحر يختبئ
وبيروت كالخيط ،
حتّى أصدقائي صاروا كالخيط!
شجرةٌ وحيدة تعانق الجمرَ وهي تفتح إنجيل الفضاء فَتحت أغصانَها
وفيّأتني
آه يا صديقتي ،
وشكراً .

5

1 ـ أصوات :
الحُلُمْ المكانُ ورقّاصُ الوقت
يَجيءُ
يبلغ العَتبة
يدخل ويقبّل الحضور
يجلس

في القلم والورق
في تفاعيل الحياة ونثرها
في الكلام والخبز .

2 ـ قداس :

رجَع دفتر الشمس السَوداء وعادت أيّامه
رجع الحبر الأبيض كالدّمع
وانفتح البابُ الآخر
البريءُ جنازةٌ كلّ يوم
والبَراءة الكفن .

3 ـ جرس :

الضّوء الضّوء
النَّفَسُ الأرضيّ اللاّجئ بين الأشجار
يتراجَعُ محمولاً على الهواء
يتَراجَعُ ساقِطاً في مداراتِهِ
يغسل أيّامه
ويعتزل مع شمسه بين الرّداء والجسد
تحت البشرةِ ما وراءها
والخَبرُ أنّ شمسه حُبْلى .

4 ـ شجرة :

لماذا الإنسانُ حين لا يكون للإنسان اسمٌ ولا هويّة؟
لماذا المكانُ حينَ يكونُ مقفلاً ، مليئاً كالطّبل؟

5 ـ فراشة :

ستموتُ وتسكن مثليَ في الظلّ تحتَ الفُصولْ
حيثُ لا جارَ إلاّ صَداناا
في الغُبار وفي العشب حين عَبَرْنا
مَرّةً ورسمنا خُطانا
في كتاب السُّهولْ
وسنبقى هنا أثراً لسوانا
أثراً لِلتّفيؤ في الظلّ تحتَ الفُصولْ
حينما يسقطونَ ويُغويهمُ صدانا .

6 ـ أصوات :

رأسُ مهيارَ سِحْرٌ
كأنّ المكانْ
طَبَقٌ تحته يُدارُ
رأسُ مهيار بُرْجٌ وقارورةٌ لِلدّخانْ
رأسُ مهيارَ نجمٌ
كأنّ اللّيالي
طُرُقٌ حوله ونارُ
رأس مهيارَ يعلُو
يُضيء الأعالي .

7 ــ أغنية :

لو دَعوتُ الرّياحَ وأوْهمتُها
لو حلمتُ
أنّ لي عَالَماً لا يُحدّدُ بالأرض ، بل بالرّياحْ
أنّ لي رايةً في الضّياءِ ومملكةً في الجناحْ
لوْ دَعوتُ الرّياحْ
وأخذت مفاتيحها واختبأتُ ،
غيرَ أنّ الرّياحْ
دخلت في الصّباحْ
حينما لَفّني النّعاس وعانَقْتُها وحلمتُ . . .

(بيروت ، آذار 1962)

قبر من أجل نيويورك

1

حتى الآن ، تُرسم الأرض إجّاصةً
أعني ثدياً
لكن ، ليس بين الثدي والشاهدة إلا حِيلةٌ هندسية :

نيويورك ،
حضارةٌ بأربع أرجل . كلّ جهةٍ قتلٌ وطريق إلى القتل ،
وفي المسافات أنين الغرقى .

نيويورك ،
امرأةٌ ــ تمثال امرأةٍ
في يدٍ ترفع خِرْقةً يسمّيها الحريةَ ورقٌ نسمّيه التاريخ
وفي يدٍ تخنق طفلةً اسمها الأرض

نيويورك ،
جسدٌ بلون الإسفلت . حول خاصرتها زنّارٌ رطب ، وجهها شبّاك مغلق . . .
قلت : يفتحه ولت ويتمان ــ «أقول كلمة السر الأصلية» ــ لكن لم يسمعها

غير إله لم يعد في مكانه . السجناء ، العبيد ، البائسون ، اللصوص ، المرضى يتدفقون من حنجرته ، ولا فتحة ، لا طريق . وقلت جسر بروكلين! لكنه الجسر الذي يصل بين ويتمان ووول ستريت ، بين الورقة ــ العشب والورقة ــ الدولار . . .

نيويورك ــ هارلم ،
مَنْ الآتي في مقصلةِ حريرٍ ، مَن الذاهب في قبرٍ بطول الهدسون؟ انفجرْ ياطقس الدمع ، تلاحمي يا أشياء التعب . زرقةٌ ، صفرةٌ ، وردٌ ، ياسمينٌ والضوء يسنّ دبابيسه ، وفي الوخز تولدُ الشمس . هل اشتعلتَ أيها الجرح المختبئ بين الفخذ والفخذ؟ هل جاءك طائر الموت وسمعت آخر الحشرجة؟ حبلٌ ، والعنقُ يجدل الكآبة وفي الدم سويداء الساعة . . .

نيويورك ــ ماديسون ــ بارك افينيو ــ هارلم ،
كسلٌ يشبه العمل ، عملٌ يشبه الكسل . القلوب محشوةٌ إسفنْجاً والأيدي منفوخةٌ قصباً . ومن أكداس القذارة وأقنعة الامبايرستيت ، يعلو التاريخ روائح تتدلّى صفائحَ صفائح :

ليس البصر أعمى بل الرأس ،
ليس الكلام أجردَ بل اللسان .

نيويورك ــ وول ستريت ــ الشارع ١٢٥ ــ الشارع الخامس
شبحٌ ميدوزيٌ يرتفع بين الكتف والكتف . سوق العبيد من كل جنس . بشرٌ

يحيون كالنبات في الحدائق الزجاجية . بائسون غير منظورين يتخلغلون كالغبار في نسيج الفضاء ـ ضحايا لولبية ،

الشمس مأتمٌ
والنهار طبلٌ أسود .

2

هنا ،

في الجهة الطحلبيّة من صخرة العالم ، لا يراني إلا زنجيّ يكاد أن يُقتل أو عصفورٌ يكاد أن يموت ، فكّرت :

نبتةٌ تسكن في أصيصٍ أحمر كانت تتحول وأنا أبتعد عن العتبة ، وقرأت :

عن فئرانٍ في بيروت وغيرها ترفل في حرير بيت أبيض ، تتسلح بالورق وتقرض البشر ،

عن بقايا خنازير في بستان الأبجدية تدوس الشعر ،

ورأيت :

أينما كنت ـــ

بتسبورغ (أنتيرناشينال بويتري فورم) ، جون هوبكنز (واشنطن) ، هارفارد (كامبردج ، بوسطن) ، آن آربر (ميشيغن ، ديترويت) ، نادي الصحافة الأجنبية ، النادي العربي في مقر الأمم المتحدة (نيويورك) ، برنستون ، تمبل (فيلادلفيا) ،

رأيتُ

الخريطةَ العربية فرَساً تجرجر خطواتها والزمن يتهدّل كالخرْج نحو القبر أو نحو الظل الأكثر عتمة ، نحو النار المنطفئة أو نحو نار تنطفئ ؛ تكتشف

كيمياء البعد الآخر في كركوك الظهران وما تبقّى من هذه القلاع في أفراسيا العربية . وها هو العالم ينضج بين أيدينا . هَهْ! نهيّئ الحرب الثالثة ، ونقيم المكاتب الأولى والثانية والثالثة والرابعة لنتأكد :

1 ـ في تلك الناحية حفلة جاز ،

2 ـ في هذا البيت شخصٌ لا يملك غير الحبر ،

3 ـ في هذه الشجرة عصفور يغني .

ولنعلن :

1 ـ الفضاء يقاس بالقفص أو بالجدار ،

2 ـ الزّمن يُقاس بالحبل أو بالسّوط ،

3 ـ النظام الذي يبني العالم هو الذي يبدأ بقتل الأخ ،

4 ـ القمر والشمس درهمان يلمعان تحت كرسي السلطان ،

ورأيتُ

أسماء عربية في سعة الأرض أكثر حنواً من العين ، تُضيء لكن كما يضيء كوكبٌ مشرّد «لا أسلاف له وفي خطواته جذوره . . .» .

هنا ،

في الجهة الطحلبيّة من صخرة العالم أعرف ، أعترف . أذكر نبتةً أسميها الحياة أو بلاديَ ، الموتَ أو بلادي ـ ريحاً تجمد كالملاءة ، وجهاً يقتل اللعب ، عيناً تطرد الضوء ، وأبتكر ضدّك يا بلادي ،

أهبط في جحيمكِ وأصرخ :
أقطّر لكِ إكسيراً سامّاً وأحييكِ ،
وأعترف : نيويورك ، لكِ في بلادي الرّواق والسرير ، الكرسي والرأس . وكل شيء للبيع : النهار والليل ، حجر مكّة وماء دجلة . وأعلن : مع ذلك تلهثين ـ تسابقين في فلسطين ، في هانوي ، في الشمال والجنوب ، الشرق والغرب ، أشخاصاً لا تاريخ لهم غير النار ،
وأقول : منذ يوحنا المعمدان ، يحمل كلٌّ منا رأسه المقطوعَ في صحنٍ وينتظر الولادة الثانية .

3

تفتّتي يا تماثيلَ الحرية ، أيتها المسامير المغروسة في الصدور بحكمةٍ تقلّد حكمة الورد . الريح تهبّ ثانية من الشرق ، تقتلع الخيام وناطحات السحاب . وثمة جناحان يكتبان :

أبجديةٌ ثانية تطلعُ في تضاريس الغرب ،
والشمسُ ابنةُ شجرةٍ في بستان القدس .

هكذا أضرمُ لهبي . أبدأ من جديدٍ ، أشكّل وأحدّد :

نيويورك ،
امرأةٌ من القشّ والسرير يتأرجحُ بين الفراغ والفراغ ، وها هو السقف يهترئ : كل كلمةٍ إشارةُ سقوطٍ ، كل حركةٍ رفشٌ أو فأس . وفي اليمين واليسار أجسادٌ تحب أن تغير الحبَّ النظرَ السمع الشمّ اللمس والتغيّر ـ تفتح الزمن كبوّابةٍ تكسرها وترتجل الساعات الباقية .

الجنسَ الشعرَ الأخلاقَ العطشَ القولَ الصّمت وتنفي الأقفال . قلت : أغري بيروت ،

ـ «إبحثْ عن الفعل . ماتت الكلمة» ، يقول آخرون . الكلمة ماتت لأن ألسنتكم تركت عادة الكلام إلى عادة المؤمأة .

الكلمة؟ تريدون أن تكتشفوا نارها؟ إذن ، اكتبوا . أقول اكتبوا ، ولا أقول مَوْمِئوا ، ولا أقول انسخوا . اكتبوا ـ من المحيط إلى الخليج لا أسمع لساناً ،

لا أقرأ كلمة . أسمع تصويتاً . لذلك لا ألمح من يلقي ناراً .
الكلمة أخفّ شيءٍ وتحمل كل شيء . الفعل جهةٌ ولحظةٌ ، والكلمة الجهات كلها الوقتُ كله . الكلمة ــ اليد ، اليد ــ الحلم
أكتشفكِ أيتها النار يا عاصمتي ،
أكتشفكَ أيها الشعر ،
وأغري بيروت . تلبسني وألبسها . نشرد كالشعاع ونسأل : من يقرأ ، من يرى؟ الفانتوم لدايان والنفط يجري إلى مستقرّه . صدق الله ، ولم يخطئ ماو : «السلاح عاملٌ مهمٌ جداً في الحرب ، لكنه غير حاسم . الإنسانُ ، لا السلاح ، هو العامل الحاسم» ، وليس هناك نصرٌ نهائيّ ولا هزيمة نهائية .

ردّدتُ هذه الأمثال والحكم ، كما يفعل العربي ، في وول ستريت ، حيث تصبّ أنهارُ الذهب من كل لونٍ آتيةً من الينابيع . ورأيت بينها الأنهار العربية تحمل ملايين الأشلاء ضحايا وتقْدماتٍ إلى الوثن السيد . وبين الضحية والضحية يقهقه البحارة فيما يتدحرجون من كريزلر بيلدنغ ، ليعودوا إلى الينابيع .
هكذا أضرم لهبي ،
نسكن في الصخب الأسود لتمتلئ رئاتنا بهواء التاريخ ،
نطلع في العيون السوداء المسيّجة كالمقابر لنغلب الكسوف ،
نسافر في الرأس الأسود لنواكب الشمس الآتية .

4

نيويورك ، أيتها المرأة الجالسة في قوس الريح ،
شكلاً أبعدَ من الذرّة ،
نقطةً تهرول في فضاء الأرقام ،
فخذاً في السماء وفخذاً في الماء ،

قولي أين نجمُكِ؟ المعركة آتيةٌ بين العشب والأدمغة الألكترونية . العمر كله معلّق على جدارٍ ، وها هو النزيف . في الأعلى رأسٌ يجمع بين القطب والقطب ، في الوسط آسيا وفي الأسفل قدمان لجسد غير متظور . أعرفك أيتها الجثّة السابحة في مِسْك الخشخاش ، أعرفك يا لعبة الثدي والثّدي . أنظر إليكِ وأحلم بالثلج ، أنظر إليكِ وأنتظر الخريف .

ثلجكِ يحمل الليل ، ليلك يحمل الناس خفافيش تموت . كلّ جدارٍ فيك مقبرة . كل نهارٍ حفّارٌ أسود

يحمل رغيفاً أسود صَحْناً أسود
ويخطط بهما تاريخ البيت الأبيض :

أ ـ

ثمة كلابٌ تترابط كالقيد . ثمة قططٌ تلد خوذاً وسلاسل . وفي الأزقّة المتسللةِ على ظهور الجرذان ، يتناسل الحرس الأبيض كالفطر .

ب ـ

امرأةٌ تتقدم وراء كلبها المسرج كالحصان . للكلب خطوات الملك ، وحوله

تزحف المدينة جيشاً من الدمع . وحيث يتكدس الأطفال والشيوخ الذين يغطيهم الجلد الأسود ، تنمو براءة الرصاص كالزوع ، ويضرب الهلعُ صدر المدينة .

ج -

هارلم ــ بدفورد ستويفنسنت : رملٌ من البشر يتكاثف بروجاً بروجاً . وجوه تنسج الأزمنة . النفايات ولائم للأطفال ، الأطفال ولائم للجرذان . . . في العيد الدائم لثالوثٍ آخر : الجابي ، الشرطي ، القاضي ــ سلطة الفتك ، سيف الإبادة .

د ـ

هارلم (الأسود يكره اليهودي) ،
هارلم (الأسود لا يحب العربي حين يذكر تجارة الرقيق) ،
هارلم ــ برودواي (البشر يَدخلون رخوياتٍ في أنابيق الكحول والمخدرات) .
برودواي ــ هارلم ، مهرجان سلاسل وعصيٍّ ، والشرطة جرثومة الزمن . طلقةٌ واحدة ، عشر حمامات . العيون صناديق تتموّج بثلج أحمر ، والزمن عكاز يعرج . إلى التعب أيها الزنجيّ الشيخ ، الزنجي الطفل . إلى التعب أيضاً وأيضاً .

هارلم ،
لستُ آتياً من الخارج : أعرف غضبك ، أعرف خبزه الطيّب . ليس للمجاعة

غير الرعد المفاجئ ، ليس للسجون غير صاعقة العنف . ألمح نارك تتقدم تحت الإسفلت في خراطيمَ وأقنعة ، في أكداسٍ من النفايات يحضنها عرش الهواء البارد ، في خطوات منبوذةٍ تَنْتَعِل تاريخ الريح .

هارلم ،
الزمن يُحتضَر وأنتَ الساعة :
أسمع دموعاً تهدر كالبراكين ،
ألمح أشداقاً تأكل البشر كما تأكل الخبز
أنتَ الممحاة لتمحو وجه نيويورك ،
أنت العاصفُ لتأخذها كالورقة وترميها .

نيويورك = SUBWAY + I.B.M آتياً من الوحل والجريمة ذاهباً إلى الوحل والجريمة .
نيويورك = ثقباً في الغلاف الأرضي ينبجس منه الجنون أنهاراً أنهاراً .
هارلم ، نيويورك تُحتضَر وأنتَ الساعة .

6

بين هارلم ولنكولن سنتر ،

أتقدم رقماً تائهاً في صحراء تغطيها أسنان فجرٍ أسود . لم يكن ثلج ، لم تكن ريح . كنت كمن يتبع شبحاً (ليس الوجه وجهاً بل جرح أو دمع ، ليست القامة قامة بل وردة يابسة) ، شبحاً ــ (هل هو امرأة؟ رجلٌ؟ هل هو امرأة ــ رجل؟) يحمل في صدره أقواساً ويكمن للفضاء . مرّت غزالة ناداها الأرض . ظهر عصفور ناداه القمر . وعرفت أنه يركض ليشهد بعث الهندي الأحمر . . . في فلسطين وأخواتها ،

والفضاء شريط رصاص ،

والأرض شاشة قتلى .

وشعرت أنني ذرةٌ تتموّج في كتلةٍ تتموج نحو الأفق الأفق الأفق . وهبطت أوديةٌ تتطاول وتتوازى ، وخطر لي أن أشكّ في استدارة الأرض . . .

وفي البيت كانت يارا ،

يارا طرف أرضٍ ثانية ونينارُ طرفٌ آخر .

وضعتُ نيويورك بين قوسين وسرت في مدينة موازية . قدماي تمتلئان بالشوارع ، والسماء بحيرةٌ تسبح فيها أسماك العين والظنّ وحيوانات الغيم . وكان الهدسون يرفرف غراباً يلبسُ جسد البلبل . وتقدّم نحوي الفجر طفلاً يتأوه ويشير إلى جراحه . وناديت الليل فلم يجب . حمل سريره واستسلم للرصيف . ثم رأيته يتخطى بريح لم أجد أرقّ منها غير الجدران والأعمدة . . . صرخة ، صرخنان ، ثلاث . . . وأجفلت نيويورك كضفدعٍ

نصف جامد يقفز في حوض بلا ماء .

لنكولن ،

تلك هي نيويورك : تتكئ على عكاز الشيخوخة وتتنزه في حدائق الذاكرة ، والأشياء كلها تميل إلى الزهر المصنوع . وفيما أنظر إليكَ ، بين المرمر في واشنطن ، وأرَى من يشبهك في هارلم ، أفكر : متى تحين ثورتك الآتية؟ ويعلو صوتي : حرِّروا لنكولن من بياض المرمر ، من نيكسون ، وكلاب الحراسة والصيد . اتركوا له أن يقرأ بعينٍ جديدة صاحب الزنج علي ابن محمد ، وأن يقرأ الأفق الذي قرأه ماركس ولينين وماو تسي تونغ ،
والنِّفَّري ، ذلك المجنون السماويّ الذي أَنْحلَ الأَرض وسمح لها أن تسكن بين الكلمة والإشارة . وأن يقرأ ما كان يودّ أن يقرأه هوشي منه ، عروةَ ابن الورد : «أقسّم جسمي في جسومٍ كثيرةٍ . . .» ، ولم يعرف عروة بغداد ، وربما رفض أن يزور دمشق . بقي حيث الصحراء كتفٌ ثانية تشاركه حمل الموت . وترك لمن يحب المستقبل جزءاً من الشمس منقوعاً في دم غزالةٍ كان يناديها : حبيبتي! واتفق مع الأفق ليكون بيته الأخير .

لنكولن ،

تلك هي نيويورك : مرآة لا تعكس إلا واشنطن . وهذه واشنطن : مرآةٌ تعكس وجهين ـ نيكسون وبكاءَ العالم . ادخلْ في رقصة البكاء ، انهضْ لايزال ثمة مكان ، لايزال دور . . . أعشق رقصة البكاء الذي يتحول إلى حمامةٍ تتحول إلى طوفان . «الأرض للطوفان محتاجةٌ . . .» .

قلت البكاء وعنيت الغضب . عنيت كذلك الأسئلة كيف أُقنع المعرّةَ بأبي العلاء؟ سهولَ الفرات بالفرات؟ كيف أبدلُ الخوذةَ بالسنبلة؟ (لا بدّ من الجرأة لطرح أسئلة أخرى على النبي والمصحف) ، أقول وألمح غيمةً تتقلد النار ؛ أقول وألمح بشراً يسيلون كالدمع .

7

نيويورك ،

أحصركِ بين الكلمة والكلمة ، أقبض عليكِ ، أدحرجكِ ؛ أكتبكِ وأمحوكِ . حارّةً باردة ، بين بين . مستيقظة ، نائمة ، بين بين . أجلس فوقك وأتنهد . أتقدّمك وأعلّمك السير ورائي . سحقتكِ بعينيّ ، أنت المسحوقة بالرعب . حاولت أن آمرَ شوارعك : استلقي بين فخذيّ لأمنحك مدى آخر ؛ وأشياءكِ : اغتسلي لأعطيك أسماء جديدة .

كنت لا أجد فرقاً بين جسدٍ برأس يحمل أغصاناً نسميه شجرة ، وجسدٍ برأسٍ يحمل خيوطاً رفيعة نسميه إنساناً . واختلطت عليّ الحجرة والسيارة ، وبدا الحذاء في الواجهات خوذةَ شرطي والرغيفُ صفيحة توتياء .

مع ذلك ، ليست نيويورك لغواً بل كلمة . لكن حين أكتب : دمشق ، لا أكتب كلمة بل أقلّد لغواً . دال ميم شين قاف . . . لاتزال صوتاً ، أعني شيئاً من الريح . خرجت مرةً من الحبر ولم تعدْ . الزمن واقف حارساً على العتبة يسأل : متى تعود ، متى تدخل؟ كذلك بيروت القاهرة بغداد لغوٌ شاملٌ كهباء الشمس . . .

شمس ، شمسان ، ثلاث ، مئة . . .

(استيقظ فلانٌ وفي عينيه اطمَئنانٌ يمتزج بالقلق . يترك زوجاته وأبناءه ويخرج حاملاً بندقيته . شمس ، شمسان ، ثلاث ، مئة . . . ها هو كالخيط

مهزوماً ينزوي تحت نفسه . يجلس في المقهى . المقهى يمتلئ بحجارة ودُمىً نسميها رجالاً ، بِضفادعَ تتقيأ الكلام وتوسخ المقاعد . كيف يستطيع فلانٌ أن يثور وعقله مليءٌ بدمه ، ودمه مليءٌ بالسلاسل؟)

اسألك ، أنت من تقول لي :

أجهل العلم وأتخصّص بكيمياء العرب .

8

السيدة بروينج ، يونانية في نيويورك . بيتها صفحة من كتاب المتوسط ــ الشرق . ميرين ، نعمة الله ، ايف بونّفوا . . . وأنا كمن يضيع ويقول أشياء لا تقال . كانت القاهرة تتناثر بيننا ورداً يجهل الأزمنة ، وكانت الاسكندرية تختلط بصوت كفافي وسيفيريس . «هذه أيقونة بيزنطية . . .» ، قالت والزمن يلتصق على شفتيها عطراً أحمر . كان الوقت يحدودب والثلج يتكوّع ، (منتصف ليلة ٦ نيسان ١٩٧١) .

ونهضت في الصباح صارخاً

قبيل ساعة العودة : نيويورك!

تمزجين الأطفال بالثلج وتصنعين كعكة العصر . صوتك إكسيدٌ ، سمٌّ مما بعد الكيمياء ، واسمكِ الأرقُ والاختناق . سنترال بارك تولم لضحاياها ، وتحت الشجر أشباح جثث وخناجر . ليس للريح غير الأغصان العارية ، ليس للمسافر إلا طريق مسدود .

ونهضت في الصباح صارخاً : نيكسون ، كم طفلاً قتلت اليوم؟

ــ «لا أهمية لهذه المسألة!» (كالي)

ــ «صحيح أن هذه مشكلة . لكن أليس صحيحاً كذلك أن هذا ينقص عدد العدو؟» (جنرال أميركي) .

كيف أعطي لقلب نيويورك حجماً آخر؟ هل القلب هو كذلك يوسّع حدوده؟

نيويورك ــ جنرال موتورز الموت ،

«سَنبدل الرجال بالنار!» (مكنمارا) ــ يجفّفون البحر الذي يسبح فيه الثوار ،

و«حيث يجعلون من الأرض صحراء ، يسمون ذلك سلاماً!» (تاسيت)» .
ونهضت قبل الصباح ، وأيقظت ويتمان .

9

وولت ويتمان ،

ألمح رسائل إليك تتطاير في شوارع منهاتن . كل رسالةٍ عربةٌ ملأى بالقطط والكلاب . للقطط والكلاب القرن الواحد والعشرون ، وللبشر الإبادة :

هذا هو العصر الأميركي!

ويتمان ،

لم أرك في منهاتن ورأيتُ كل شيء . القمر قشرةٌ تُقذف من النوافذ ، والشمس برتقالة كهربائية . وحين قفز مِن هارلم طريق أسود في استدارة قمرٍ يتوكأ على أهدابه ، كان وراء الطريق ضوءٌ يتبعثر على مدى الإسفلت ، ويغور كالزرع بعد أن يصل إلى غرينيش فيليج ، ذلك الحي اللاتيني الآخر ، أعني الكلمة التي تصل إليها بعد أن تأخذ كلمة حُبّ وتضع نقطة تحت الحاء . (أذكر أنني كتبت ذلك في مطعم فايسروي بلندن ، ولم يكن معي غير الحبر . وكان الليل ينمو كزغب العصافير) .

ويتمان ،

«الساعة تعلن الوقت» (نيويورك ـــ المرأة قمامة ، والقمامة زمنٌ يتجه إلى الرماد) .

«الســاعــة تعلن الوقت» (نيــويورك ـــ النظام بافلوف ، والناس كــلاب التجارب . . . حيث الحرب الحرب الحروب!) . «الساعة تعلن الوقت» (رسالة آتية من الشرق . طفل كتبها بشريانه . اقرأها : الدمية لم تعد حمامة . الدمية مدفع ، رشاش ، بندقية . . . جثثٌ في طرقات من الضوء

تصل بين هانوي والقدس ، بين القدس والنيل) .

ويتمان ،
«الساعة تعلن الوقت» وأنا
«أرى ما لم تره وأعرف ما لم تعرفه» ،
أتحرك في مساحة شاسعة من علبٍ تتجاور
كسراطين صفراء في محيطٍ من ملايين الجزر
ــ الأشخاص ؛ كل واحدة عمود بيدين
وقدمين ورأس مكسور . وأنتَ
«أيها المجرم ، المنفيّ ، المهاجر»
لم تعد إلا قبّعة تلبسها عصافير لا تعرفها سماء أميركا!
ويتمان ، ليكنْ دورُنا الآن . أصنع من نظراتي سلّماً . أنسج خطواتي وسادةً ، وسوف ننتظر . الإنسان يموت ، لكنه أبقى من القبر . ليكن دورنا ، الآن . أنتظر أن يجري الفولغا بين منهاتن وكوينز ؛ أنتظر أن يصَبَّ هوانغ هو حيث يصب الهدسون . تستغرب؟ ألم يكن العاصي يصبّ في التيبر؟ ليكن دورنا الآن . أسمع رجّةً وقصفاً . وول ستريت وهارلم يلتقيان ــ يلتقي الورق والرعد ، الغبار والعصف . ليكن دورنا ، الآن . المحار يبني أعشاشه في موج التاريخ . الشجرة تعرف اسمها . وثمة ثقوب في جلد العالم ، شمسٌ تغيّر القناع والنهاية وتنتحب في عينٍ سوداء . ليكن دورنا ، الآن نقدر أن ندور أسرع من الدولاب ، أن نحطّم الذرة ونسبح في دماغ إلكتروني باهت أو متلألىء ، فارغ أو مليء ، وأن نتخذ من العصفور وطناً . ليكن دورنا ، الآن .

ثمة كتاب أحمر صغير يصعد . لا الخشبةَ التي اهترأت تحت الكلمات بل هذه التي تتسع وتنمو ، خشبة الجنون الحكيم ، والمطر الذي يصحو لكي يرث الشمس . ليكن دورنا ، الآن . نيويورك صخرة تتدحرج فوق جبين العالم . صوتها في ثيابكَ وثيابي ، فحمها يصبغ أطرافك وأطرافي . . . أستطيع أن أرى النهاية ، لكن كيف أقنع الزمن لكي يبقيني حتى أرى؟

ليكن دورنا ، الآن . وليسبح الزمن في ماء هذه المعادلة :

نيويورك + نيويورك = القبر أو أي شيء يجيء من القبر ،

نيويورك - نيويورك = الشمس .

10

في الثمانين أبدأ الثامنة عشرة . قلت هذا أقول وأكرّر ولم تسمع بيروت .

جثةٌ هذه التي توحّد بين البشرَة والثوب

جثة هذه المستلقية كتاباً لا حبراً

جثة هذه التي لا تسكن في صرف الجسد ونحوِه

جثة هذه التي تقرأ الأرض حجراً لا نهراً

(نعم أحبّ الأمثال والحكمة ، أحياناً

إن لم تكن مُهيَّماً ، تكن جثة!)

أقول وأكرر ،

شعري شجرة وليس بين الغصن والغصن ، الورقة والورقة إلاّ أمومةُ الجذع

أقول وأكرر ،

الشعر وردة الرياح . لا الريح ، بل المهبّ ، لا الدورة بل المدار . هكذا أبطل القاعدة ، وأقيم لكل لحظة قاعدة . هكذا أقترب ولا أخرج . أخرج ولا أعود . وأتجه نحو أيلول والموج .

هكذا ، أحمل كوبا على كتفيَّ وأسأل في نيويورك : متى يصل كاسترو؟ وبين القاهرة ودمشق أنتظر على الطريق المؤدي . . .

. . . التقى غيفارا بالحرية . تغلغل معها

في فراش الزمن وناما . وحين

استيقظ لم يجدها . ترك النوم

ودخل في الحلم ،

في بيركلي ، في بيروت وبقية الخلايا ، حيث يتهيأ كل شيء ليصير كلَّ شيء .

هكذا ،

بين وجهٍ يميل إلى الماريجوانا تحمله شاشة الليل ،
ووجه يميل إلى الآي بي إم تحمله شمس باردة ،
أجريت لبنان نهراً من الغضب ، وطلع جبران في ضفة وطلع أدونيس في الضفة الثانية .
وخرجت من نيويورك ، كما أخرج من سرير :
المرأة نجمة مطفأة والسرير ينكسر أشجاراً بلا فضاء ، هواءً يعرج ، صليباً لا يتذكر الشوك
والآن ،
في عربة الماء الأول ، عربة الصور التي تجرح أرسطو وديكارت أتوزع بين الأشرفية ومكتبة رأس بيروت ، بين زهرة الإحسان ومطبعة حايك وكمال ، حيث تتحول الكتابة إلى نخلة والنخلة إلى يمامة .
حيث تتناسل ألف ليلة وليلة وتختفي بثينة وليلى
حيث يسافر جميل بين الحجر والحجر ، وما من أحدٍ يحظى بقيس .
لكن ،
سلامٌ لوردة الظلام والرمل
سلامٌ لبيروت .

(نيويورك 25 آذار ـ بكفيا 15 أيار 1971)

قداس بلا قصد،

خليط احتمالات...

ـ «هل ترين حرجاً إذا أهديتك
قصيدةً»؟
ـ «على العكس ، هذا مجد لي» .

I

. . . إذن ، كانت قُدّاساً بلا قصْدٍ ، خليطَ احتمالات
وكان يتبدّد في ما يشبه الدّروبَ
في زقاقٍ
في حارة النقّاشات
أو في القصّاع
يقرأ جذوعَ التاريخ في اتجاه امرأةٍ تقرأ الغصون .
ـ «هذه لها» /
وبدا صاحب البيت كأنّه قوس قُزَحٍ رآه في غابةٍ ما .
ـ «غداً تأتي» /
سلامٌ لذلك البيت ، جرساً صامتاً ، يتغلغل في أحضان الليل . أهلاً
بهذا الشاعر يتلألأ ضِلّيلاً ، كمثل كوكبٍ يكاد أن يسقط .

مِن زَمنٍ ،
يقول الغبطةَ ويقوله اليأس .
حَظٌّ آخر أن يتعلّمها ،
تحفّزٌ آخر أن تحاصره ، ـ
يتموّج فيها ويستشْرف :
ـ «هل أنتِ من هاويتي وفوضاي؟»
ـ «إليّ ، إلى مسرحي ، أيها المبعثَر
أنا من تفاجئك
أنتَ من يغلب أحشائي
وكلانا حربٌ غير هذه الحرب .» .

لكن ، لماذا لا يملؤه إلاّ حبٌّ ينتظره؟
لكن ، لماذا لم يجئ هذا الحبّ؟

. . . في حبّ لم يجئ بعد ، يرسم وجهه على الغيم
ويمنح جسده لأفياء الذاكرة /
الحياة نايٌ من الغبار
وصفصاف الحزن وارفٌ حتى الأفق .

وها هي النّجومُ فوق الحميديّة تهتدي بشرفات
المهاجرين . تمدّ أيديها إلى قاسيون ، وتترك أفخاذها في أسرّة غامضة .

إنها المدينة ـ جنديٌّ من الثّلج
في خاصرته اليسرى ثقبٌ ، والبقيةُ لنا .
إنه التاريخ ـ حصانٌ عليلٌ يقطر من قوائمه
ماءً آسن .
أُنبتُ في الجراح ، أيها الملحُ ، كقرون الأيائل /
الجوعُ ميلادٌ ،
والأرض ضيّقة على الأرض ، ـ

كيف يقرؤكِ ، أيّتها المرأة / كيف يقرؤكِ ،
أيتها المدينة؟
ـ ما نواياه ، ما هدفه؟
ـ هدفه الرّعد ، نواياه الطوفان .

كان الهواء يضبط على الشاعر كلاماً لم يفهمه
كان الشاعر يتَمَنْدلُ ويصير للمدينةِ عوداً رطْباً
كان الأفق يتنسّمُهُ ويستَرْوِح إليه ، ـ
شمسكَ جديدةٌ ، أيها النّهار
الظلّ ينبسط ويتذلّل
الأعشاب تزيّن وتُخْصِب ، ـ
شيخ الربيع ، زهرة الحواشي ،
السماء تتحدّب والهواءُ ممشوقٌ /

صمتٌ ، ـ
لا نسمع إلاّ صوت الرّئة :

ـ «ممتزجاً بكِ ،
أتنهّدكِ
أكتبكِ في كلّ خليّةٍ من خلاياي َ
أتكلّمكِ ،
وأَستسلم ، يا لغتي ، إليكِ» .

ـ «قصبَةٌ تنحني إليكَ ، عشبةٌ تسكر بكَ
انثرْني في تقاطيعك ،
أَنغرس فيك وأقول لجسدي محروثٌ أنتَ بجسده
نتحوّل إلى حقل واحد وأقول
انتظرني في الطّرفِ الأقصى من الحصاد
كن خريفي ـ
الرّبيع تمهيد ،
الصّيف عطشٌ ،
الشّتاء انتظار ، ـ

وأَنضجْني ، أيها الخريف الشاعر ،
حيث أجرف الزّمن كنهرٍ وحشيّ ، وأصرخ

أنا الحياة ،

تطوّحْ فيَّ ،
اشْتَعلْ ،
أيها الطّالع بين عينيّ
ندشّن مملكة جسدينا ــ وأعلن /

أحبّك وأزحزح تخوم الجسد ،
أحبّك وأطلع فيك نبتةً مسحورة ،
أحبّك وأقول حبك يتجاوزني ،
أحبّك وأقول : «حبّي النّهرُ
ولن تعبر النّهرَ مرّتين . . .»

II

. . . إذن ،
كان برجاً من الضّوء وله قامة الأفق ، يملأُ المكانَ
بالمكانِ ، يربط
الوقت بالوقت .
هكذا سمّته الحبيبَ الذي نفاها إليه . هكذا
وشْوشَت نفسها :

«تزيّني به / إنه البرق
تعرّضي له
زاحميه

وأثبتي وتنوّعي . . .
بعضنا ذبيحة بعضنا ، وكِلانا قُدّاس الآخر . . .»

ـ أهّلْني للاتّصال بكَ ،
أعضائي طافحةٌ سُكْراً
وظنّي أنك آخر أُفق يحوشني .
ـ ظنّي أنّكِ آخر جسدٍ أحوشه ،
لذلك يحضرني خوفٌ منكِ ـ
لكن ،
خُذيني إليكِ
يا بيتَ الفتنة ، وبيت الرّغبة ، وبيت النّشوة .
ناغيني بغيبك ،
ادمجيني فيكِ ، أَدرجيني معكِ ،
خَوِّضيني في القلَق ،
وموِّجي عليَّ الخوف .

III

أَصْغى إلى جسدها (جسدها لغته وبه يتكلم)
يتكلّم على السّفر بين الحبر والورق ،
بين العضو والعضو ،
يتكلّم ضِدَّ . . . /
يتكلّم على انقلاب الجسد وينشئ سلطته
يتكلم ليقيم نظامَ الدّم بين جسديهما
يتكلّم لينشئ كتابة سواءً كجسدها
ليظلّ عالياً في سويّة الموت
يظنّ أنّ . . . /

ألهذا يقول الشاعر :
أخلق / لا أخلق إلاّ شقوقاً وانصداعات؟
ألهذا يقول للمرأة / المدينة :
أكتب لأكون لكِ ، وجهي نَيْزَكٌ وأنتِ الفضاء؟

. . . وتساءل جسدها : هل أنا تَوْريةٌ لمعرفته؟ هل هو معناه يتكَوْكَب حولي ، أم هي صورته؟
وكتب جسدها :
قل تحوّل وجهه إلى ندىً يقطر على الشّرفات
قل خرج وجهه يرافق الزّمنَ

وها هي قبائل العشب
ترتجل معه غزو المسافات .

. . . هكذا أعْلنَا :
نحن الجسمان الأولان ، والموت جسمنا الثالث .
هكذا كانت تكتب :
«الزمن اثنان ــ صامتٌ وناطق
الناطق الجسَد ، الصّامت الموت» ،
هكذا كان يقرأ :
«ــ أيها الخياط ، عندي حبٌّ مَفْتُوقٌ هل تخيطه؟»
«ــ إن كان عندكَ خيوطٌ من ريح» .
. . . إذن ،
يبقى أن نعشقَ ولا نعرف لماذا
يبقى ما لا يقدر نظامٌ أن يمنحه
يبقى ما لا تقدر سلطةٌ أن تمنعه
تبقى حريّة أن أقبلكِ وحريّة أن تَسْتَسلمي
أتقمّص قميصكِ وألهج بكِ
تتقمّصين قميصي وتلهجين بي ــ
نُجمّل قِشرةَ الأرض

ونُجَنْسِنُ الكون .

IV

. . . استرسل الشاعر يقرأ طالع المدينة ، حيث يهبط
نجمها على أوراقه /
يكتب إليك ، أيها النّجم ، يقول إنه من مُشاتِكَ في معسكر
الرغبة ويستنفر العناصر /
لكن ، كيف يقرؤكِ ، أيتها المدينة ، كيف يخرج
من حوضكِ الأخضر
الطافح بأوبئةٍ لها طعم الترياق وبراءة الياسمين؟
حقاً ، أنتِ
السُّرّةُ وفيكِ مهبل الأرض .
كيف أقرؤكِ ، أيّتها المدينة / المرأة؟

بعذوبةٍ ، تقطعين جسدي عِرْقاً عِرْقاً ،
وليسَ لي أن أقدّم
غير القليل من الفرح
غير الكثير من الحزن .
لكنني أمنح أطفالك غضبي كلّه وقوتي كلّها ـ
حيث أعلّم حياتي أن تكون طريقاً واحداً : الجسد ،
وأقول للغتي أن تكون كلمةً واحدة : الحرية .

V

. . . في اللغة التي تتعلّم لتكون الحريّة ،
سأل الشاعر بردى :
ـ «بَرَدى ،
هل بقي وجهٌ ، وجه واحدٌ
يعبس حقاً حين يعبس
يبتسم حقاً حين يبتسم ،
وجهٌ واحدٌ
نتبادل معه فِطرة الحجر وصدق الرّيح؟»
. . . بفطرة الحجر وصِدق الرّيح ،
صنَع اللّيل ، وهو ينظر إلى الشاعر ،
نجمةً من سلالة أخرى ، كان فيها ما يشبه البنفسج ،
وما يشبه امرأةً عاشقة /
التصقَ بها ـ
نفسهُ تكره الحرب ،
لكنّ جسده يعشق الخراب ،
وكان يتمتم لنفسه :
السّماء للنجوم ،
الأرض للحَجر ،
أين مكانُكَ ، يا شبيهي
يا من سمّوه الإنسان؟

. . . ذلك أن التاريخ يفكّر بقدميهِ ،
وها هو يجاهد عائماً بين الحجر والحجر ،
وها هو يتطوّح ، طيوراً مصعوقةً
تصفر حول نوافذ لا تنفتح ،
وتهذي وتتلاشى .

. . . ذلك أن المدينة تُثلج ألفاظاً ، وكل بيتٍ يرحل
في اتّجاه
ولكل لفظة شاهدةٌ
تعلو في انصداع جليدٍ يحرسه الطّحلب ، والزمن بين الأرجل
يَـ ــ تـ ــ شـ ــ قّ ــ ق .
أنذرَ الشاعرَ ورقٌ يتساقط . توعّدَ أنْسامَه
ريفٌ أجرد .
. . . ذلك أن للحقول أردافاً تتزخرفُ بحجر الدمّ ،
. . . ذلك أنّ التّرْبة الزكيةَ تضنى ،
وأعضاؤها حديدٌ هالك .
وسأل الشاعر :
ــ أيتها الريح التي تغْتاب العِطر ،
ما الذي يَلتبس عليك في شهقة الورد؟

VI

. . . في مثل شهْقة الورد ، خرجَتْ من حوض الوَله
إلى مصيرها . تنسحق
مسكاً بين شَفَتين ، وتُقتّر في بقايا أعضائها .
ما أغرب هذه العاشقة : جذع شجرة ينقصف أمامها ،
تُوَيْج زهرةٍ يستحوذ عليها /
ها هو يشتعل ثانيةً ، ويُضرمُ أحشاءه .
وها هي أعضاؤه
تَتَفرّع أدغالاً أدغالاً .

ما أغرب هذا العاشق : جذع شجرة ينقصف أمامه ،
تُوَيْج زَهرةٍ يستحوذ عليه /
. . . يجازف بطقوسه ،
وبين ما بقيَ منه امرؤ القيس ، وصاحبٌ يأخذ دربَه
إلى النّفّري ، ويقدّم له طاسةَ السُّكْرِ ، ــ
يمكن أن تكون للهذيانِ هالَةٌ ،
وللدّمع دَارَةُ موج ــ سريرٌ يحملنا ،
أو سفينَةٌ تقطر جسدينا .
يمكن أن تنقلب نكهة الجسدين إلى أسراب طيور تصرّف
أمور الهواء
يمكن أن نتفارقَ ولا يكون بيننا وبين جسدينا غير

جسدينا .

. . . ذلكَ أنّ هذا دأبُ جوارحه ،
يا مَن سمّاها حبيبته ،
وأنكِ عادة أهدابهِ ، —
وبعد ذلك ، وإلاّ ، ومهما يكنْ . . .

VII

. . . بعد ذلك ، وإلاّ ، ومهما يكنْ . . .
شهوة البَشَرَةِ ، مباهج
العَضَل /
وأخذ نجمها يهبط على أوراقه :
هل الشّمس ، هذه السّنة ، خيرٌ منها في السنة
الماضية ، أيها النّجم؟
وهل الغيم أكثر تناسلاً؟

لكنّ الغموضَ يصاهر الرّمادَ ، والمصادفةَ عصيةٌ
حتّى على النّرْد .

. . . كان جسده فوق ما يقدر أن يتكلّم ،
كان عمله فوق ما يقدر أن يتخيّل ،

يطارده زهاءٌ لاهوتٍ أو أكثر
يحضنه زهاءٌ هَرْطقةٍ أو أكثر ، ـــ
شَعْبِذْ أدلّتك ، يا هذا الوقت ، أيها الصّنبور المُقفّى
بماء الضّراعة ،
أنتَ حزمة الحطَب ، وأنت شرعة الحرْق ،
أنتَ العاهة ، وأنتَ البريء ،
ولستَ الركيكَ ، ولست الخافت .
يهبطُ فيكَ ، يا هذا الوقت ، تقوده الشرفات ، ـــ
حدثَ ، مرةً ، أن تناولَ الشّوارع كما يتناول الجرائد
رأى إليها ترتسم كالحروف
ورأى إلى الحروف تسمن وتمتلئ دسَماً ودهناً ،
ثم تتحوّل إلى شِباكٍ ولافتات . . . /

ويكون لأشعّة الشّمس أنْ
تلتقطَ جسدَ امرأةٍ وتسأل :
كم جيلاً عمق جرحكَ أيها الجسد؟
ويكون للأرصفة أن تحتضنَ النّساءَ
غاباتٍ غاباتٍ ، وتتركَ للطريد أن يكمن لرحيل الأثداء .

. . . وأخذَ الشّاعر يصرخ كأنه يتمَضْمض بأحشائه :
انكسرَ صلْبكِ ، يا هذه المدينة المُشَطْرجَة ، وتلطّختُ برشاشك . تشظّي

وبَعْثريني في اتجاهاتِك
صَحْوٌ أن أغيِّم فيكِ . سطوعٌ أن تُعَتِّمي دروبي ، ــ
أهلاً ، أيها الجسد القربانُ ، أيها
الهامشُ الطيِّب في متنٍ رصَدٍ يتَسَلَّط ويوسوس ، ــ
سلاماً ، أيها التَّاريخ الجنسيّ .
. . . وكان اللَّيل ينسحب كخَشْخاشٍ صوفيٍ ،
ويدخل غابة الجوارح .

VIII

. . . لحظة شهوةٍ ، لحظة انخطافٍ ،
والزمنُ الشَّروبُ يسكر باسمكِ ، أيتها المرأة / المدينة .
لكنّ عَطَشي فرنٌ شمسيٌّ ، وليس لعينيكِ أختانٍ ،
أيتها الهاوية التي تخالطُني ، ــ
يعطيها تولّهي لعينيّ ،
وتَنهبها منهما أعضائي ــ
وأنا الأفق الذي يتزيّن بشهواتِك .

. . . وفي اللَّيل الذي ينسحب كخَشْخاشٍ صوفيٍّ
ويدخل غابةَ
الجوارح ، كنّا ــ أنتِ وأنا ، نسمعُ وشْوَشَةَ
أشجارٍ ، زفيرَ

أقْبية :

/ الأزقّة خلايا من الجمر النّيْء ، ـ
ثمة زمنٌ يتخنّث في رقصٍ تنكّري ،
ثمّة استرجالٌ يرشح من الزّهْر .
/ لكَ هذه الآفة الشّافية الملقّحة بليْلَك ولُفّاح .
/ لكِ هذه العضلة المنَمْنَمةُ بتخاريم الوقْت
/ وأنتِ مَسبَكُ المحرّم .
/ وأنتَ خابيةُ الملذّات .

/ . . . تسَلْسَلْ ، أيها الترنيمُ الباهيُ في توحش أملس كشمّامٍ أخضر ، وأنتَ أيها الخَطّ الثّلْثُ ، تغلغلْ بين الكوفيّ والدّيواني ، في واجهاتٍ تؤرخ لأخاديدِ الرّغبة . .

. . . وكنّا ، أنتِ وأنا ، نتمتم :
البهارُ يحَمْحِمُ
الشّوك يتورّد
يلزمنا أنْ نقيم في جسدٍ آخر ، ونلملمَ حصادنا ،
يلزمنا أن ننْتهكَ مدنيّةَ اللّغة ، ونصرخ :
نحن الوحشان الأخضران ،
ونهدر كلُطْفٍ من البحر . . .
. . . كمِثل أعصابٍ ناقلةٍ ، كانت كلماتُنا تنتَشر

بين قاسيون وجرَمانا . الوقت في جسدينا
أرضٌ شاسعة تلتهبُ ، وللكآبة في تقاطيعنا جبالٌ وبحيرات .
لكن ، كانت الأرض تتنوّع ، وكان الحَرْثُ يتعمّق ، ــ
هكذا ، تحت سُلطة الشجر تقدّمنا .
وكان وسيطٌ لوحيٍ وجهينا يستطلع لنا ويلبس أشكالَ
اللّيل . ورأيتُ إلى مزاجكِ الهادئ يدخل في خرابهِ
الجميل / أكرّر :
في الكآبة أعطيك اسْمي
في المنفى أنبتُ فيكِ ،
تَهَدَّبْ فوقَنا ، أيها الشّجر ،
املأنا ، لا تَخفْ ، أيها الغيب .

IX

. . . وأضنيناكَ ، أيها اللّيل الآخر الذي يتدلّى كالجلجل
في أعناق الشّوارع .
وأنعشْناكَ ، أيها السّهرُ الآخر الذي يعرّش على أنحائنا .
وأخذَ
بَوْحُنا ينبسط ويتشعّب ، كأنّه يعادينا ويصادق الفضاء
وكنت أرى كيف تخدشكِ في غاباتي المتنقّلة ، نبتةٌ
ما ، وكيف
ينتسب شيخُ الربيع إلى فصيلة زهرك المركّب . . . /

مَسٌّ شَبَقيٌّ
وانجرافُ خلايا —
أَستثنيك من
كيفَ ولِمَ وأين ،
وأمارس إعجازي .

زَغَبٌ نبيذيٌّ
وأضيف كحولي إلى خمرك ،
وأتجهُ معك نحو لجّةٍ تتشرّبُ أنحائي .

/ املأهما ، لا تخفْ ، أيها الغيب .
من جديد ، تغطّيك ، أيها الشاعر ،
غيومٌ عرّافاتٌ ينْقَطعْن للمطر
ويتنبأنَ :
سيتزوّج سَحابةً
لكي لا يعرف بمن يلوذ ، —
وقلْ بيتهُ بيتُكَ ، أيها الرّعد .

X

. . . قل بيتُه بيتُك ، أيها الرّعد ، واخْتر اسمكَ :
دمشق / لاتزال تتنقش في ذاكرة أيّامه رحى فَتْكِكِ

لاتزال ترتسم أصواتٌ تحمل سطوة الجنائز .
لكن ، ها هو اسمكِ يزدوج الآن ،
لكن ، بمجد اسمكِ الآخر ، هو الآن
الشعر الذي يعيدُ سبكَكِ
حرفاً حَرْفاً ،
لتكوني على مَرْمَى الخَلْق ،
لتكوني قريبة على مدى الشعر .

بالغضب ، غَطَّى جرحه إليها مرّاتٍ ولم يلتئِمْ ،
في جَزْرِها ، انحسَرَ مرّاتٍ ولم ينكسر ،
في شِحِّها وفتورِها ، حفر ، نقر كثيراً كثيراً ،
ولم يتقَهْقَر .
/ مِن أينَ لكِ أن تَمْتَنَعي عليَّ؟
يقول الشاعر
أنتِ الشّعاعُ وهو انعكاسُكِ ، أنتِ الجهاتُ والسّفرُ
كلّه إليكِ .
جسدكِ بستانٌ أميريٌّ مثقلٌ بالضرائب ،
ولقلبه نعمة الجباية .
وأنتِ خميرة الطّرق إلى الولَهِ وأطرافِ الأبّهة ،
وأنتِ الفتنة .
من أينَ لكِ أن تمتنعي عليَّ ، يقول الشاعر

من أين لنا أن نتنافرَ؟

هيهاتَ ، هيهات . . .
مَسكونٌ إليكِ ،
تائهٌ إليكِ ،
وإليكِ فوّضتنيَ الريح .

(دمشق ، كانون الثاني ، 1976/
بيروت ، آب ، 1978)

مراكش ـــ فاس
والفضاء ينسج التآويل

قلِ الوقتُ يَشْطح
في ضبابٍ يتهدّل ويشفّ
لا مِنَ البخار لا من الغبار
بل من أنفاس البشر ؛

قُلِ التّاريخُ قروحٌ وأنقاض
وللحاضر نكهة القَشّ ؛

قُلِ الملكُ للمماليك
وقل ها هيَ الأيام تتوشّى بالقتل .

بلى! حضارةٌ ما ، تُحتضر في هذا الإصطبل المتمدّن ، ــ
وبين «الصيّاغين» و«طريق المسيحيين»
أقاليم تسوّلٍ
تَتَجَمْهرُ فيها أمجادُ عمائمَ وقناديل
وتتطوّح في سراويل الأفق .

بلى! شيءٌ ما يقذفه «باب العصا» ، يتوتّر على
«باب البحر» ، ويكاد أن يتفجّر في «باب البارود» ـ
هواجس تلتهم المسافات /
كيف نفتح الثقوب ليهبَّ الهواء؟
لو تفيضُ هذه السّدود ، لو تجنح هذه الشواطئ! ـ
إنها طَنْجَةُ ، المدى الذي يحارب القلب
ولا يسالم العين .

إذن ، سَلْسِل أحلامكَ في أصيلة ،
واستشْرفْ مراكش وفاس .
إذن ، إليّ ، أيّتها التباريحُ
أجنحةً كأطراف الكونِ ،
وتَوهَّجي نبوءةً ورمزاً .

II

طفلاً ،
تدخل إلى مراكش ، في حاشية من توابع الشّجر والعشب
تحيّيك طلائع النّخيل ، وكلّ غصن تاجٌ من النّار /

لا تُنكرْ

الخريف جمركَ أيها الرّبيع
الرّبيع ماؤكَ أيها الخريف ، ــ

فجأةً ،
تهيّدَبَ المطر أمامَ نَخلةٍ تتوجّع
وأخذ يتجرّع أوائلَ العطش ، ــ
قلَقٌ في التّوبْج
طمأنينةٌ في الجَذْر ،
وأسمع ما يشبه الكلام : اليوم ، ينزل القمر إلى المدينة ،
ويزور أصدقاءه الفقراء .

III

يأخذكَ نحاسُ الوجوه
تأخذك فاقةٌ تعرّش على الخواصر
تأخذك أصواتٌ تملأ الشوارعَ بُسُطاً تثقّبها أظافر الهجير ، ــ
وماذا يقول
ماسحُ الأحذية لهذا القفطان المذهب؟ وماذا يوَسْوِس
بائع اللّبن لتلك النّاطحة من الإسمنت؟ وما لهذه
الأرصفة كأنها خيولٌ أُزْهِقت ، تتكّس البيارق؟

وحين ترى إلى الشمس تغربُ ، يتجاذبها الأطلس
والمتوسط ، يُخيّل إليك ، في الحقّ ، أنها جسد امرأةٍ
يتخطّفها سريران عاشقان .

IV

«جامع الفنا» / فجرٌ في أوّل اللّيل ،
أم هباء أقدام تلْتطم بالغَسَق؟ ــ
نصٌّ يتناسل في نصوص :

أ ــ المتن ــ «قصر البديع» / بوّابات تنفتح أو تنغلق
احتفاءً بالأسرى
أو احتفاءً بالتّائبين ،

ولسانك خنجرٌ ، أيها الشّاهد . وبين يديك ، يختنق الصّدق ،
في أروقةٍ ودهاليزَ
في زنزانات ومقاصيرَ
لاتزال ترتسم عليها حشرجات القتْلى .

ب ــ الهامش ــ المحيط / انجذاباتٌ في أعياد شبه منطفئة ، ــ
حلقاتٌ تتواترٌ ، أشكالٌ تلغو ، والرموز تتناثر صورةً صورة .

قدِّموا سلامكم لعميانٍ
يتّحدون في الظّلام
ويتسوّلون انْحِنَاءً للنّور ، ـ
قولوا إنها المادةُ تترقرق في ماء اللّحظات ،
قولوا إنها الرّوح تصالح الرّيح .

أنظر كيف يستقبل اللّيل خطوات الغبار
أنظرْ كيف يتدلّى الخرز الأحمر الأبيض الأزرق
من عباءات الفضاء

أنظر إلى الوجوه تفترش التراب وتَسْتَسقِفُ السّماء

هذا النّجم ترسٌ ، ذلك مائدة
هذا طبلٌ ، ذلك أسطوانة
والمناخ قفْطان
أنظرْ / مَلاكٌ يهبط من الزّهرة
أنظر / غزالٌ مزمومٌ بسلاسلَ من الظّلمة
والظّلمة على التّراب
وإليك ، أيها الترابُ ، ينتهي العلم .

تخاييلُ أوهامٌ خَطَراتٌ

ما السؤال السّاقط السّؤال اللاّزم
الجوابُ الجائز الجواب العادل
وكيف نغتسل من عِشق عادة الإلف؟

حاسٌّ وأشكّ في هيئة المحسوس
مُضطرٌّ ببديهة العقل ولست أتيقّن ، ـ
قَوْلي ينكسر /
هوذا الثّلج حارٌّ ، هي ذي النار باردة
هوذا المعلوم ساكنٌ وهو في نفسه متحرّكٌ ،
غامضٌ وهو في نفسه الواضح ، ـ

هل أقول فسد الاعتقاد وساغ لكلّ قائل ما أراد
هل أقول سلامٌ لهوايَ سلامٌ لطبعي
أَسْتحسنُ ثم أستقبح
أَسْتصوبُ ثمّ أستخطئ
أستحلي المرّ أستمرّ الحلو
وأجد الشيء على خِلاف ما هُوَ /

سلمتِ يا أخلاطي .

جامع القنا /

كونٌ مشحونٌ بكهرباء الذكرى ، ــ أجسامٌ تُرْسِل ،
أجسامٌ تَلتقطُ في سحرٍ يتقدّس وخرافةٍ تُرضع
بنْتَها السّماء .

هل تتمايلُ الفضّة سُكْراً بالمئذنة؟
هل يترنّح الذّهب انتشاءً بالأذان؟ ــ
في امتدادٍ بِرَقْش التعاشيبِ
يتنسّم تراباً يتنسّم الله /

احمرارٌ صفرةٌ بياضٌ
وها هو الزهر يترنّح ، ــ
وأنتَ ، أيها العابرُ ،
هل استطلعتَ درجاتِ الضّوءِ ،
وقِسْتَ سلالم اللّون؟
هل انْسَلَلْتَ في حشود كرويّة
مستطيلة مثلّثة تتناوبُ رصْدَ الأفلاك؟

قَبلَ الميلاد   قبل الهجرة
بعد الميلاد   بعد الهجرة
سنواتٌ تترادفُ ، تغدو وتروحُ في عباءاتٍ من وَبَر السلاطين .
مطابقاتٌ بشر وتأريخ . أسوارٌ تتداخل أو تتوازى ، ــ

سحابة واحدة / ماء واحد
استطالاتٌ ترتدّ ، ــ ألَنْ ينكسرَ مكّوكُ هذا النّسيج؟

ماذا فعل ميم ، ذات مساء ، من نشوء العالم؟
أكل ولعب ونام وربّما . . .
ماذا فعل سين ، ذات مساء ، من تاريخ العالم؟
أكل ولعب ونام وربّما . . . /
جنسٌ يَلْتهم الجنس .

ــ كرّرْ أيها الدرويش الأعمى
ــ لابدّ من تُحوِّلكَ ليسمنَ الموت . لابدّ ، لكي يحضر ، من أن تغيب .

عاديٌّ وخارقٌ هذا القدَرُ الذي نُشاطئه
ولاتزال تتّسع للَّعب هذه المسافة بين الآنِ وهنا /

لكن ، ماذا يجدي أن أهربَ إلى عريكِ ، أيتها الدّنيا؟
لكن ، محتاجٌ لكي أموتَ ، إلى سؤالٍ أطرحه على الغيب ،
ولا وسيطَ لي ، وما أشقى أن أموت كأيّ حيوان إلهيّ .

ما لهذه اللّغة ، ــ
بابٌ يخرج منه الكلام شاهداً ولا يعود إلاّ مقتولاً .

ما لهذا الدّرويش الأعمى ، ـــ
التباسٌ بين الرّوح والرّيح
وأحارُ : أيهما الصّورة ، أيّهما المعنى؟
أهو التباسُ إيقاعٍ أم اشتقاق؟

وما هذه الشهادة ، ـــ
هل بدأ العالم هل يبدأ
لنقول إنّه ينتهي؟
وأنتَ ، أيها الإيقاع المتكبّر ، تواضَعْ ، ـــ
هل يمكن العالم حقاً
أن يدخل إلى بيت اللّغة؟
آه ، كم أفضّل عَكَرَ ما يجيء على صفاء ما جاء!

V

«تستطيع أن تمسكَ الشّمس بيديكَ» ، قالت وأخذت تركض وراء طفولتها بين عربات الخيل التي خُيّلت إلينا نخيلاً آخرَ يخبّ على الأرض . وتلك هي بساتين الزّيتون ، تحتضن أوراقاً خرجت ، مرّةً ، من أنحاء الشّآم ، واستسلمت لحِبْرٍ آخر / أهلاً ، أيها الحبر ، وعهداً أن نمتزجَ بك ، ـــ
. . . وحين تعبرُ إيفران وإيموزار لتضع وجهكَ على وجه فاس ، تَنْخَطُّ في كتاب تكتبه النباتاتُ ، وزّالاً وخُزامى ، ويتنافسُ الشّجر في إملائه .

بَغْتةً ،
عَسَسٌ يطوّق الهواء ويكبحُ هديلَ الدّروب
عسَسٌ يكسر أعناق الشّجر ويُداهم الورد /

ـ من أيّ شيء تخافون؟
ـ من كل شيء . من الكتابِ والكيفِ ، الحشيش والحِبر ، الذّكر والأنثى ،
النّهار واللّيل . . .

لكن ،
ها هي شمسٌ ما ، تتهادى معنا في هذه البطائح .
بخارٌ ينهض وراءها . غيمٌ ينهض من البخار /
يَنْعَصر وها هو ينحدر .
وما أنضرَ تلك السّحاباتِ ـ
غرابيلَ للمطر ، وتخاريمَ للفضاء .

وأنتَ ، ما أضيقكَ ـ اتّسِع يا حقلَ الإشارات
بين طبعيَ والطّبيعة رؤىً ومكاشفاتٌ ، ـ نشوةٌ واحدةٌ /
رعشة واحدة . في أخوّة خفيّة ـ عَتَمةٍ بلّورية!
إنه الانخطاف تلغزه السّريرة . إنّه الرّصد البصائريُّ
في وهْمٍ يطوّف بين العناصر كأنّه اليقين .

وأنتَ ، أيها الذاهب صُعُداً في منارات سقراط ،
هل تلمح جثّةَ الحلاج ، والذّبابَ الذي يحوّم؟
ترأّفْ ، وَاكبِتْ هذه الفراشة ،
تمهّل استبْصرْ تحدُّبَ هذه النّملة ، ـــ
وفاءً للشمس ، تلك البغيِّ المقدسةِ
حيث الأعراسُ :
ينشأ دخانُ التكوينِ
يحدث الفَتْقُ
ويُبْسَط قميصُ الأشياء .

هكذا ،
حين تضعُ وجهكَ على وجه فاس ، تستَسيغُ رائحةَ العفن ، حيث تتكَوْكَبُ
نساءٌ لهنّ لونُ الغِسْلين ، ويسير أطفالٌ شظايا كوكبيّة .

ـــ بالكَ! Attention!
إنه الحمار السيّد ، يتدثّر بكآبة الطّفولة
ويَعْبُرُ مثقلاً بأنواع الملائكةِ
من الخضار والفواكه والبقول .

ما أجملَ صبركِ ، أيّتها الأميرةُ الأتان!

VI

فاس /

هوذا التاريخ ينزّ من الجدران ، يطلع من النّوافذ ، يمسكنا بأيدينا ويسير أمامنا ، ــ

تقدّموا في هذه الزّنقة ، أبوابٌ تُطبق على السرّ الذي يمكن أن يُسمّى الجهرَ ــ وذلك المحْوُ يرشدكم . الخطوة تسْترشدُ بالخطوةِ ، لكن القدمَ تمحو القَدَم . وللطّين كتبٌ وقراءات ، وللفخّار أقلامه وصحائفه ــ «نساءٌ / الخواصرُ نحاسٌ ، والفخذان يمامتان . في بيوتاتِ الوَرْد يراهِقْنَ ، تحت خيمة العِطر يتزوّجْن» .

ــ كيف تجرؤ خطوطُ الكهرباء أن تتمطّى فوق أردافِ هذه الأتانِ؟

ــ «أسرعي! ليُعْطكِ الله العذابَ والمحنة!» ، يقولُ لأتانه ، ويَدْلفُ إلينا قنديلاً يتدلّى بلا سَقْف وها هو يتدحرجُ ويغيب في «وادي الشرفاء» في دمٍ يتحوّل إلى حصى ،

في حصىً يلوّن الأزمنةَ .

وعند «جامع القرويين» ، تتكوّمُ الأشياء رؤوساً وأضغاثَ أحلام ، ــ

ما أطيبَ أن يمتزجَ كلّ شيء بكلّ شيء
رغيفٌ بدفّتي كتاب ،
«مختارات لينين» بـ«الروض العاطر» ــ
ما أبهى أن تجدَ امرأةٌ تتخلّلُ الجزَر والنّعْناعَ

أو امرأةٌ تصرخُ بك : أشتهيكَ ، ما أجملك!

ما أشهى أن تنظر إلى محرابٍ كأنّك تنظر إلى جسد ،
وأن يختلط عليكَ ما تشهد : أهذا هو الترابُ أم التِّبْر؟
أصْغوا . هَيْنَمةُ فقيه .
أدخلوا / كلاّ .
واسعةٌ هي أبوابُ الله ، ضيّقةٌ هي أبوابُ الدنيا ، ــ
من أين لك أن تدخلَ ، أيّها الزّائل؟

عاشقان / زاوية
غانية بلثام أخضر ، ــ
كريمٌ وخيِّرٌ ، أيّها الجامعُ الذي يتوسّط سوقَ الطّبيعة وسوقَ الطّبع ،
أنتَ السّرّة ، حَقّاً .
وما أبَرَّ هذا التجاذبَ / التنابُذَ
بين الجحيم والجنّة!

VII

أدونيس! ، ــ
إنّها اللّحظة إيّاها تتسرّب إليه ، وترفع أحزانه جبالاً . يتدوّر على حناياه وينكسر في زحام يتهودج أعراساً أعراساً ، ــ
ماذا ستفعل ، أيها الشّعر ، ما بذارك الجديد؟

في بلدانٍ تزدهي بجدبها
في لغات تفرز الأوبئة . . .
هل يكفي أن تَتَطوّفنَ وأن تتَبركن؟
إذن ، قل أنا الطّاغية وأعلن جمهوريّة الهدم .

حقّاً أنا الطّاغية وأعلن جمهوريّة الهدم /
ألا ، فلْنكنْ شغلكَ الرئيسَ ، أيها الانشقاق ، وليهتزّ تحت حواسّنا عرش الأشياء ، ولتتزلزَلْ دولة الموازين ، ـ
قولوا لأحلامكم أن تأخذ مكانَ النّجوم وتتدلّى ،
قولوا لأفكاركم أن تأخذ مكانَ الشّجَر وتتأصّل ،
احتضنّا ، يا جنسَ الولَه ، ـ ما بعد الملاك ما قبلَ الشيطان ،
والنّفْيُ لك ، أيها الرّضى!

VIII

حركاتٌ وهيئاتٌ تتموْسَقُ بين البصيرة والبصَر . للغضب تقاطيع الرّاحة . للكآبة رنّة النّشيد . للألم غُنّةُ الأذان . وللملامحِ السّطوة ، ـ

انزواءٌ تقول إنه يوسوس لك
الشهوة آية القلب
وقل لكلّ امرأةٍ أنتِ الأخيرة وأنتِ الأولى .

هكذا ، تيسّر لفاس أن تنظّم لذائذهَا وأن تستنفرَ جيوش الرّغبة
في نقوش حلقات
في طُرَر مناجيات
ولكَ الأبّهةُ ، أيها الخطّ الكوفيّ!

لا مجدُ الغزو ، بل مجد الاستقبال
لا فرحَةُ أن تغلبَ ، بل فرحة أن تحيا
لا توحّش العُنف ، بل أنس مكْرٍ كأنّه من مكْر الله /
سلاماً لعلم البصيرة في هذا الهيكل الادميّ الذي يعمل
لا ليملكَ ، بل ليكون
في طقسِ التحوّل
طقس ما لا يتأسّس
طقس ما يتناقض وينقض
طقسِ الرّئة والحاسّة ، ـــ

اقتربي ، أيتها الطّالعة المحجبة ، أما قرأتِ : «أوّل المحبّة معنى أبداه الله سمّاه حسْناً . ثم أبدى شخصاً ألَبسه ذلك المعنى ، وسمّاه حسَناً . ثم قـابلَ الحـسن بالحبّ ، والمُـسْتَـحسِن بالمـحبّ ، والمسـتَـحسَنَ بالمحبوب؟» .

اقتـربي ، أسْتحسنكِ وألقي عليكِ محبّتي ، ولن أغطّي وجهي مخافةَ

الافتتان / قرأت أنه قيل :

«ثلاث يزدنَ في قوّة البصر

النّظر إلى الخُضرة

والنّظر إلى الوجه الحَسن

والنّظر إلى الماء الجاري» /

هكذا ، يطلع حسنكِ طلوعَ النّور النّاطق على بنْيَة الطبيعة ، ـ

اقتربي ـ جالسةً ، قائمةً ، عاملة ،

نموْمِئ التفكّكَ ، تحيّةً لهذا الجسد

المتهالكِ ، الوفيّ

الذي يهيْمِن على فنائه ، كأنه يسأل الموت :

لماذا تتلعثَمُ ، أيّها الطّفل؟

IX

لا «جامع الفنا» ، لا «جامع القرويين» ، بل لُجّةُ البشر ، بل المحيط والدخول في حالات ، ـ

حالة التصدّف / كلّ شيء مُزْجاً

حالةِ الانجلاء / بدايةً ما

حالةِ الوسوسة / مَرْحى للمنعزل المتضامن

حالةِ اللّحظة / إليكَ أحشائي يا صديقي الوقت ،

أتبعثرُ في المنقطع
أتواصلُ في التّبعثر
والوجود صخرةٌ يعبر أمامَها النّهارُ طيراً شبهَ مخنوق ،
والدّنيا بقامَةِ الفأر ، ـ

أستبصر وأتساءل : أيهما الأفضل ـ أن تتمَنْهَج أو أن تَتَفَوْضَى؟
ذلك أنّ فوضايَ قطارٌ للحواسّ ، مراكب للأعضاء
ذلك أنها وسائدُ للعضلات وأراجيح
ذلك أنها شرفات
ذلك أنها معاول وثقوبٌ في إسمنت الحصار
ذلك أنها وعدٌ ما ـ

«جبل زالاغ» / دَثّريني يا أشجار الزّيتون ، ـ
وحيٌ
من
هذه
الجهة :
مَنيَّ نبوّةٍ يبارك أحشاء السّهول!
«جنانُ ابن حيّون» / أفسحوا لابن عربيّ ، ـ
في جسدي نارٌ أسمعها تقول أكل بعضي بعضاً
في جسدي نارٌ كأنّ لها نفسين ، نفساً في النهار ونفساً في الليل

في جسدي نارٌ بعلوّ الهواء ولا تطاولني
في جسدي نارٌ تأكل وتشرب ونارٌ لا تأكل ولا تشرب ، ــ
ووجهي أخاديدُ أَرَقٍ والشّرائع تخليط
وها قامَتي منكسة في ماء الكَشْف
وأرى كلّ شيء بخلافِ ما هُوَ /
لكن ، ما أشَفّ أن يَلْتبسَ عِلمُ الطّريق في مواسم الوحدة

بين اليد والقلب
العمل واللّغة
الكلام والصوتِ ، ــ
الغِناءَ الغِناءِ!
ما أصحّ «ملحونَك» ، أيّها المُسْمع
ما أرَقّ «عروبيّاتك»! ــ

الكلماتُ تتشكّل محراباً محراباً
والفضاءُ ينسجُ التأويل .

X

بين هذا الفَخّار النّازفِ حنيناً كأنّه يُرَقّشُ لهاثنا في ازرقاقه ،
بين يوم يَتَتَوّج بالدّمع ويوم يتتوّج بالدم
شهراً بعد شهر ،

سنةً بعد سنة ،

ماذا يفعل الشّعر
. . . في عصرٍ لا يحدّهُ الورَمُ لا تحدّه الفجيعة
عصرِ الهلاك ، مجّاناً
عصر الغيلة ، التذاذاً
عصر يسمّي الكتب أحذيةً
والسجونَ مقاصير
والآلاتِ آلهة ، ــ

أفٌّ للعصر العربيّ الثالث
وسُحقاً للإذاعات والصحف ، للتّلفزيون والسّينما
وسُحقاً للفيزياء والذرّة /

ولم نعد نعرف
هل ندور حول المهد أم حول اللّحد
هل نتّجه إلى اليمين أم إلى اليسار
هل نسيرُ إلى الوراء أم إلى الأمام؟
وكيف نضبطُ لنفوسِنا إيقاعاتها؟

حَقّاً ، كأنّ في مفاصلنا حرباً أهليّة /

وكلّ شيء يقف وحده
كأنّه خرج من المعجم وضيّع حروفَه .

المدنُ بحارٌ ميّتة
الشوارع أيتامٌ وأرامِل
والحياةُ ــ وجهٌ تتقمّصه الكارثة ، وصدرٌ
يرجّه الذّعر
لا من رصاصةٍ تطيش أو تتأنّى
لا من قنبلةٍ تكتنه أسرارَ الوقت ،
بل من ساحات لا تمتلئ بغير الفرائس
بل من عالم يَبْلى
ومصائرَ تُرْسَمُ في نَرْد الأشلاء ، ــ

أستدركُ ، ــ
أقول لخطواتي اتّحدي بأحلامي ،
وأرسم لمشروعاتيَ تخطيطاتٍ :
في جنون الجسد تعقيبٌ على تاريخ الرّغبة
أسمع ريحاً تشافهُ الحجرَ ورعداً يُواطِئ الغيمَ ، ــ
وما أغمضَ الكلامَ الواضح!

. . . وحين أذكر بيروت ، أعني

دمشق الرياض بغداد القاهرة

أذكر قبائل تتهدّم وأغتبطُ
كأنّ المستقبل يتربّى على يديّ!

وأقول أدخلُ في اللّهب وأقاسمه أبعاده . أحشد ما تيسّر من نجوم التشرّد وأشاركها التشعُّع . أكتب رسائل إلى مجهولات الأشياء أوقّعها بأسماء أذكر منها أرواد ونينار . وكثيراً ما أنطلق في الغناء تحت غيمة تركض ، وأُدْهَشُ حين تتوقّفُ كأنّها تصغي . وكثيراً ما أحلم أن أبدّل مواضع النباتات في الطبيعة كما أبدّل مواضع المقاعد في البيت ،

ثمّ أشيّد وهْماً ،
لا لشيء
إلاّ لكي أتخيّلَ مفتاحاً ما
لبابٍ ما .

أفٍّ للعصر العربيّ الثالث!

آلافُ التّواريخ تستيقظ بين راياته
آلاف الأعراق تتزاحم تحت قناطره
آلافُ الأجناس تتقاطرُ تحت موائده ـ
هو الجائع ، السّجين ، العاري /

تهيّأي ، أيتها المِللُ ، استيقِظي يا قبائل!
هوذا طَقْسُ الافتراسِ
هوذا خاتَمُ الطّقوس!

XI

جامع
سلطان ديوان
مرآة / صورة
هيروغليفيّة مماثلة
مراكش دمشق القاهرة
بغداد القدس فاس
والحياة النّومُ
والموتُ اليقظة

سراطينُ
ضُبّانٌ
زواحفُ من كلّ نوع تقتحم الأرض والإنسان يصطادُ السّماء ، ـ
إنّه الله
يتقدّم
في جنسٍ
حيوانيّ

يتخَلّف /

وما هذا العامّ الذي يتأسّس على قتل ذلك الخاصّ؟
تُعْساً لهذا البخار البشريّ في هذا المِرْجَل :
تمرّد عقل يَعقلُ الجسد
في ثورة خادمٍ تخدم السيّد .

إذن ، إلى ولادتكَ الثانية
أيها العربيّ المستأصلُ نفسَه من نفسِه ،
الضّاربُ في أحشائي ، ـ
انظروا إليه ـ
يقتلُ عصرَه ، ويرتّب أبجدية البدايات ، ـ
أنظروا إليه ، لكن

استعينوا بالأنوار الباطنة
آنذاكَ تدخلون في عهده : أنْ يُضيفَ إلى الحروف
علامات يكشفها لكم ،
وعلامات يُسرُّها إلى حين ،
ذلك أنّه والزّمن طفلان في سرير واحد .

هكذا ، يُخرج الشّعر من صَحنِه ، ويقولُ

سَيِّطِرْ هانئاً ، أيّها السّديم!
وهذه قصيدتي تلبس قفطانها
في شَطَطٍ موزونٍ في رياضيّاتٍ يمليها القلب .

بلى! يمكن أن تكون شاعراً هنا
بين العَسَس والسّجن
بين أيموزار وطنجة
بين أصيلة وأغادير ،

يمكن النّخيل أن يكون عَرَباتٍ
يمكن الضّوء أن يكون حوذيّاً
يمكن أن تؤذّنَ السّوق ويهرعَ المسجد
يمكن أن يعقد الشّايُ الأخضر مجالسَ الأمانات ،
وأقواسَ الجَذْب والنّبْذِ ،
يمكن أن يكونَ الأطلس سَفَر المتوسط ، والمتوسط سفينة الأطلس
يمكن أن يكون «باب المحروق» «باب الفتوح» ، —
وهذه قصيدتي تلبس قُفطانها
والإيقاع دمٌ يتدفّق في شريانِ الحاضر . . .
ــ سيدي اللعبي ، سيدي الخطيبي ، سيدي بنيس ،
ــ واخا ، واخا /
والسّلام لبقيّة الأصدقاء جميعاً

من شرفاتِ أصيلة وطنجة ، حتى عتَبات مراكش وفاس ،
السلام للفضاء الذي يؤرخ لنا
السّلامُ للشّهب التي تؤسّس الفضاء ، ـــ

ألف لام ميم
ذلك الكتاب
لا ريْبَ ، لا ريْبَ .

(أوائل أيلول (سبتمبر) ، 1979)

ضوء الشمعة

طولَ سنوات الحرب الأهليّة ، خصوصاً في أيّام الحصار ، تعلّمت أن أقيمَ
علاقاتٍ ودّية مع الظّلمة ، وأن أعاشر ضوءاً آخر ، لا يجيء من
الكهرباء ، وليس ضوءَ المصباح الغازيّ أو مصباح الكاز .

أكره هذين المصباحين ،
ينفثان رائحةً تقتل حاسّة الشمّ ؛ تسمّم طفولةَ الهواء وهواءَ الطفولة .
ويطاردان العيون بنوعٍ من الأشعة تنغرز في البصر كأنّها الإبر .

فوق ذلك ، يذكّران بالنفط العربي الذي حوّل الحياة العربية إلى تيهٍ
من الظلام .

ذلك الضوء الآخر هو ضوء الشمعة .

في نفسي الآن ما يدفعني إلى التساؤل : أكانت هذه المعاشرة التي أردتها
اختياراً ، تعبّر عن احتفائي بالذاكرة أو عن رغبة في هذا الاحتفاء؟
أكانت نوعاً من استعادة الشعر الذي تركته لنا عقولهم؟ أم لعلها

كانت تعبيراً عن اللهفة إلى مزيد من الالتصاق بجسد الأبجدية ، كما كان يتخيله ، ويتعاركُ معه ، ويخلقه ، ذلك الفينيقيّ الآثِم الذي ابتكرها . أقول : الآثم ، وأسأله ، عبرَ هذه المسافة التي تفصلنا وتوحّدنا في آن : لماذا لم تتركنا نكتب بجسد الأشياء ذاتها ، بدلاً من هذه الحروف الضاربة في التجريد العقلي؟ ألم تكن ثقافة المادة التي هي في مستوى الطبيعة أقرب إلى الإنسان ، وأجدى ، وأكثر تعبيراً عنه ، من ثقافة الرمز والإشارة؟ وهل تقدر أيها الآثم الأول ، بعدما أحدثه أبناؤك وأحفادك في مدينتك الأولى ، بيروت ، أن تؤكد أن الكاتب الذي يخطّ الحروف والكلمات ويكتبها ، أكثر تعقلاً وفهماً من الناطق الذي يُغَنّيها أو يُجريها بين شفتيه أصواتاً؟ وها أنتَ ترى كيف أن الأول يجعل من العالم كله مستنقعاً للضجيج يلوّث كل شيء ، وكيف أن الثاني يُحوّله إلى أوتار تخرج منها موسيقى ، تتمازج فيها الأصوات الصاعدة من حناجر الطبيعة .

أقول : اخترت أن أعاشرَ ضوء الشمعة . لم أعنَ ، بادئ الأمر ، بلون الثوب الذي تلبسه الشمعة . كان إجمالاً ، أزرقَ سماوياً . في أية حال ، لم يكن لدي إمكان لاختيار ما أريد من ألوان ، فقد كان اختياري محكوماً بما يُعرض عليّ ، وكان ما يُعرض عليّ محكوماً بالوقت والحالة .

شمعة بثوب أزرق سماوي . . . كانت تعيدني ، مع ذلك ، إلى ما يذكّر بحياة الكهف ، الكهف الذي يعيدنا إلى الاختبار المعرفي الأول ، ذلك أنه يربطنا بالرّحم المعرفية الأولى : الخروج من ليل العالم إلى نهاره ، من الظل الذي تحدّث عنه أفلاطون إلى النور الساطع ، من الوهم إلى الحق .

لكن ، هل خرجنا حقاً؟ كنت أتساءل فيما أراقبُ الظل الذي تتركه الشمعة على أرض المكان أو على جداره ، والظل الذي يتركه رأسي . وكان يُخيّل إليّ ، ربما بشيء من الالتباس ، أن هذا الظل الذي نضفي عليه صفة الوهم ، ليس أقل حقيقية مني أو من الشمعة . وكنت أقول ، فيما أرى الموت يأخذ بعضنا بلمحة ، لانزال نُدير ظهورنا للشمس . وقد يكون أفلاطون أوّل من أخطأ ، وأسس للخطأ ، في ما يفصل بين الظل والنّور ، الوهم والحقيقة ، وفي ما يسوّغ أن نُسمّي هذا الشيء وهماً ، وذلك الشيء حقيقة ، وفي ما يعطينا حق التوكيد : أين تبدأ حدود الوهم ، وأين تبدأ حدود الحقيقة ، وكيف ، ومتى؟

شمعة بثوب أزرق سماوي . . .

كان بعضنا يحسب أن هذا الذي يظنه «النور» أو «الحق» وفقاً لما يرى

أفلاطون ، ليس إلا صعوداً في سلم الكهرباء ، وأن الأكثر صعوداً هو الأكثر جدارة بأن يتخذ من أية نجمة يراها ، كرسياً يجلس عليه أو حديقة يَتنزّهُ فيها . لهذا كانوا ينظرون إلى الشمعة وضوئها بنوع من الاستخفاف يصل أحياناً إلى الازدراء .

كنتُ ، مع قلة ، مأخوذاً بالهبوط ، على العكس ، في الظل ، في هذا الليل الشفاف الذي يتعانق فيه الوضوح والغموض ، ويتحركان في موجة واحدة . كنا نقول إن الوهم أو ما نسميه الوهم ليس إلا حقاً لم يستنفده البصر (أي البصيرة والباصرة) بعد ، وأن ما نسميه الحق ليس إلاّ وهماً استنفدناه . وكنا نقول : الحالة الطبيعية للشيء هي الظل ، والنور حالته العابرة . إذ لو تحوّل العالم كله إلى نور ، أو إلى نور كهربائي ، لفقد هذا العالمُ أسرارَه ، ولفقد جماله وجاذبيته . لهذا كنتُ من جهة الظل ، وكنتُ تبعاً لذلك ، إلى جهة الشمعة ، بينما كان بعضنا إلى جانب النور الكهربائي الساطع . وكان يزيد في حماستهم له ، أنهم كانوا يرون في الكهرباء حفيدة لطاقة فينيقية ظهرت مرة لكي تمارس فعلها ، لكنّها اختفت ، لأسباب عديدة ، لكي تظهر بشكل آخر غير فينيقي ، في مكان آخر .

تتمثل هذه الطاقة رمزياً (لعل الأصح أن نقول : تتمثل أسطورياً) في امرأة

لبنانية ـ يونانية أو سورية ـ إغريقية ، (إذا كنا حريصين على احترام تاريخية الأسطورة) اسمها اليكترا . واليكترا هي أخت لقدموس (الفينيقي) الذي حمل الأبجدية إلى الغرب (اليوناني ، بخاصة) ، وبنت لأطلس الذي يحمل على كتفيه السماء ، وابنة لأخت بروموثيوس الذي اختطف النار من الآلهة وأعطاها لبني الإنسان . ومن قدموس انحدر طاليس ، أول من درّس في المعابد الفرعونية ، خصائص الضوء (لعل الأصح أن نقول : خصائص الكهرباء) ، الكامنة في العنبر الأصفر ، الذي تُصنَع منه ، للمناسبة ، أجمل المسابح وأثمنُها .

نذكّر هنا الذين يكرهون المسابح ، ويحبون الكهرباء بشيء ربما يجهلونه أو لا ينتبهون إليه هو أننا نقدرُ بالمسبحة وحدها ، أن نلامس الكهرباء : هذا الجسد العنبري الذي يحتكّ به جسدنا دون أن يُصعق ـ وذلك بفضل الظل ، هذا الليل الشفاف الذي يلبسُ الجسد العنبري ، ويلبسه هذا الجسد . وما أعمق المتعة التي تحظى بها ، أيها القارئ ، حين يُتاح لك أن تصغي إلى سمير الصايغ يتحدث عن هذا الجسد العنبري المتكهرب ، أو تلك الكهرباء المتجسدة في العنبر . ذلك أنه حين يتحدث عنها ، فيما يتفحصها ويمرّر عليها أطراف أصابعه ، أو يمرّرها بين أطراف شفتيه ، تشعر كأنّ غيوماً أخذت تتجمّع ، وأن برقاً يكاد أن ينفجر ويغمر المكان .

وطاليس هو نفسه رمز أول للتفاعل بين الحساسية الفينيقية ـ الفرعونية ، والحساسية الإغريقية وقد قرأت ، استطراداً ، من يقول في ما يشبه الجزم أن طاليس هو أوّل من تنبأ ، سنة ٦١٠ قبل الميلاد ، بكسوف الشمس .

كنت ، في ضوء الشمعة ، أستعيد هذا التاريخ الأسطوري ، وكنت أقارنه بالتاريخ الحي الذي نعيشه لحظة لحظة ، ويكتبه بالنار والحديد ، بالصواريخ والقنابل ، بالأشلاء البشرية ، أبناء عمومتنا ، أحفاد موسى وسليمان ـ وهما من أنبيائنا المشتركين ـ وكانت لهذا الثاني ، فيما يرويه تراثه النبوي ، دروب سرية للكلام مع الأشياء الجامدة في الطبيعة ، ومع كائناتها الحية ، وكانت للأول تلك الحُظوة المفردة : الله نفسه كلمه ، ومن هنا سُمّي كليم الله .

قلت : كنت أقارن بين ذلك التاريخ الأسطوري ـ الوثني ، وهذا التاريخ الواقعي ـ الإلهي الذي نعيشه يومياً ، وألاحظ دون أن أخفي دهشتي :
هوذا إنسان لم يكلّم الله ولم يعرفه ، ولم يُتح له أن يستضيء إلا بشمعة ـ ربما لم يسعفها الحظ حتى في أن تلبس ثوباً أزرق سماوياً ، لكنه ، مع ذلك ، يعرف أن يخلق تاريخاً يرقى بالإنسان والعالم ويفتح أمامهما آفاقاً لتقدّم بلا نهاية .

وها هو إنسان آخر كلّمه الله وآثره على الخلق جميعاً ، والكهرباء خاضعة له كأنها ناقةٌ تجثو أمامه ، لكنه مع ذلك يبدو كأنّه يخلق تاريخه بدءاً من قتل الإنسان والهبوط في هاوية بلا نهاية من جحيم الأشلاء والدماء .

كنت ، فيما أقارن وأستنتج ، أحتضن ظلّ الشمعة النحيل ، وأوشوشه بعض أسراري . ثم ألتفت نحو المتوسط مصغياً إليه يهدر غير بعيد عن أجسادنا شبه الجامدة من الحيرة والرعب ، أو من الموت الذي قد يصعقنا بين هنيهة وهنيهة ، ألتفت وأشاركه ــ هو الذي ابتكر ضوء العالم ــ نسيجه المتموج في محيط الظلام .

إنه الحصار : طوفان ــ لكن أين السفينة ، وإلى أين نخرج؟ ولا شيء ينتظرنا غير ذلك الشبح الآلي ــ «الفانتوم» الذي يعمل على تحويلنا إلى رماد ذهبي يصنع منه الجامحون من أبناء عمومتنا ، أحفاد موسى وسليمان ، تيجانهم وعروشهم الجديدة .

كنا كلّما شطح بنا الخيال ، يمسك بنا ضوء الشمعة ، ويردّنا ظلها إلى اللحظة الواقعية الحية . هكذا ، نفيء إلى نفوسنا ، ونرجع إلى ظلها المحاصر .

كان بعضنا ، في هذه العودة ، يفتح كتاباً ما ، لكي يستوهم حالة أخرى ، أكثر منه لكي يقرأ ، خصوصاً أن بعضنا كان يمضي بعيداً في نقد القراءة : كيف تمكن القراءة وأنت جالس في الكتاب ذاته الذي تقرؤه ، أو تتحرك في كل سطر منه؟ كيف يمكن أن تقرأ وأنت نفسك المكتوب ــ المقروء؟

أمّا أنا فكنت أعاشر أشياء أخرى . أتوهم أن للشمعة أمامي طريقاً سلكته بالوراثة . بدأته جدة عريقة ، وتابعته بعدها حفيداتها وأبناء الحفيدات . وكنت أتوهم أنني أرى الزوايا التي أقامت فيها والأشخاص الذين عشقوها فيما كانت تحترق بين أيديهم . وكثيراً ما خيل إلي أنني أسمع أبا نواس يقارن بين ضوئها وضوء الخمرة التي يتناولها . (الخمرة هي أيضاً جسد كهربائي والفرق بينها وبين العنبر ، أن جسد الأولى سائل وجسد العنبر جامد) . وكثيراً ما خيّل إليّ أنني أشاهد أبا تمام يتقلب على فراشه في ضوء شمعة شاحبة ، وقد احمرّت عيناه ، وعبثاً يحاول النوم لأن في أعضائه ناراً تأكله . وكثيراً ما شُبِّه لي أن ضوء الشمعة لا يغري صعاليك الشعر الآخرين وأنهم يؤثرون عليه ، في هذه الصحراء من البشر ، ضوء النجوم . وأحياناً يتراءى لي المتصوّفون ، وأتصور أنني أكاد أن ألمس حنين بعضهم إلى أن يذوب في الله كما تذوب الشمعة أمام عينيه .

لا يكشف ضوء الشمعة الغطاء عن الغائب وحده في الماضي أو الحاضر؛
يكشف كذلك الغطاء عن الوجوه التي تسهر معك حول جسدها
الذي ترى إليه يذوب نقطة نقطة . أو لعل ضوء الشمعة مناسبة تتيح
الكشف ، أكثر مما يكشف هو ذاته .

كانت الوجوه التي يسكن أصحابها في المبنى الذي نسكنه ، تتراكض
وتتجمع حول ضوء الشمعة في سديم من التجاعيد والقسمات
والملامح والأسارير والنظرات والتساؤلات :
وجهٌ بحيرةٌ راكدة ليس فيها أي تلويحة لأي شراع ،
وجهٌ يبدو في الظل كوجه خروفٍ يقاد إلى الذبح ،
وجهٌ غارقٌ في أحزانه كأنه ثقبٌ في الظلام ،
وجهٌ صفحةٌ بيضاء مفتوحة على الصمت ،
وجهٌ غربالٌ تنزل منه الكلمات وتتناثر في جميع
الاتجاهات ،
وجهٌ دفتر لا نقرأ فيه غيرَ النسيان ، أو على الأصحّ إرادة
النسيان ،
وجهٌ امرأة هي في الواقع رجل ،
وجهٌ رجلٌ هو في الواقع امرأة .

كان ضوء الشمعة يكشف الغطاء عن الشمعة ذاتها . إنها سيدة الصمت ،

تحترق دون أن تتأوّه أو تستغيث . وهي كذلك من جهة الليل على الرغم من أنها ، ظاهرياً ، من جهة النار . صحيح أنها تضيء ، لكن لا لكي تعمّم النهار ، بل لكي تجعل الليل أكثر كثافة وأكثر حضوراً .

فالشمعة التي هي الضوء ــ سيّالاً ، إنما هي ليل داخل الليل ، أو هي الليل باكياً ، أو هي الليل ماسحاً عينيه بأطراف نجمة بعيدة ، أو هي الليل لابساً قميص النوم ، أو هي الليل وقد استيقظت شهوته . . .

وللشمعة سرير ، لكن لا وسادة لها ، ولا تنام . . . ربما لمزيد من الغوص في موج الليل . ربما لمزيد من الالتصاق بِغَوْرِ ذلك الليل الآخر : الموت . ربما لتعميق التأمل في ذلك العالم الخارجي الذي يلتهب ــ البيوت التي تتطاير في أثير السماوات ، الأجساد التي تخترقها الشظايا ، الأجواء المليئة بنثار اللحم والعظم ، حيث تتداخل الأجساد الغريبة التي لا يعرف بعضها بعضاً ، وتتعانق وتتآلف ، الأصوات الصاعقة التي تنسج للأفق ثياباً من الرماد والجمر . . . أو ربما لكي نفهم ذلك الغبار الكوني الذي يحمل القيم والأخلاق ، الفضائل والمثل ، ويذروها ، صانعاً منها ذلك الهباء

المبتذل ، الذي يسمى مجد الحروب وانتصاراتها ، أو ربما لكي نزداد قناعة أن ما سمي الإنسان هو في الحق ، الحيوان الذي تَيَسَّر له أن يمشي ، بخطأ طبيعي ، على قدمين اثنتين . . .

مرّةً أخرى ؛ يأخذنا ضوء الشمعة بعيداً ، لنعدْ .

نعود إلى ضوء الداخل القريب ـ في تلك الغرفة السفلى من المبنى ، والتي سميناها ملجأ . هنا يتجسد الليل ، حقاً . هو للمرأة ، رجل . وهو للرجل ، امرأة .

هكذا يصبح الزمن كله جزءاً من الليل ، وفي معاشرته ، نرى إلى الشهوة تقطر من أطرافه ، ونرى إلى سَاقَيْهِ كيف تنفتحان وتنطبقان في حركة لا يزيدها ضيق الملجأ إلا حيوية ورحابة . ونشعر أن القمر وأخواته النجوم نهر غير مرئي يرفد ضوء الداخل ، فتشتعل منارات من طبيعة عجيبة ، تكشف لنا عن علاقات من التآلف تجمع بين المتناقضات ، وتوحد بين أشخاص لا يلتقون أبداً في أي مكان ولأيّ سبب .

كنا نصدّق ، في مثل هذه الحالة ، ما يروى عن بعض القدماء ، الذين كانوا في لغـة أجـدادنا ، أوليـاء ـــ نصـدق أن النور كـان ينبع ، في الليل ، من أطرافهم ورؤوسهم لكي يضيء ما حوله ، ولكي يكون إشارةً ما لتائه ما .

وكان بعضنا يتخذ من هذه الحالة فرصة لكي يكرز بالفضائل التي ينطوي عليـها ضوء الداخل . كـان يصـفه بأنه لا ينطفئ ، وبأنه ضـوء يشع لوجه الضوء ، ناذراً نفسه لتبديد الظلمة . ثم يقارنه ـــ هو السجين في ظلمـات الملجـأ ، بذلك الضـوء الطليق الذي تنقله الصـواريخ والقنابل ، فـيؤكـد أن هذا الأخـيـر ، على الرغم من أن أصـحـابه لا يلهجون إلا بالحرية والتقدم ، ليس إلا اسمـاً آخر لظلامٍ لا نجد في الطبيعة نفسها ما يشبهه : ظلام منذور لكي يطفئ النورَ ، أياً كان ، وأنّى وجد .

وكان يستطرد مؤكداً ، وقد استأنس بصمت بعضنا ، وقبول بعضنا الآخر لما يقوله ـــ أن ذلك الفلاح الفرعوني الذي كان يكتب أوهامه وأحلامه على أوراق البرديّ ، في ضـوء شـمـعـة نحـيلة ، أو أن ذلك البـحـار الفينيقي الذي كان يعيش صـديقاً للموج وللشـواطئ ، أكثر غنى وعمقاً ، في حساسيته الإنسانيـة وتطلعاته من هذا الإنسان الذي يفخر ، اليوم ، بأنه يمتطي الأشباح الآلية ويهدم ، في لحظات ، مدن البشر وقراهم وأكواخهم . . .

الشمعة النحيلة تكاد أن تنطفئ . حسناً تفعل . كأنها كرهت هي ذلك أيضاً ذلك الضوء الذي يخرج من القذائف والصواريخ التي تجثم في حنجرة بحرنا المتوسط ، وتقطع حبالَها الصوتية التي امتزجت ، مرة ، بأبهى الأصوات التي غنّت لمجد الإنسان .

وأنت ، هل ضجرت ، يا صديقي القارئ من هذا القديم الضارب في أعماق التاريخ؟ لكن ، ألا ترى كيف ينبجس الشعر مما يظن بعضنا أنه نقيض للشعر؟ ألا ترى كذلك أن هذا الذي نسميه واقعاً ليس إلا قشرة تتفتت ، منذ أن تلامسها ، وتفصح عمّا يختبئ وراءها : ذلك الواقع الدّفين الآخر ، حيث الإنسان هو نفسه شعر الكون .

قلت الكون ، لا لكي أهرب من هذا الملجأ الضيق ، المعتم ، بل لكي أحسن الإحاطة بما ينطوي عليه من رحابةٍ لا تحد ، وبما يزخر به من ضوء الداخل .

عطرٌ متهوّر يهبط الدرجات المظلمة إلى الملجأ ، اتركوا الباب مفتوحاً ، وإلا اختنقنا .

ليس ضوء الشمعة ، كما يبدو لي في هذا الملجأ ، ضوءاً ، بل هو نوع من العتمة الأكثر قدرة على الإضاءة من كل ضوء . ذلك أنها تضيء القلب ، وتجعل الجوارح كلها تتوهج بنور آخر هو نور الرغبة في أن تعرف ذاتك وأن تمتلكها ــ وحدها ، ولا شيء إلاّها . هذه العتمة إضاءة سرّية تقتلعك حتى من ظلك ، وتلقي بك في بُؤرةٍ من التفجّر النّورانيّ ، وتشعر ــ أنت المترابطُ المتحد ، أنك المنفصل المنفرد . تشعر أنك ، دائماً ، في حالة انتظار ، تترقّبُ حدثاً ما ، لا في الخارج ، هذه المرّة ، بل في داخلك ، في أحشائك . تشعر أنك في حالةٍ يمكن أن يُقال عنها إنها حالة الغيم : لا تعرف هل أنت داخلٌ في المطر ، أم في الصحو . ولا يعود الظلام ظلاماً : يُصبح ترقباً على عتبة نور باطنٍ يكاد أن يظهر . بل يُصبح الكلامُ على ضوء الظلمة ممكناً ، كما هي الحال في إمكان الكلام على ظلمة الضوء .

هكذا كانت الشمعة تردّني إلى ليل المعنى ــ إلى الانصهار في الكلّ الغامض . ليل المعنى ، ــ أرى ، فيما وراء شُرفاته ، بيتنا الأول ــ الطفولة الأولى ، وأستشِفُّ القنديل الذي كنتُ ألجأ بين يديه ، مستسلماً لأهواء جسدي . وأستعيدُ بعضَ هواياتي : كنت ، حين تجيء ساعةُ النوم ، لا أضع بين التراب وجسدي إلا بساطاً من الصوف ــ أجملَ فراشٍ للجسد الذي يتكونُ من هباء الضوء وأثير الحلم . أحياناً ، كنت أكتفي بحصير من القصب اللين .

هكذا نَمَتْ كهرباءُ الحياةِ في أعضائي .
وكانت إليكترا تتلطّف وتمضي معي جزءاً من وقتها .
وكان أصدقائي الشعراء يجلسون إلى جانبي ، أصغي إليهم يتحدّثون عن طاقات أخرى لا تتّسع لها هذه الأنابيبُ الكهربائية المتمدّنة .

ليل المعنى ، ـ كنت أحسّ بجسدي يتمدد في شرارٍ ، سأحاول أن أترجم لك ، أيها الجسد الآخر الصديق ، ما تبقى منه في ذاكرتي ،

أ ـ كنت أنامُ وحيداً ،
خوفاً من أن تهجرني الوحدة ،
ب ـ لا يمكن الانتهاء من تجميل العالم
لأنه حينذاك ، ينتهي .
ج ـ لا شيء يريدني ،
ذلك أنني أريد كلّ شيء .
د ـ الموت قريبٌ
لأنه فكرة لا جسد ،
والحبُّ بعيدٌ
لأنه جسدٌ لا فكرة .
هـ ـ جبلٌ مسقُوفٌ بالضّباب :
رجلٌ يُغامِر .
غابةٌ مسقوفةٌ بالضّباب :

امرأة تحلم .

و ـ الحلم شاطئٌ
لسفينةٍ لا ترسو ،
مع ذلك أنتمي إلى الحلم .

ز ـ طهِّر ذاكِرَتَك
من كل لحظة لم تعرف أن تستقْبِلَك .

ح ـ لم تردَّ هذه الشجرة تحيتي ،
ألأ ني حيّيتُ الرّيح ، قبلها؟

ط ـ حزني يلبس الليلَ ،
وليس له ثوبٌ في النهار .

ي ـ الطريق رمزُ السعادة
ذلك أنّها عبورٌ دائم .

ك ـ الماء عاشقٌ أبديٌ
لسبب واحد :
لا يعرف الفشل .

ل ـ الموت إلهٌ وشيطانٌ معاً ،
لذلك لا يحبّه أحد .

هي ذي حالةٌ جديدة تحكمك في ضوء الشمعة : صحيحٌ ، كيانُك واحدٌ كما هو ، لكن الجسدَ هو الذي يفكّر ، وليست الرّوحُ إلاّ هذا التعضيّ الحركيّ الذي نسمّيه الجسد . نكتشف هنا أنّ الفكرَ أو ما نسمّيه

الفكرَ لا حدَّ له ، بجسديّته ذاتها . ونكتشف أنّ ما سمّيناه الجنون قد لا يكونُ إلا نشوة الكيان : نشوة الجسد ــ الروح . عبثٌ إذن أن نقمع تجليات هذا الكيان ــ وأن نسجنها في تصنيف أخلاقيّ بارد . تصبح طاقة التأمّل والعمل واحدة ــ حركةً مفتوحةً على الأشياء ، في عالم أشياؤه مفتوحةٌ على الحاسّة ، مفتوحةً على البصيرة . وتتفتّتُ هباءً ، أفكارنا عن الواقع ، وعن الإنسان ، وعن التاريخ .

لا تستطيع ، وقد نوّرك ضوءُ الشمعة النحيلة ، أن تغالبَ شعورك أنك لستَ في ملجأ ، بل في مركب يُعانِقُ ، تائهاً ، لُجّة الليل . وتختلط الأشياء عليك : تجيء من لا وطن : الغرب في خطواتك حذاء ، والشرق بيداء . وترى إلى الناس ، في ذلك الخارج السّديميّ ، وقد تحوّلوا إلى أشياء ، لا تُصنَعُ بيد الله ــ وإنما تصنع بأيدٍ أخرى وبطينةٍ أخرى : هذا مسدّس ، وهذه رصاصة ؛ ذلك صاعقٌ ، وتلك قنبلة ، والمكانُ طائرةٌ ــ شبح .

ادخلْ ، إذن ، في الهاوية ، واقرأ في الصفحاتِ التي اسمُها الوجوهُ ، إقرأ مختلفَ العصور : من الحجر حتى الذرّة ، مروراً بسفينة نوح وأخواتها السّفن التي تمخر رمل الصحراء .

اقـرأ : الرجل كـتلةٌ رمـاديةٌ ، بشكل مـحـدّب أو مـسـتطيل . المـرأة هيكلٌ أحمر ، مدوّر أو مائل . الرجل ، تقريباً ، رجل . المرأة ، تقريباً ، امرأة . ولا تعـرف : هل يسكن كل منهـمـا في الطين ، أم الطين هو الذي يسكن في كلٍّ منهما؟ ولابدّ لك من أن تجد وسيلةً ما لكي تسأل تلك السلالة التي تتحدّث عن أشياء من جنسٍ آخر ، بين أسمائها النّار والجنّة ، إبليس والله .

واقرأ : حتى أشعة الشمس تبدو خيوط عنكبوتٍ ينسج الشارع / الشـارع الذي لايزال ينسجُه الكاهِنُ والمستعمر والتـاجر ـــ الرموز الثـلاثة لثلاث مراحل تاريخية (أوروبية) تتلاقى على أرض لبنان ، هنا حول الملجأ ، وتصـفق للقاءٍ آخر : الأشـلاء التي تتطايَرُ ذرّاتٍ في سـديم بيروت .

/ . . . وكنت أقرأ في ضوء الشمعة النحيلة ، كيف ينحني الفضاء والزمن وينحني كل شيء . ربّما لحكمةٍ ما ، كنت أقول ، لمحوِ الحدود بين المرئي وغير المرئيّ ، للمزج بين الأزمنة ، والسخرية من تلك العصا المستقيمة : عصا السماء .

. . . إنه الليل بأرجلِه الهائلة الصُّفْرِ يدبُّ على أرضٍ صفـراء : هكذا بدأتُ أهذي . وكنت أشاهِدُ الرُّعْبَ كيف يخرُجُ ضبابُه ويسقف به رؤوسنا في الملجأ . وأرى الهـاوية تحضن أيامنا / الهـاوية التي كنت أسـمع

من ثقوبها صوتَ البحر القريب ، وأرى تجاعيد وجهه ، وأتبيَّنُ البُقَعَ التي تلوّن أطرافَ أفقٍ يَتّكئ على وسادة الزَّبَد .

كان في قلب كل منا نبضٌ يعرّش على اللحظات . وكنّا ، كمثل كائنات من طبيعةٍ ثانية ، نمتصُّ دمَ الليل ، لا لكي نقوى على التفكير ، بل أَملاً في أن نقوى على مصافحة الفجر الطالع .

. . . أعودُ إذن ، إلى الاستئناس بضوء الشمعة النحيلة . . . بقدموس وإليكترا ، بأسماء ولدت تحت لهبها ، من جلقامش إلى المتنبي ، مروراً بامرئ القيس وأبي تمّام ، دون أن ننسى أبا نواس . من هوميروس إلى سان ـ جون بيرس ، مروراً بهيراقليطس وسوفوكليس ، دانتي ، ونيتشه ، دون أن ننسى رامبو : ضوء شمعةٍ فانية ، يتحوّل إلى أبدية من النجوم .

. . . وكانت رائحة الشمعة في الملجأ تتسلّق الجدران المعتمة ، ثم تهبط وتتمدّد فوق الكتاب الذي اتخذته وسادة متنقلة .

إنه الصباح : الشمس تجدّد الوقت ، والحياةُ تجدّد الجسد .

(بيروت 1982-1985)

مفرد بصيغة الجمع

I ـ تكوين

أ ـ تخطيطات

1

لم تكن الأرض جسداً   كانت جرحاً
كيف يمكن السفر بين الجسد والجرح
كيف تمكن الإقامة؟
أخذ الجرح يتحوّل إلى أبوين والسؤال يصير فضاءً
أخرجْ إلى الفضاء أيها الطفل

خرج عليّ
يَستصحِبُ
شمسَ البُهلول دفتر أخبارٍ تاريخاً سريّاً للموت

يعطي وقتاً لما يجيء قبل الوقت
لما لا وقت له
يُجوهِرُ العارض

ويغسل الماء .
ابدأْ ،
اخرجْ إلى الفضاء أيها الطفل
في البدء كان الهباء انفتحت فيه الأشكال والصور
حوّاء تنزل في حوضٍ
تسبح
في
مَنيّ
القمر .
قالت : الجسد الحروفُ والدّم الكتابة

سلاماً أيتها النخلة يا أختي
سلاماً أيها العالم يا مَألْوهي
اخرجْ إلى الفضاء أيها الطفل

سَمّى شقّق الكلام
لكنّ أسماءه غامضة
هل الإشارة إليها عَسِرةٌ؟ هل العيان مكفوفٌ عنها؟
بأي شيءٍ ينعت الأرض؟
بأي شيء يذكرها ويحكيها؟ تَلاَبسا تدَاخلا

علوّاً وسُفلاً
تعريجاً واستقامةً
وقال :
مشرقي عليكِ أطيب من اليأس
وتصدّعَ طرباً .
أمّا كيف ولِمَ وما هو
فأسئلةٌ
تطير
في
الرياح .

اخرجْ إلى الأرض أيها الطفل
خرج العاشق إلى عشيقته يجامعها للمرة الأولى
ظننتُ أنني أكتب وأقرأ

الرجُل يفقد الرجولة / المرأة لم تصبح امرأة
المرأة سلالةٌ مضت / الرجل نَسْلٌ يأتي
وأنت امنحيني اللغة ، باركيني ، أيتها الأم / أيتها الطبيعة
المومس

اخرجْ إلى الأرض أيها الطفل
خرج
هبط من الحرف
١ ح د = د ح ١ الأرضَ
دائماً يصنع طريقاً لا تقود إلى مكان

ا ن ا
منفيّة بقوّة الحضور
كالهواء
وهي هي
كل شيءٍ يتغير وتبقى
ا ن ا = ا ن ا
هكذا يستقبلك أيّتها الأرض امرأةً
ويُفجّج بين فخذيكِ .

2

[. . . وكانت الأرض
تتحرّك بلونٍ أغبر أدكن ليظهر النور ويتمكن الحيوان من النظر
واقفةً في الوسط
كترابٍ أُلقيَ في قارورة
أو تِبْنٍ في طَشْتٍ مليء بالماء
هاربةً
من
الفلك
إلى
ذاتها
وانتصَب ابنها في الهواء
مركزاً لأشعّة المحيطات
ملاكاً في العلم والكشف
لا حيّاً كالعشب
لا مملوكاً كالزّرع
حيٌّ كنفسه
مالكٌ ملكه الأرض ، والسماء
أحياناً
شَعره النبات

جسده الأقاليم

عروقه الأنهار

ويداه جناحان يمشي بهما في الفضاء

ظاهرهُ بَرٌّ   باطنه بحرٌ

أو

كما

قيل (...)]

اخرج إلى الأرض أيّها الطفل .

3

تهيأي أيّتها العناصر   استجيبي أيّتها المادّة
إنها المصادَفةُ
خارجةً من الحدّ
عاليةً على حصْر الدّهر

أعضاؤه تجنح إلى التخيّل
ووجهه مخلوطٌ بالوهم .
ثمّة قمرٌ يميل إلى الشمال
والظل يتلاشى
ينقل أخبار سَعْدِ الذّابح
وَشاتِه التي ينحرها على قَرن الجدْي
يَنقل أخبار الثلاثة الكواكب على آخر بطن الحَمل
والكوكب الذي في المنكب الأيسر
وساكب الماء
والذي على سُرّة الفرس
وبطن الحوت فوق الميزان
من المرأة المُسَلْسَلة
التي
لم

تعرف
زوجاً
وينقل أخبار كوكب الغراب .

اخرج إلى الأرض أيها الطفل .

4

ضيقي ، أيتها البروج من ناحية القطبين اتّسعي في الوسط
ولكَ أنتَ
أيها الفَلَكُ ، حدّان :
نهايةٌ لما تصير إليه الطّبائع
وشكلٌ مستديرٌ يحيط بالأشكالِ كلِّها
بِسُكناه حيث تستوي ساعات نهاره وليله
ويُشرف على القطبين
يغمره غَوْرٌ كالقبّة المنخرطة
يرتفع منه سحابٌ
تترادف عليه ثلوجٌ
ويخرج من أسافلهِ ماءٌ ذَهَبٌ
وربّما خرج ما يثير الغبار
والنباتَ
والهشيم
ثم يستطيلُ
يتوهّم أنه أمكنةٌ وأزمنة
وربّما خرج رملٌ أحمر
وأشباحٌ
وتلهُّبُ نيرانٍ

وأنواعُ
صَنْعَةٍ

وسيمياء .

ب ـ فواصل

1

1 ـ «كثيراً حَبَس الخالقُ الشمس والقمرَ تأديباً
كان حين يتوبان
ويَسْتأذنان
بالشروق
يأتي إليهما مَلكٌ يأخذ بآذانهما ويطلعهما
من
باب
التوبة» .
2 ـ «كان الخالق حين يُخرج أنثى إلى الأرض
يبعث إليها ملاكين
يضع الأول يده
بين ثدييها
يضع الثاني يده
في مكانٍ آخر ،

حين يتعب المكان

يحملانها إلى ظلٍّ

تحت

شجرة

المحنة» .

3 ـ «أمر الخالق ما يسمونه الوطن أن يجلس

على

كرسيٍّ

من

الزجاج

بهيئة

السّرطان

وحوله تماثيل . . .»

2

رقعة من دفتر أخبار :

« . . . هكذا

عرفت الأنثى نفسها   عرف الذكر

يجتمعان   بشهوة اللحم والعظم   لإيداع الماء في بيته

يندفع الماء يكون له

سمعٌ يمتلئ بتعويجات الصوت

أظافرٌ تهدي إلى مواضع الحكّ

رئةٌ   مروحةٌ   لحرارة القلب

عِظامٌ أوتادٌ لجرِّ الحركة

رقبةٌ برْجٌ من الخَرَز

ليطول ذكر الحكمة .»

– ٣ –

رقعة من شمس البهلول :

« . . . هكذا

يكلّمني كرسيٌ ليس بيني وبينه ترجمان

عند الكرسيّ حوضٌ

عند الحوض ميزان

حول الميزان بقرةٌ غمامَةٌ

والكتب تتطاير

هنا

[. . . ينبت الناس كما ينبتُ الحَبُّ في السَّيل إذا اشتهى الإنسان

طائراً

سقط بين يديه مَشْوِيّاً بعد أن يشبع تتجمَّع عظام الطائر

وينهض ليرعى

هنا

أشجارٌ تخرج من أوراقها ثيابٌ لا تبلى

سحائبُ لا يسألها الإنسان شيئاً إلا أمطرته

بعضهم يقول

أمطرينا

نساءً

فتمطر ويدخل الرجل في المرأة

دَخْماً دَخْماً

إذا قام عنها رجعت مطهّرة بكراً .

. . . فجأةً

ظهر في الجهة الثانية هنالك

عنقٌ من النار يتكلم

كان رجلٌ وامرأة يتّجهان نحوه   رأيت النار تنقبض وتشهق وقيل : هذه

نارٌ ضُربت بالبحر مرّتين   لولا ذلك لم تكن فيها منفعة لأحد

وسمعت من يقول : خلّص اللّبن من الماء   ثم غاب صوته

كأنه يسدّ ثقباً في جرْم الكون   رأيت شخصاً خارجاً من النار يجرّ

لحمه كما تجرُّ المرأة ثوبها   رأيت سحابةً تنادي أهلها :

ـ ماذا تطلبون؟

ـ ماءً ماءً

لكنّ السحابة تمطرهم سلاسل   وجمراً ، وقيلَ : لهؤلاء طعامٌ

لايدخل المعدة   لا يعود إلى الفم   يبقى بين الحلقوم والمعدة

ورأيت سجناً يقال له موسى   وقيل بولس   وقيل مصطفى

فيه أشخاصٌ يبكون   تسيل عيونهم جداولَ   رأيت

مراكبَ

تجري

فيها . . .]

4

رقعة من تاريخ سرّيٍّ للموت :

يستعير   يبتكر حكاياتٍ يجرح كواحلَها

ويتابع خيط الدم   ينظر إلى الزمن يتحطم بين يديه

إلى المكان يتوشّح بحطامه

يلتفت وراءه

أنصابٌ وتماثيل تحمل حروفاً

أ و ر ف ي و س

أ د و ن ي س

يتحقّق أنها نظائره وأسماؤه

من

السّيمياء

والشرق .

ج ـ استطرادات

1 ـ استطراد أول

الوقتُ بين أُرُومةِ الجسد وفوهةِ الفعل   المكان بين صخرةٍ تسكر
وموج يهيّئ الساعة
وأَنتِ ، أيتها النار المسرعة ، أَبطئي أبطئي
أنا الطريق والعابر ، المرأى والرّائي
ولست أحظى بنفسي .
وأنتَ (أقصد وقتي الأول) بنفسجٌ
تتدرَّج بين زرقة الموت وزرقة قصّابين
تحلم دائماً تحلم
وتدور في دوّامات العين الثالثة
غُلوميَّة القمر   توحشيَّة اليمامة
تصنع من ورق التبغ سجّادةً حيث يتكوّم الليل ويسهر على المصطبة
تنام بين نهدين
وردةٍ ذبلت ، ووردةٍ تكاد أن تذبل . . .

2 ـ استطراد ثانٍ

أَعْطِ للأرض أن ترقد في راحتيك وأيقظْ قصابين
ينهض منها ضوءٌ يوقظ قدميه ويداعب جبينه الذي سمّاه عليّاً

أنهضُ
أتَسوَّلُ شَتلاتِ التبغ أرسمُ قمري على أوراقي وأصغي
لأصواتٍ ليست مني لكنها لي هكذا أرى إلى الهواء يخرج من
الشجر حاملاً قواربَ تتأرجحُ وتهوي
وحين تتعب ريشة الليل
ويشرب الفجر حليبه
تدخل الشمس
والبيت
في
فراشٍ واحد

افهمْني ، أيها البيت المليء بأجنحة السنونو واقبلْ قِسْمةَ الرّيح .
رجلٌ وامرأة يقتسمان الحزن حزنٌ يفصل بين الهدْب
والهدْب لكن في الأغصان التي لا تتّسع حتى للظلّ يفتح الدروب
رجلٌ

عرف ، بعد أن مات ، أنه صديقه الأول .

الجمعة ينتهي باكراً من العمل يسير بين أشجار الزيتون خفيفاً يتكوء على ظلالها لم ينحنِ إلا ليحتضن ما لا يَنْحني لذلك لم يغفر له السلطان لذلك لم تقتنع به القرية إلا بعد أن مات

بعد أن مات ،

عرفتُ أشجاراً لاتزال تصغي إلى زفيره
عرفتُ أمكنةً تسقف الزمن بشرارات خضراء سمّاها
ها هو
يضع صلواته بين راحتيه ويمشي كأنه هَيْدبُ الأفق .
العشب رفيق خطواته ولا يحيط به غير القشّ وحين يواكب الشمس وهي تطفئ موقدها ، يبدو شراعاً خرج من اللجّة ولا مرفأ له السماء شطآنه وأمواجه من الأفق يخرج إلى الأفق وليس له أن يطبق جناحيه .

قالوا : «كان يحمل عصاً تضيء له الطريق وحين يعود إلى البيت ينزل من قوس قُزح كأنه ينزل على درج» .
قالوا : مرةً وصف قدميه : «لم أمش بهما إلى باب سلطان» .

وحين أخذه الموت بكت عريشةٌ أمام بيته ووضعت قصّابين خدّها على الأرض .

قالوا : «تتجمّع حول قبره ، في آناء الليل ، أصوات تهتف وتنوح . كثيراً ما يسمعهنّ عابرٌ يظنّ أنها أصوات نساءٍ يُفتَتنُ ويميل ويشتهي إذا اقترب سمع أشجاراً وحجارة . . .»

كان لي معه أن أكتبَ الرّيح ، أقرأ شيخوخة الحجر كان لي أن أرفع الحلم سقفاً وأتزوج الحياة لوناً لوناً
كان لي أن أتشمّل الزمن وأرسمَه
بأهدابٍ
تتدلّى
منها
أياميَ
أجراساً
أجراساً

أضحك مع نهارٍ لم يأت
وأعقد أحلافاً مع تاريخٍ آخر .

3 ـ استطراد ثالث

لأبي عباس المختار وجه زيتونة للدركيّ قلب عوسجة وبكى عبّاس مرة حين كاد النهر أن يغلب عليّاً ويأخذه السيل إلى نهاياته . لم يكن لوجه أُمه أن يوقف المطر لم يكن لصوتها أن يروِّضَ الرّعد .

عالياً ، هاجر الحزن
تائهاً ، هَرْولَ الفجر ونشر مصابيحه
وها هو التعب
يجلس على العتبة يتقوّس . عُكازٌ
بين قدميه ، سَدٌّ بين عينيه . يتحدّث
ترسو تجاعيده في بئر كلماته . صوته
الوترُ يوقّع المكان شرودُهُ الجمر يُنضج
المسافة وتنزف يداه إشاراتٍ
وتنزف الإشارات الملحَ وما يشبه نشوة الموج .

وننظر إلى القمر يتدحرج مقطوع الأطراف
والنساء
يجلسن باسمه
شموعاً تترنّح

وتخبو
وليس بين الثياب والبَشرة إلا
شَفْرَةُ
الجنس .

4 ـ استطراد رابع

. . . مرّةً وُلِد له تاريخٌ في خيمةٍ بشكل الذاكرة
عاشرَ طيفاً تزوجه ولم يعرف أنه الصحراء
وليس للبحر سلطانٌ عليه
وليس للشمس حوله إلا الدّمع
اخرج إلى التاريخ
أيها الطفل

يخرج
للشمس نكهة امرأةٍ تهجر بيتها   للسماء هيئة الجوع

اكْتَأَب تأوّه اكفهرّ بكى
وفُوجِئ بالغيم
يكتئب يتأوّه يكفهرُّ يبكي
وحين أحسَّ بالتراب الذي أَوْحَل يمتدّ أمامه بساطاً من زغبٍ لم يألفه   خلع حذاءَهُ ليكون أكثر التصاقاً بطينته الأولى
رَمّم أسماله   وألّف بينها وبين صَرْصرٍ
تنشطر من الجبل الأقرع
يتنشّق فيها رائحة اللاذقية وأنطاكية ويدخل
معها في لألاء المسافات

مرئياً
غير مرئي
يصعد من فوهة الغسق
ويحاكم الشمس .

ها هو الظلام
يَزْهلُ وتنفتقُ خواصرهُ
ولم يطلب مَشورةً   لم يسأل نجماً
ترافقه الأجنحة / لم يُخلق الفضاء
ترافقه الشواطئ / ليس في البحار ما يروي
وها هو رتاج العالم
يُصلصِلُ
أمامه
ويَنأى . . .

5 ـ استطراد خامس

تخرج فراشةٌ   تدخل فراشة   والمسرح بهيئة قصابين
نتعلم كيف نسجن السماء في كتاب   كيف نهجر العلم
ونهرب   يدفعنا بياض الورق   تحرسنا بقع الحبر

رأينا مخابزَ تحمل رؤوس الجبال   أيّاماً تتدثر بالنخيل وتمشي بأرجل البَقْل   وبين الخطْميّ والخردل يعلو لغطٌ حول هرب امرأةٍ أو جنازة عاشق

فجأةً

يجيء المطر في شهقاتٍ تضرب النوافذ   تتحوّل البيوت إلى تلالٍ   يكون للغيوم أسنانٌ   للقمر أظافر   وتتناثر من دفاتر النبات حروف تَرْقُم نبْض الرِّيح .

لكن
ماذا تتذكر الحروفُ
ماذا تحفظ الرّيح؟

تخرج فراشةٌ   تدخل فراشة
والمسرح بهيئة الطفولة

مَنِ الطفلُ يرشق السماء بالحصى؟ مَنِ الطفل يصطاد الأفق بشبكة الدمع؟

وأنتَ أيها الشيخ

الفاتح صدره علواً يسعُ الجبال
عَلّمنا
ماذا تقول للفضاء حين تهجره العصافير
للتراب حين يأتزر بالشوك؟

تخرج فراشةٌ تدخل فراشة والمسرح بهيئة قصابين . إنّها ساعة اللقاء بين الزرع والحصاد بين شطيرة الحلم وصحن الأيام .
شمعةً شمعةً تشتعل الجبال جَرَساً جَرَساً
تستيقظ السهول إنها ساعة الدخول في فَرْو التعب حيث يسير الهواء على قوائم أربع
ويكون للزمن وجه الصّلصال .

تخرج فراشةٌ تدخل فراشة والمسرح بهيئة السَّفَر
ليكنْ للقدمين شكل الأفلاك للذراعين شكل الفصول . السماء تفكّ خلاخيلها تجلس وتشمّ رائحة قدميها
وأمواج الدّم تتلاطمُ وتتدفّع
تفجّرْ أيها السدّ المسمّى تاريخاً تفجّر أيضاً وأيضاً
تكاد النسور أن تترك عادة الأوج تكاد الغيوم أن تترك عادة المطر

هكذا خرجنا

قلنا أيها المربَّع   المستطيل   المثلَّث   الفَلكُ يقرن وجهه بوجوهنا
وها نحن نتهجَّى دوائر الأثير. وبينما ترقد المرارات
ويرقد الخنشارُ وجارُ النهرِ الخشخاشُ وموجه وترقد الجداول
يتصاعد عطر خطواتنا هبوباً هبوباً   وها هي قصابين تأخذ طَلْعة المدّ
وتمتلك جذع الموج

اخرجْ إلى الأرض أيها الطفل
تقدّمي أيتها الأفخاذ النحيلة
وأنتِ أيتها السواعد المتغضّنة
أيتها التجاعيدُ
أنتِ
من
يكوّن
الأرض.

II ـ تاريخ

1

لم تكن الأرض جسداً   كانت جرحاً   كيف يمكن السفر بين الجسد والجرح كيف تمكن الإقامة؟

أخذ الجرح يتحوّل إلى وطن والسؤال يصير تأريخاً

اخرج أيها الطفل .

خرج عليّ

يرسم حقل خطواته سنابلَ شجراً ينابيع

تلاحقه روح غابةٍ

هنا

أرضٌ نعرفها نجهلها ميتة حبلى

هل تعرف قصباً يتمرّد على المواقد؟

هل تعرف مشاعل ترقص في بحيرة الدمع؟

هل رأيت رؤوساً تتوّجها رؤوس؟

قناديل من قلوب كستنائية؟

وحلاً لطهارة السماء؟

هل رأيت الدم الذي انهمر من جرح العاشق

وجمد في الورد وشقائق النعمان؟

هل رأيت آثارهم ساروا نحو السماء

نزلوا وادياً أتاهم السيل حملهم
جميعاً وألقاهم في البحر.
خرج عليّ
... تناسلي يا سلالتي في خطايَ أنا الطالع من لوعة
الرّفض تُهجّج عيناي خارج عينيَّ وأسكر بأشلائي
أنا الطفل يستنجد الفراشات
أنا الموزّع بين زُحلٍ والزهرة وعُطارد
زحلُ يهيء التمني عطارد يهيء الشعر
وتهيء الزهرة رطوبة الشبق
متى يجود مكان عطارد من الفلك ليجودَ شعري؟
متى يقْوى حال زحل لأقوى على ما أريد؟
متى تنتعش الزُّهرة لتميل إليّ القلوب
وكيف أتكلم كلامَ النمل وأُصيب
أصبح بين الجنون والسحر
أحارب جميع الحروب
أعشق جميع العشق

تَسْتَبسِلُ الجوارح ربَّما بكت ربما شهقت ربّما
تحيرت ربما وَلهت ربما زالت عن مدارها
تجلس الكآبة على كرسيٍّ يسع الهواء والتراب
ويجري دم الولادة في حوضٍ تحرسه الشجرة العانس

هكذا

أتحوَّل إلى بحيرةٍ تنبجس من البحيرة نارٌ تضيء لها أعناق الشجر

ولا وَعْدَ لي

وعديَ الهبوطُ

الهبوطُ

والمرارات .

2

قلتُ : أبدأ فصل العناكب تمسح أرجلَها بمخمل الشمس

وَشْوشْ قدَميّ أيها البذار الوحشي

تَمْتِم تأبينكَ في أذنيّ أيها الرعد

الصاعق يُقبل في قَدَمَيْ طفلٍ

وفي تخاريم الريح يرتسم الهول

. . . ظِلاً يضـرب في براري أحـشـائي وليس لي سـلاحٌ إلا نبضٌ يتغرغر بمائه يهدمني هيكلٌ قال إنه صَداي يَصعقني وجهٌ قال إنه وجهيَ الآخر .

وقلت : الحنينُ يُحتضر والشهوة سريرٌ من الدخان

وأقول : تَرجّلْ أيها الليلُ عن صهواتكَ اغتصبْ شمس كلماتي

أنا الصوت يرتجلُ الفضاء

أنا الحجر يتطوّح وقَرارُه الحجر

وأقول : رِشْني أيها التولّه أنّسْني ، جَدّدني ، سِمْني

وأنتِ ، أيتها المجاهيل تَطاوَحي فيّ الْطُفي عن الوَهمْ

استغيثي من الشكل والضدّ بالشّكل والضد

هكذا أذُوقُكِ

أَتّقد بوسواسي وأغوص في دهشة الغواية

تَتَهوْدَجُ أيامي رمزاً رمزاً
أصرخُ
تَاهَ وهميَ
اتّسع معناي
وغالتّنيَ الأقاصي .

3

رقعة من شمس البهلول :

... تحت بَشرتِه شياطين لا تُحصى كلّ شيطان يبتكر طريقاً طرق الخارج تقصر عنه ودون قدميه والداخل لا يتّسع له وليس في رأسه غير الأضواء .

يَنجرح

يتخذ من جراحه آلاتٍ لحفر الأعماق ويسأل
كيف يخرج وليس له خارج جسده إلا جسده؟

وليس للبحر سلطانٌ عليه
وليس للشمس حوله إلا الدّمع .

4

رقعة من دفتر أخبار :

. . . يجيء من نقطةٍ أبعــد من بحــرهِ وصــحــرائه جــاورَ الفلك
وعرشَه الماءَ وعوشه وكان عرشهُ على الرّفض .
جسده وارثٌ البراكين دمهُ وارث الفتك
. . . ممزوجاً بالعصور
يتأرجح
بين
الشفرة
والجرح
ويلبس أُبّهةَ الأزمنة

يسأله جناحٌ تكتبه حصاةٌ
وعند حائط الحلم تقتتل أيامه .

5

رقعة من تاريخ سريٍّ للموت :

. . . هكذا خرجَ يَتَمعْدَنُ

ويَفتح جسده على العناصر

يكتشف للحجر نوافذَ كُتباً وأصواتاً يستشعر أنَّ للسماء مصباحاً أنَّ المصباح كوكبٌ لا يقرأ غير الرمل يَسْتَشِفُّ أظافرَ تأخذ مكان النجوم ولائمَ يجلس حولها التراب .

يَنحدر من جنس المذبوحين

ويؤسّس

الرَّحيل

الأقصى .

6

رقعة من دفتر أخبار :

. . . لم تكن أمّه تعرف اللغة وهي التي علّمته الكلام
حين جرى الكلام بين شفتيه التهبَ مكان الحنين وخرجت الشهوة من أصابعه
أخذ عليّ
يتدلّى تحت صورة جدّي يجلس على صدر العذراء
جاور نجمةً بين الثور والحمل عانق نجمةً تسبح في ماء الدلو
وكانت امرأة
مُسَلسلةً
لا تعرف رجلاً   تَتدفّأ بِمَتْنِ الفَرس الأعظم والشمس في أول القوس .

. . . بردَى ١٩٥١ يسبقه التعب إلى المقهى

في حنجرته حصىً يتجمّع
باقٍ ذاهبٌ شيءٌ ما يشتّته   يخرطه في سِلك اللّهب

القصّاع الصالحية
المطر يبحر بين كتفيه   يتجه نحو قاسيون ما أسعد غواياته يصل

بين ضِفتي بردى ومقهى الهافانا ويقول لقاسيون : اعقُدِ الخيط .

. . . هكذا سكن في جـرحٍ بين العـراق والشـام بين ريحٍ تُنَمْنِمُ

الترابَ ومطرٍ يغسل الريح تحملُه أسطورة يتجعَّد ويمحو تجاعيدَها

رأسُهُ

نخيلٌ

وضحضاحٌ من الحلم يسبح في أهدابه .

سكنت معه أنهارٌ تسائل الناس ماذا يفعل النخل بين بيسان والبصرة

ماذا تفعل البحيرة؟

وكـان ، كلمـا حنَّ ، يلبس الخـشـبـة ويفـتح الأفق أمـامـه نورٌ

يمشي جَبلٌ فوقه يسير كالمظلة حَجرٌ ويشبه الدمع .

رغيفٌ ولا بيتَ له

جرَسٌ

يَنوسُ

في

عُنق . . .

الأرض .

ترافقه نجمة

تدخل في جسد الغبار ويدخل في جسد الريح . . . قَرْناً

يكاد

أن

ينكسر

في

خاصرة

الرّيح .

7

رقعة من تاريخ سري للموت :

كانت الأرض دماً يمتزج بغبار الطَّلع يَتجنْسنُ بين فخذيها التاريخ والزمن يتذكر ويتأنث. كان التاريخ جدولاً تشعْشَعت أيامه ولم تكن الكتب أوراقاً كانت آباراً تمتلئ بأصواتٍ تتسابق نحو طُرقٍ تتخاصم حولها السماوات ولم يتعلّم شيئاً

هل الحياة أن نجهل وننسى؟

يعصاه فكره تنقلب عليه حتى أحزانه
الحياة في الجهةِ
الأخرى من الضّفاف التي يتجرجر عليها
والأفق ينكسر أمامه كدورق الخمر
كيف يخلق فراغات أخرى ليتقدم
كيف يعطي مكاناً لما يهمُّ أن يولد بين عينيه؟

وصرخ
أيتها المدن العربية التي تتدحرج في غسق

اللّغة

أتدحرج

معكِ

لا لأتذكَّر

لأرى كيف تتمزّق على الجسد القديم ثيابه الأخيرة .

. . . وثمة شقوق تتسع في جدرانٍ لاتزال تنتسب لبيت جسده يتسلل منها الدم ويندفع أُرْغناً أُرْغناً .

وتوجّس واستبطن

إنه الوَلهُ يضع يده عليّ

إنها الريح تمنحني حقوق الغبار .

8

ـ من أنتَ؟

أمحو وجهي   أَكتشف وجهي

ـ . . .

جسدٌ تقمَّص الشظايا يتَّجه إلى أن يتقمص الموج

ينشطر فيه العالم يَلْتَئِم

يعطي وقتاً لما يجيء قبل الوقت لما لا وقت له

يجوهر العارض ويغسل الماء

اقتربي أيتها الرياح

اجتمعي إليّ

أخلق بك

أخلق منكِ

ها هي الصورة التي سأخلق على مثالها

وهذه قبضتي .

9

العمل يصعد

من الأرض إلى اليد من اليد إلى التاريخ

من التأريخ إلى هباء البدايات

هل رأيتَ الزمن

يمسك بإحدى يديه صاعقةً يمسك بالثانية مترسةً وتلهو

الطواحين

طواحين الأسنان

الغلمان

القيان

الريح والروح

القصب والعَصب

الحنين والخنين

دوري أيتها الطواحين دوري في كرسيّك المهرّج المحيط بالكون

نيح	وطا
١	

أقول ذلك لأنّ غباري يكاد أن يَسْبُرَ الشمس ورأسي يكاد أن يتدلى

في

حبلٍ
يتدلّى

أقول ذلك لأنَّ فراشةً رفرفت على يديّ قبل أن تحترق
ابتسمْ ابتسمْ
قبل أن تجيء الساعات لكي تُكوكِب الفراغ
قبل أن يخيط الظلام أهداب الوقت
ازدهرْ ازدهرْ
قبل أن يتعب العشب في الجهة المنسيّة من التراب
قبل أن يدخل الليل في عروقك
وينسى
طريق
الخروج .

10

هكذا بعد الصيحة التي أخذت الممالك حيث بادت بالريح العقيم وتبلبلت من الدَّهَش الألسنة حرَّشتُ بين الزمن وخطواتي وبنيت على أُسِّ الدهر ——

كنتُ

أ ـ الهيكل الأول

[. . . فيه صورة لزحل

أسودَ

شائباً

يحمل فأساً

وصورة تنظر في العلوم الخفيّة وكان

طفلٌ وأبٌ وأمّ

يرقصون

ويحترقون

قرباناً .

وكان مكتوباً :

جلس السلطان قال

أعِدُ بميلاد كوكبٍ آخر
سار السلطان سأل هل يتوقّف الموج؟   همس لصولجانه
أذنتُ للورد أن يذبل
ووثقتُ بدورة الفصول . . .

وكنتُ

ب ـ الهيكل الثاني
فيه امرأة عذراء (جامَعَها سدنةُ الهيكل   واحداً واحداً   حملت
ووضعت صبياً) .
رأيت الصبيَّ بين ذراعيها
ينخسونه بالإبر حتى يموت
قرباناً .

وكان مكتوباً :

يجلس على أريكةٍ قرب المذبح
من أعمدة قصره   من الأشجار المحيطة   تتدلّى
هياكل
بشريَّة
رؤوسُها
إلى

الأرض

يأمر

اجمعوا حطب الجبال والنواحي كدّسوه قباباً ومنائر ومنابر على جوانب الأودية والتلال اجمعوا النفط ومن يلعبون به اعملوا من الشموع ما لا يُحصى صيدوا الغربان كلّها وما ترون من الطيور اجعلوا في أرجلها النفط أرسلوها لتطير في الهواء ليصير الفضاء كله ناراً

ولن يجسر أحد أن يكلمه

سيقال : اعتراه الجنون و/ أو

يوجعه قلبه . . .

وكان له وحده

البحرُ وخزائن الريح وها هي الفِيَلة تسجد له وحده بروؤسها وخراطيمها

انظروا إليها

ما أعظم أجسامها ما أعمق معرفتها ما أحسن طاعتها

وقبولها الرّياضات

وفهمها المرادات

وتمييزها

بين من يجب أن يُعصَى ومن يجب أن يُطاع

(ليت الفيل لم يكن هنديّاً وكان . . .)

وكان مكتوباً :

ـ من أنتِ أيتها الدابّة؟

ـ أنا الجسّاسة   أخرج

في

آخر

الزمان

وكان مكتوباً :

الزّمن فُتُورٌ وتَسْويف .

وكنت

ج ـ الهيكل الثالث

. . . ناسٌ عليهم التيجان والحليّ   بأيديهم مجامر العود والندّ سمعت صلاتهم أيها النيِّر الأعظم   حارق النور المحترقُ به   قدَّمْنا إليك هذه المرأة الشبيهة بك   تَقبَّلْ قربانَنا

وكان مكتوباً :

في السنة (. . .) للميلاد أو للهجرة يُغسل الجسد بالدمع وَتُغْسَلُ الأزمنة   لكن ، بأي شيء يُغسل الدمع؟

وكان مكتوباً :

سترون قوس قزح

يتساقط شعره ويهرم

(انسوا كيف يبتدئ ومن أين يأتي)

وكان مكتوياً :

سترون الجسدَ يهجمُ كوحيد القرن

الأفقَ يجيء كالمصادفة

الطّريقَ تنزفُ كالجرح

سترون الرّعب يُغيِّر هيئةَ العشب

يحسبه السلطان ثائراً يجلده يقطع أطرافه يبعثر أشلاءه

ثم يؤذِّن له الفضاء ويكبِّر الغيم

سترون :

أيّامُ السّرور لَمْحٌ وأيام الحزن لا تَنْتَهي

وكان مكتوياً :

في السنة (. . .) للميلاد أو للهجرة

يُفتي الفقهاء يُصلب الشلمغاني ويُحرق

يكون من مذهبه :

أ ـ الله يحلّ في كلّ شيء

ب ـ خلقَ الضدّ ليدلّ على المضدود

حلّ في ادم وفي إبليس

ج ـ الضدّ أقرب إلى الشيء من شبيهه

د ـ الله في كل أحد بالخاطر الذي يخطر بقلبه

هـ ــ الله اسمٌ لمعنى

و ــ من احتاج الناس إليه فهو إله لهذا المعنى يستوجب كلّ أحَدٍ أن يُسمّى إلهاً

ز ــ مَلاكُ مَنْ مَلَكَ نفسَه وعرف الحق

ويقول الشلمغاني ــــ

اتركوا الصلاة والصيام وبقية العبادات

لا تتناكحوا بعقد

أبيحوا الفروج

للإنسان أن يجامع من يشاء

ويقول الشلمغاني ــــ

اقرأوا كتابي ــ الحاسّة السادسة في إبطال الشرائع

الجنة أن تعرفوني

النار أن تجهلوني . . .]

11

بعد الأطفال الّذين قُتلوا أمس

غنّى التاريخ

رَقد هانئاً وراء رصاصة وراء رأسٍ مصلوب وزَرع يقطيناً

غداً

يتحول إلى سمكةٍ يقتلها رمحٌ قبل الفجر

يأكُلها طفل جائع

لا أتخيّلُ

أيتها المياهُ السوداء العميقة لا أتخيّل لا أكتب

أنا العالم ـــ مكتوباً

وأهدابي تهيمن على الأرض

هكذا

أُخرج قصائدي من طين خطواتي

أرجم الزمن بأحوالي

وأصرخ : أنا المعنى

حياتي لبوسُ أحلامي

وأشعر أنّي الموت

إلا لمحةً إلا خطوةً

لا المجرى يأخذني
لا القرار يَسْتبقيني
أنا التموّج
جَدلٌ بين الماء ونفسه

أسراري لِيأسي وحده
ويأسي بلا قرار
كأنه الرجاء كأنه التحول
وها هي نجمةٌ تدخل في صدري
أنا سماءٌ وأتكلّم لغة الأرض
النجوم الأخرى التي بقيت في حنجرتي
لاتزال تائهةً تبحث عن نشيدٍ آخر
عرشُه على الماء

والموج حروفه ونبوءاته

ألف باء : «إن وجدوا كتاباً لا يقول قولهم أحرقوه إن وجدوا رجلاً وامرأةً سألوه : من هي؟ وربما ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة ، وشهدوا عليه بالفاحشة . . .» .

ألف سين : «تباع الدور والعقارات بالخبز ، ويدفن الجماعة في قبر واحد» .

ألف ضاد : «تخرج النساء عشرين وعشرا ،
يمسك بعضهن ببعض
يصحن : الجوع ، الجوع
تسقط الواحدة بعد الواحدة ميتة . . .»

ألف ياء : نضجنا ، أيها العصر أنت الزمن الطبيعي لسقوطنا
نضجتَ أيها العَصر نحن الزمن الطبيعي لسقوطك

وكان مكتوباً : «أُصبح وأنا لا آمل أن أمسي
أُمسي وأنا لا آمل أن أُصبح
هكذا
ينزجر نصفي ، ونصفي الآخر لا ينزجر وأتقدَّم كأنني أتأخر
كسرطانٍ مذعور . . .»

12

اسْتهلِكْ حشودَك ، أيها التاريخ
وحّدِ الجسدَ والقشَّ
العينَ والحصاة
واكتبْ :
لاتزال جنيناً أيها الوطن
لاتزال نطفةً أيها الشاعر .

اسْتهلكْ حشودك أيها التاريخ ،
أسميكَ جَدِيساً وأقول سارت إليك الينابيع
أسميك يَمامَةً أناديها : أيها الإثمد ، وأقول للناس اكتحلوا .
وأشير إليك : اصلبوه!
أعرفك

[. . . أنتَ مُعافى وأنا مُبتلى
العافية لا تدعك أن تسهر
والبلاءُ لا يدعني أن أنام
وحين تفرَّغتُ لك
ملأتَ يديَّ عملاً ولم تملأ صدري غِنىً

أنا الإناءُ مملوءاً بك
لن أموت لكنني سأنكسر
أرتقب زلزلةً وخسفاً
ريحاً حمراء
ناراً تخرج من حشْدٍ أحمر
يمـــر بالخـــربة ، يقـــول لهـــا : أَخـــرجي كنوزكِ

تخرج تتبعه كيعاسيب النحل
ثم يمرّ أوائلهم على البحيرة يشربون ما فيها
وَيمرّ أواخرهم يقولون : كان ، مرّةً ، ماءٌ في هذه البحيرة
ثم يحرقون أسلحتهم
ينزل مَطَرٌ يقولون بعده للأرض : أَنبتي ثمارك
يومئذٍ ، تأكل الجماعة كلّها من شجرةٍ واحدة
من رغيفٍ واحد . . .]
وتكون الزُّهرة أعطتني الشَّبَقَ
ويكون المشتري أعطاني العِلم
وعطارد الصّنعةَ ودقّتَها
وتكون الشمس أعطتني جسدي

وأنتَ افهمني ، أيها الضائع ، أيها الشجرة المنكوسة ،
يا شبيهي .

13

خرجت الكواكب ترعى
بسط البحر يديه
مدّت الغابة أعناقها
لا الأعشاب ذبلت
لا السمكة استجابت
لا العصفور خاف
وللنهار قميصٌ يمزّقه الليل .

إنها ساعة الأرق الذي يحكم الأرض
العذاب رائحة العصر
ودم الحيوان يتجمّد بطيئاً بطيئاً

اتركوا للشجر أن يتبادل العصافير
اتركوا للنوافذ أن تحتفل بفجر آخر ،

ننظر إلى العصر يتحطّم بين أيدينا
إلى المكان يتوشّح بحطامه

تنهض من الحطام أزمنة ثانية
حيث تتموّج الجموع
تمزج السّعالَ بالجنّة
والخبزَ بهالة الملائكة

ونعرف أنها جموعنا
تُوحّد بين اليد والوقت
وتقود الطوفان
فجرُها الكلامُ يتبلّل بالضوء
وجهها الحدّ يقطع السواد
إنها الشروع لا الذاكرة
من خُطواتها تصنع القوس
من طريقها تسلّ السّهم

تُشكّل تُسمّي
وها هو المدى يأخذ أشكاله
والأشياء تتسمّى .

وفي هديلٍ يتصاعدُ من حنجرة الشرق

تطوف وتنفث بُخار التعب
حيث الخاصرة بركانٌ
والبركان رحمٌ يقذفُ الرغبة
حيث يتربّى الزّمن
نطفةً
نطفةً
نعرف أنّها جموعنا نقول :
سلامٌ لكِ ، أيتها السّواعد أنتِ من يكوّن الأرض .

نمحو تاريخنا نكتشف تاريخنا
نجرّ شِباك السّاعات ملأى بكلماتٍ
كأنهنّ رؤوس أسلافنا وثمة فضاءٌ يكرز بسحابٍ ضد الريح
بثلج ضدّ المطر
إنّه الوقتُ
لننسلخَ من غيومنا
نمحو تاريخنا نكتشف تاريخنا
بيننا
وبينه
النار

حطبُ أحزانِنا رطبٌ واللّهَبُ يميل إلى السواد

اقتربي يا أجناسَ الحمض
الصّموغِ والكباريت
الأدهان والزّرانيخ
وأنتِ ، أيتها الأحطاب ،
وأنتِ ، يا حُرّاقات الأشياء ،
اقتربي واهبُطي في أتون أشلائنا
وليتصاعَدْ لهيبُكِ
أشهبَ أسودَ أصفرَ أخضرَ أحمر
قوسَ قُزَح
من ألوان التنفس والاختناق
وليكن حُزننا الغضا
حيث يدافع الرّماد عن الجمر
وليكن حزننا وَتَراً
وليكن قوساً تترنّم
وليكن حزننا دخاناً بلون الذئب
وليكن بلون دخان العَرْفج الذي مسّه الماء
نحن الزمن أوْرَس
نحن الوَرْس جَفَّ ، وتفتَّقت خرائطه

نمحو تاريخنا نكتشف تاريخنا

نفتح ذاكرة الدم
ثمة رؤوسٌ كالقمصان تُخلَع وتُلبَس
والدّم صورٌ وشاشات
أين
أنتَ
يا آدم؟
وكيف أعطيتَ الحياة
وأنتَ تقصد الموت؟
للمكان
وجهُ
حِرْباءٍ
والفضاءُ
تلفيق

دمشق القاهرة بغداد مكة

الطريق ترفض الطريق
وأقدامنا لا تتبعنا ---
نعرف هذه المقابرَ الأليفة
هذه المشانق التي تتدلّى بعدد الأيام
نعرف هذا الرصاص الذي يَرضعُ الأمَّ ليقتلَ الابن

لكن ،
كنّا نَتَمنْطقُ بالشوارع   نعتقل الأيام
لم تكن أرواد أرجواناً أو قمحاً
كانت رداءً
ينسجه الصّدَفُ   يُخرّمه الموج
كانت الزّبدَ ــ يتحول غالباً إلى رعدٍ
والرّعدَ ــ يبشّر غالباً بالفِطْر
لكن ،
لكنا نتغذّى بالمطر
ونَسْتدعي مجهولاً ما
نقول لأجسادنا تطايري
لستِ إلا خياماً
ونحن الحنينُ إلى العصف
نتقحّم ونقول لأقدامنا تدحرجي
الغبار ينحسر
البحر يتقدّم

قلنا ثمة ما يوحّد بين قَدَمٍ تغرّب وقدمٍ تُشرّق
وقلنا ، ها هي الشمس تحضَن بيوضَها
ها هو التاريخ ينفجر حوضاً حوضاً

وحين كان الصَّخر حولنا يصمت في تيه كبريائه
كنا نسمع الزّمن يَجْأرُ وينتحب
وقلنا ،
أيتها المناجل ـ تحصد المسافاتِ ، يا أقدامَنا المتعبة
تشبَّهي بالتراب والحجر وانتعلي أنين القصب
أنتِ من يُكوِّن الأرض .

14

نمحو تاريخنا ــ تكتشف تاريخنا

نهض القرمطيُّ افترشَ الصحراء جسداً والجسد حلبةً
قال : ليست الأرض هي التّائهة ، بل ضبابةٌ سمّوها السماء
قال : ليس الزمن الوحل ، بل شيء سموه السلطان
وجلس في ضوء نجمةٍ يقرأ العاهاتِ والقروح يُطلق الإشارات
[. . . الفطرة ، الهجرة ، البلغة ، الخمس ، الألفة
«كلكم أسوةٌ واحدة ، لا فضل لأحدٍ على صاحبه في ملكٍ أو شيء»
«الأرض بأسرها ستكون لكم ، لا حاجة بكم إلى المال»] .

وقال القرمطيّ
أنا النور لا شكل لي
وقال
أنا الأشكال كلها

تلاطمي يا تجاعيدَ بيروت
غُصّي بخطوات الجموع تنفّسْ
يا قاسيون هواء تباريحهم
يترجرجون يهجمون

يتترَّبون يعشوشبون
يتدحرجون هاويةً
ينقلبون زلزلةً
ينفثون الهلع
يَسْتفتحون بالخبز

وقال القرمطي :
الجسد صورةُ الغيب .
وحمل الأرض في كتفيْ ناقةٍ وأعلن
أنا الداعية والحجّة .

استغْوِنا أيها السيد استَدْرجْنا
قل لنا من كذَبَ ومَخْرَقَ
مَنِ البليّةُ
مَن خدع الجسد بنواميسه؟
اسْتغوِنا استدْرِجْنا
نتوافق نتناصر
ننصب الدعوة
وندخل في تَميمة الإباحة .

رقعة من شمس البهلوْل :

[« . . . يبيح الأموال والفروج
يجمع النساء ويخلطهنَّ بالرجال
حتى يتراكبوا   هذا من صحة
الودّ والإلف   أطفئوا المصابيح
تناهبوا النساء   أطفئن المصابيح
تناهَبْنَ الرِّجال . . .»] .

رقعة من دفتر أخبار :

[« . . . وأخذ يشفي القرى ويغني أهلها يكسو عاريهم وينفق على الجميع ما يكفيهم حتى لم يبق بينهم فقير ولا محتاج . أخذ كل رجل منهم بالانكماش في صناعته والكسب بجهده ليكون له الفضل في رتبته . جمعت إليه المرأة كسْبَها من مغزلها وأدّى إليه الصبي أجرة نطارته وحراسته للطير ونحوه . لم يبقَ في ملك أحد منهم غير سيفه وسلاحه . . .»] .

رقعة ثانية :

[«القرمطي وأصحابه في زهو التشْنيع

تُقطع أيديهم وأرجلهم وتُطرح في قوارير النفط
عظامهم خشبٌ يُحرق رؤوسهم تُنصب
على الجسور . . .»] .
استغْوِنا أيها السيد استدْرِجنا
لماذا كانت أبواب الجنة ثمانية
وأبواب النار سبعة كأبواب السماوات؟
استغْوِنا
ندخل في «أهل السواد»
«سفهاء الأحداث»
«أتباع الفتن»
ونجهرْ
نحن التخاييلُ عِلمُ الآفاق
تُخبرنا الطير عن الأباعد
وتُطوى لنا الأرض
وأنتِ ، أيتها الصحراء ،
احضنينا
كوني لنا بحرنا الآخر
موجاً يملأ شقوق الوجوه والأيدي
وخبزاً أبعد من الخبز
إلى الأرض نتجه
سواعدنا قمح

خطواتنا حصاد
وعلى ظهورنا آثارُ سياطٍ تتموّج بنارٍ وأرجوان
وها هي نساؤنا
سراويلُ تنضحُ بالشرق
وعباءاتٌ تتبرّج بحبر الليل
ندخل في بخور الأثداء
نضطجع في ظلال أهدابهنّ :
اكْتبننا حروفاً أخرى
ولتكنْ هذه الحروف أسرارَ الكتابة
ارتفعْنَ حولنا أسواراً وتَقوّسْنَ مداخلَ وعَتَبَات
امزجنَ الغزالة بالأسد العرينَ بالنّهد
ولنُدشّنْ طفولة المستقبل .
لا نبوءة
بل رصدٌ لمساقط الرؤوس
حيث يحتضن الفرات رؤوسنا
وتكون دماؤنا زَهْرةُ العائم
لا سحرٌ
بل ملحٌ يؤاكل التّعبَ ويخبز الأزمنة
حيث تكون أثداؤنا مراضع للنخيل
وأحضاننا أسرّةَ القتلى
ومن بطوننا الخاوية

ينهض شعب العافية والخبز
لا شكوى
بل أجساد ترفعُ راية الوقت .
لا ماء قريشٍ
بل خمرة العبيد
اعصرنَ يا نساء السّواد شقاءكنَّ ولينهمرْ عنباً وحنطة وتمراً
املأن القرى بمزق التيجان والعروش
انكسرْن مرايا وادخلن في النثار وليكن ذلك احتفاءً بزواجٍ آخر
ثَقّبنَ الآفاق بأظافركنَّ ولتكنْ صدوركنَّ حلباتٍ
ولتكن حناجركنَّ مزاميرَ للمعسكرات ودناناً للعطشى وفي الليل
حين يطرح التعب مهاميزه ،
قلن لأجسادكنَّ أن تنتسجَ على أجسادنا دراريعَ ديباجٍ وغلائلَ حرير
ليزدهرَ أيضاً وأيضاً خشخاش الشّهوة
لتتوهَّجَ أيضاً وأيضاً قوس الموت .
نعقد حلفاً مع الصّعاليك
ننشئ سلطة الرّغَبات

والآن ، أوّل الموج
أنا الصّارية ولا شيء يَعلوني .

رقعة من شمس البهلول :

يبتكر جنوناً يمتلك الشيء ونقيضَه
ويهجس أنّه خليفة الرِّيح
يؤرِّخ له القتل
تحتفل بموته يمامةٌ لا يسمِّيها
مثلكَ أيها العصر ،
يرصد الهَلَع
التشنّجَ
زفيرَ الكتب
يمسح الصدأ عن الكلام
ويفجّر ماءً آخر
مثلك أيها العصر ،
تتداخل أنقاضكما   لن تلمح نهاياته
لن يلمح نهاياتك
مثلك أيها العصر
يمزج الحيوانَ بالقمر
الطلعَ بالقشّ
يتقطّع وينْبتر
مسترسلاً في نفسه
مثلك أيها العصر

يَتَشَبَّسبُ كماء الأعالي
كثيرٌ ، لا يتوحَّد
ملتهبٌ لا يخمد
منبسطٌ ولا انقباضَ له
ومثله يسأل : كيف أُلملم شَعَثي؟
الغربُ يَتَلَعْثَمُ وللشرق حكمة البداية
هكذا يختبر
آه ، أيها الكونُ الرَّخو
هكذا يعتبر
لكن ،
بالقشور التي تتساقط من جذوع أيامه
بالعدم الذي يترجرج في أحشائه
سيضيئكَ ويحضنك
أيها العصر الذي يتكدَّس في حنجرته
خرقةً
خِرقةً

مثلك ، أيها العصر ،
لم يمت
وليس حيّاً

أخرجْ ، أيها الطفل

تخرج أشجارٌ ــ أقواس قزح   من كل قوسٍ
يخرج عاشقان   من العشق تخرج غابات   من الغابات
تخرج أنهار المستقبل .

III ـ جسد

1

لم تكن الأرض جرحاً
كانت جسداً   كيف يمكن السفر بين الجرح
والجسد
كيف تمكن الإقامة؟

أيها الأطباء العطّارون السحَرة المنجّمون
يا قرّاء الغيب
ها أنا أمتهنُ أسراركم
أتحوّل إلى نعامةٍ = أزدردُ جمر الفجيعة
وأهضم صوّان القتل

أمتهن أسراركم = أشهد غيبَ أحوالي

أَلْهثُ كمن يستوطن في غربته
أتهيَّم = «ظاهري منتثرٌ لا أملك منه شيئاً
وباطني مُسْتَعِرٌ لا أجدُ له فَيْئاً»
وفي لحظةٍ واحدة ،
أتنشّف أتندّى
أتباعد أتقارب
أتراجع أهجم
وأتخشّع وأَخْتَلّ   وثمّة ما يحول بيني وبيني

كيف أُطلع جسدي عليّ؟

رقعة من شمس البهلول :

تهجم شفتان بين فخذيه تكرّران
تاريخاً يتكرر
من الآن يلمح الأبد
من الآن يتحسّس البدء
أ ب د = ب د أ
اسْتَغوهِ ، أيّها النبض الذي يحكم الغيب
كن إيقاعَه
امنحْ لرأسه أن يهويَ بين ذراعيك
هو المجرّب المنقّح
هو الماء السّلْسَل
هو الهيكل الذي يَتَجَدْوَل مَنِيّاً ونُوراً .

2

كان لإقامته بين الشجر والزَّرْعِ شحوبُ القصب وسَكْرَةُ الأجنحة
تآصَرَ مع الموج
أَغْرى بِهدأة الحجر
أَقْنَع اللّغَة أن تؤسِّس حِبْرَ الخشخاش

وكان سُلَّمٌ يقال له الوقت يتكئ على اسْمِهِ ويصعد
نبوءةً
نبوءةً
من الأجنحة يخرج الأثير
من المصادفة يخرج الحتْم
لكن
أيتها الشمس الشمس ماذا تريدين مني؟

وجهٌ يجتمع بُحيرةً يَفْترق بجعاً
صدرٌ يرتعش قبّرةً يهدأ لُوتَساً
حوضٌ يتفتّح وردةً يتغلق لؤلؤةً
تلك هي أدغال الهجرة وراياتُ القَفْر

وللنهار يدا لعبةٍ
وللفَلكِ نَبرةُ المهرّج
لكن
أيتها الشمس الشمس ماذا تريدين مني؟

يلبس الموتُ حالةَ البنفسج
يسكن النّرجس آنيةَ الثلج يحلم أن الحبَّ وجهٌ
وأنّه مرآته ـــ
الحجرُ برعمٌ ، الغيمةُ فراشةٌ
وعلى العتبة جسدٌ ـــ شرارَةٌ لقراءة الليل
ليس الموتُ عزلةَ الجسد
الموت عزلةُ ما ليس جسداً
لكن ،
أيتها الشمس الشمس ماذا تريدين مني؟

تُكثّرني الحواجز
تجعلني الحجبُ أكثرَ سطوعاً
أتنشّق نباتاتِ الغور وليس بين قدميَّ غيرُ الأقفاص .

لو القفَصُ يلتهب ، والوقتُ دَغلٌ

لو الدَّغَلُ امرأةٌ
لو السّماء تفكُّ أزرارَها
لأَبرأَ مِن ليتَ ولَوْ
لأقولَ انطلقي أيتها السماء بحثاً
عن أمومةٍ ثانية
حَرّري أهدابكِ من الدمع
استسلمي لماءٍ آخر
لستِ الحُلمَ ولا العينَ
لستِ حكمةً لي حكمتي أنَّ للريح ثمراً
يغذّي أيامي
أن لأيامي سُفناً تنقل الشواطئ

لكن ،
كيف تهدأ مَراسٍ تحرسُ الموج؟
وأنتِ
أيتها الشمس الشّمس ماذا تريدين مني؟

أَبحث عما لا يلاقيني
باسمه أنغرسُ وردةَ رياحٍ

شمالاً جنوباً شرقاً غرباً
وأضيفُ العلوّ والعمق
لكن ، كيف أتجه؟
لعينيّ لونُ كسرة الخبز
وجسدي يهبط نحو داءٍ له عذوبةُ الزّغب
لا الحبّ يطاولني
ولا تَصل إليّ الكراهية
لكن ،
كيف أتّجه؟ وماذا تريدين مني
أيتها الشمس الشمس؟

3

يمحو وجهه ــ يكتشف وجهه

يتقدّم الخطف   تلبسكِ فتنةٌ بفجرها الأول

يتقدّم الوقت   أين المكان الذي تُزْمِنُ فيه الحياة؟

تتقدّم العتمة   أيّة رَجّةٍ أنْ أوزِّعكِ في كريّات دمي

وأقولَ أنتِ المناخُ والدّورة والكُرَة

أيّة زلزلة؟

يتقدّم الضوء   يُلْيلُ في أنحائي

أنقطع أتّصل

والوقت يأخذ هيئة البشَرة

يخرجُ من الوقت

وسقطَ

غزوكِ

عليّ

.

وشَهَقَتْ إليكِ أحوالي

لماذا حين دخلتِ أخَذَتِ الحقول تشتعل وكانت يداي أوّل النار ،

ولماذا ، كلّ ليلةٍ ،

كنت أحمل زَغَب نهديكِ لليلةٍ مقبلة؟

أُدخلي
وعلى ركبتيكِ
ترابٌ وفي الطريق إليكِ ـ إليّ
الجبالُ
وسَرْوُ المنحدرات
وشرْبينُ الأودية   أقول نلتقي ـ نفترق
وأَستجمع أنحائي :
أيها الحَنْظَلُ المتناثر ملحاً على موائد الإباحة
أنت العذوبة وأمنحكَ طعميَ الأول .

ادخلي
نلتقي ـ نفترق   لا الفراقُ جَناحٌ وليس اللقاء ظِلاً
أَخْتبئ في تقاطيعي
تختبئين بين نهديك ـ
امزجْنا أيها المنحدَرُ
جسداً يتجامَحُ
جسداً يَرْتاض
وارسمْنا .
اكتملَ دَفترُ السلالم
انفتحت حقائبُ الهجرة

جسدكِ التّيه أخرج
وأسفارُ خروجي أنتِ
آخذكِ أرضاً لا أعرفُها
تلالاً وأوديةً تغطّيها نباتاتُ البحث
امتدادات غامضةً
وآخذكِ واقفاً
قاعداً
راقداً
ولا أقنع بغيركِ
آخذكِ
في تنهداتي
في اليقظة والنوم
في الحالات الوسيطة
وفي ما يُعدّه لي الوقت
آخذكِ
ثنيّةً ثنيّةً
وأفتتح مسالكي
أتمدّد فيكِ لا أصل
أتدوّر لا أصل
أتسلّك أنتسج لا أصل
أصلُ من أقاصيكِ لا أصل

ما بعد المسافاتِ أنتِ ما بعد المفازات
أنتِ أين وهل وماذا وكيف ومتى وأنتِ
لا أنتِ

انْبسطي على جسدي وانْغرسي
خليّةً في خليّة
عرْقاً في عِرْق
ولتخرجْ منكِ آلاف الشفاه
آلاف الأسنان
ولتكن غير معروفةٍ لتكونَ على قَدْرِ حبِّنا
هذا ذلك بينما
عضوٌ يُختَبلُ
عضو يُختلب
وفي ثنيّات أوراكنا نطف ماءٍ تفترشكِ تفترشني
وتنطفئ دنّاً دَنّاً
وأكون علّقتُ صورتكِ بجميع الصور
ويكون جاءني الكشف وقلت :
هذا لقاونا الأخير
من أنتِ؟
آخذكَ

حيواناً ملائكياً
يضع السّمّ في شفةٍ
والبلسم في شفةٍ
وكلّ ليلةٍ ، أقول
هذا لقاؤنا الأول
أيها الأحد
ق
م
ر
ش ع ش ا ع
وليس لي معك غيرُ الهواتف
وغير البوارق
وما يطوف
ويهتزّ جسدي بالكُنْهِ اللازم له
والملكاتِ الواجبة في أشيائه
وأصرخُ : أنتَ الهباءُ
وأنت القادِر
من أنتَ؟

جسدٌ يكبَرُ في الخَزام والخالدة

ينحدر يعلو يَسْتشرف
يجمع الصّفافَ ويقرأ هذَيان القصب
جَسَسْتُكِ بِعينيَّ
رقصاً يتقدَّم في خطوات الفصول
تنهّدتُ في ناردينٍ
وأخذتْ أشكالٌ تروح وتجيء في لُججِ
الخاصرة يصطدم الغريق بالغريق
أخرج من الخيزران
أَدخل المدِقّة
أتغلغل في أخْبية القاعدة
حيث يكمن البيضُ وينتهي قَلَم السِّمة
أتجمّع كما يتجمّع اللّقاح
أخلعك أتزيّا بكِ
أنسلخ منكِ أتّحد بكِ
وأخلق بيني وبينِك
خداعاً بعلوّ الشمس
رياءً يكسر الزّمن غصناً غصناً

من أنتِ؟

تحت البَشرة الهويّةُ

في شراييني خَبْطةُ المسّ
أتدحرج بين أنا الجمر وأنا الثلج
وبين
الياء
والألف
أَتدلى
أَخلق في اليوم يوماً آخر
وأَربط بحبل الدقائق أهوائي
تقول المرآة اكسريني
تقول الخطوات قيِّديني
وبين آلة الموت وحيوان الألفاظ
أَنْغرس   أنجذر
وأَلعب نَرْدَ الطبيعة .

رقعة من شمس البهلول :

قلتَ مرّة :

اجعليني على خزائن جسدكِ واسْتودعيني ،
جسدك نيلوفرٌ جسدي بحيرة ، ـ

وقلتَ :

أيتها المتراميةُ ضفافاً ضفافاً على مدى هيامنا
أيتها السفينة اجْنحي
ربّما تَنْقشر الطحالب
ربما تتوهّج قرارة السرّ
ثَمّةَ أغوارٌ يغمرها الصدأ ـ اجْنحي
حيث الجنوح كنيسةُ الجسد
والجسدُ كاهن الجنون .

وقلتَ :

يداً بيدٍ قلباً على القلب
يسير الجسدُ والمهبُّ لا العصفُ يهدأ
لا الجلْدُ يحتمي
ويُجَنُّ الجسد جنوناً ينتحل التعقل
ويُجنّ المهبّ جنونَ المحيطات

وقلتَ :

كيف يسبِّح الحصى في اليدين

ويَنبع الماء بين الأصابع؟

وقلتَ :

أطلبُ إلى زماني مهلةً لأكون آيةً تنطق بما سيكون الحبُّ

وقلتَ :

الحبّ هو كذلك يجرح الحياة يقتلع وينفي

الجسد هو أيضاً يتحول إلى سائلٍ ويأخذ شكل الإناء

وقلتَ :

الجسد لا الحبّ جِلدُ الزمن مَسامُّ الأرض

الجسدُ لا الحب قوسُ الأفق عضلَةُ الريح .

تريد أن تعرف؟

إذن ، اجهلْ ما أنت

واجهلْ غيرك

وقلتَ :

خلطتُ وعوّجت

سَللتُ صوتيَ امْتلخْتُ كلماتي ،

وأغمدتُ اللغة
وصرختَ :
أيها الإنسان
الذي خُلق مريضاً
متى تشفى؟

4

ادخلي   بَطِرت أعضائي
إليكِ   ناهبتُكِ
تَنمّيتُ فيكِ
وأرْسيتُ أحوالي

ادخلي   نلتقي = نفترق   نمحو وجهينا = نكتشف وجهينا
نمزج الخبز والجرحَ لنبقيَ الأرض تحت كلماتنا
نحتفظ بشجاعة الرّفض لنكتب تاريخاً آخر
نرى امرأةً ــ بحيرة   نهراً ــ قامةَ عاشقٍ
يتطيّف جسدانا
ونعلو في الفضاءات .

عارياً ،
يترك الفلك بيته ويهبط أدراجنا
للأشياء هديرٌ نغتسل فيه
للأوقات وحوشٌ نأنس بها
نتريّف نتحضّر

ننتشر ننتظم
نأتلف نختلف
ليس للأشياء أسماء
للأشياء أفخاذٌ كالأيائلِ
وجوهٌ كالعشاق
وها هو المدى
فَرْوٌ أبيضُ
وللوسائد عطر الأدغال
وها هو الجسد ــ الأبُ الجسد ــ الأم
يَتّجه
نَتّجهُ
تحيِّينا أجراسُ الرّغبات
تحيينا أسرّة بعلوّ الطفولة وصدق الشمس
ونبتكر موتاً يطيل الحياة
ونبتكر خداعاً
بينكِ وبيني
رياءً
يكسر الزمن غصناً غصناً
نلتقي = نفترق = نمحو وجهينا = نكتشف وجهينا
في السرير طيفان
واحدٌ يتراءى   واحدٌ يتوارى

والجسدان أربعة ـ
شَطْرٌ للغائب
شطر للحاضر

حشدٌ من الإبَر يلطم أحشاءنا
والجسدُ الذي نقرع لا يُؤاوينا
ثمة شقوق تكشف ما تغطّى
ثمّة أسارير تقرأ علينا الأسرار الأولى
كيف للجسد الواحد أن يُثمر الياسمين والعوسج؟
كيف لقلبٍ واحدٍ أن يلبس جسدين؟

نأتلف = نختلف
نبتكر خداعاً بعلوّ الطفولة
رياءً بصدق الشمس
نبتكر موتاً يطيل الحياة
ونقول
الحب ثلاثة ـ رجلٌ ورجلٌ وامرأة
رجلٌ وامرأةٌ وامرأةٌ

دائماً
كان
بيننا
مسافة   قلنا
يمحوها اللهب الذي نسميه الحبٌّ
والتصقَ النهار بالنهار الليل بالليل وبقيت بيننا مسافة
أطفأنا ما لا ينطفيء
أشعلنا ما لا يشتعل
وبقيت بيننا مسافة
وفي ساعات التحام الشهيق بالشّهيق والنطفة بالنطفة
بقيت بيننا مسافة
أيّها الحب ، أيها النسل المنطفيء
تَقدّمْ واجلس على ركبتيٍّ ــ ركبتيها
خُذْ إبرَ الدمع وانسُجِ الماء
تحيّينا أجراس الرّغبات
نبتكر موتاً يطيل الحياة
نبتكر خداعاً بعلوِّ الطفولة
رياءً بصدق الشمس
من نحن؟
يجمعنا جسرٌ لا نقدر أن نعبره
يوحّدنا جدارٌ يفصلنا   أدخل فيكِ أخرج منّي

أخرج منكِ أدخل فيَّ
ما أبنيه يَهدِمني
تشبّهتِ لي أنّك الفضاء
وأَضْغَثْتُ الرؤيا

أمسكتُ بوردةٍ هبطتُ واديك انتظرت
بيننا نهرٌ والجسر بيننا نهر آخر
سمعتكِ تسألين : أيّنا الكبدُ
أيّنا النواح؟
اختلطتِ بالجزَعِ وأعشاشه
صرختِ اتّحدنا كرةً من النار
انْطفئي الآن أَنطفئ الآن
لِنعرفَ نعمة الجمر
نمحو وجهينا نكتشف وجهينا
هواجس
أصدافاً
مرايا

ننفذ عِبرَها إلى شخوصنا الثانية
نفتح صدرينا للأكثر علوّاً

ينفتح لنا الأكثر انخفاضاً
ويدخل كلانا في برج الوحْدنة
في عزلة عصفورٍ يُحتضر
ويتذوّق كلانا طعم الآخر
وتسكر أعضاؤه بالحياة لحظةَ يسكر الآخر بالموت
وكلانا يُسِرّ نعم لحظةَ يجهر لا
ويُسرّ لا لحظةَ يجهر نعم
كيف تغسلين جسدك ويزول ماؤك الثاني؟
كيف أغسل جسدي ويعود لي مائي الأول؟
أنا سؤالكِ
ولستِ أنتِ جوابي
عرّفتكِ بحنيني
بشّرتك بِه وربطتك بنفسي

ع ي
ل
أد ن ي س
و

لكي يتحرّك جسدكِ حركة الحكيم
وأتحرّك به
بما فوقه
بما تحته

وبالذي بين يديه
لكي أحيطَ بكِ إحاطةً تخلِّصني من كل قاطعٍ يقطعني عنكِ
أقرأ كتاب كنهكِ
أتطوّرَ في أصولكِ
أذوقَ موجوداتِها
وأشخِّصهَا في أوهامي
لكي تكوني النقطة
وأكون الخطّ والشكل
لكي تكوني مِنْ وما يتلوها
عَنْ وما عندها
حيث لا تسعني الكلمات
حيث لا يسعني غير التخييل والرمز
لم أقصدكِ

لستُ بحركِ
لست البجع الذي تنتظرينه
وليس لي غير أطرافٍ
أطرافٍ تتيهُ تتوه في حُمَّى لم أكتشف حدودها بعد .
محوتكِ ــ اكتشفتكِ
بسطت على الورق أجنحتي واستدعيتكِ

قلتُ : الموت شيخ

من أين له بعد أن يلحق بنا؟

قلتُ : جسدي شمالٌ والزمن جنوب

كيف لهما أن يلتقيا؟

ولكِ أَماميَ الذي لا يهرم

ولك أبديّة الجهات الباقية من أعضائي

ولكِ منحتُ عينيَّ الأرقَ ويأسيَ النوم

ولك ساويتُ بين الصحراء والبحر

العينِ والشّوك

ولكِ استثنيتُ المعنى من حشود الكلمات وسمّيته الصورة

ووفاءً لأسمائك التي أنزلتها سلطاناً

قلت للأبجدية : تشهّيتِ ووحّمْتكِ

ولكِ غيّرتُ وأقنعت سنواتي أن تكون جمرة التغير

ولكِ استوهَبْتُ اللهبَ أخطائي وأقنعت الجسد

أن يكون مجدَ الصفات

ألتهمكِ خليّةً خليّةً لا ترويني

أَحتويكِ نبضةً نبضةً لا راحةَ لي فيكِ

لا الغيرة تفصلني عنك لا الكراهية

يفصلني شعور لا اسْمَ له

وأنتِ الآن الزّمنُ والموت :

من أين لي أن أَسترجعكِ؟

تُحتضرينَ أندفع نحوكِ
أجسُّ بقاياكِ
وألمس كيف ترحلين

لم
أكنْ

لستُ إلا رذاذاً يُشهِّي
كنت البطيءَ وسبقتْني ثيابي
موتي سُلَّمٌ لجسدي وجسدي بلا قرار أين أثبت؟
أثبتَ السّحاب قلتُ للزبد أن يكون
مفتاحَ الموج أين أثبت؟
ليس الاسم جذراً ليس الجذر امرأةً ليس أين أثبت؟
القشُّ يأتزر بالورد والكلمات تكسر صلبانها أين أثبت

وجاءني الأفق سَمَّى نفسه بِاسْمي
ليس الاسم حضناً
ليس الحضن امرأةً
آخذ شفتيَّ منكِ هذه الليلة

أيتها الأرض الوَحْمى ولا حَبَل ،
لأعرفَ كيف تهطلين أيتها الصحراء
كيف تزدادين اتساعاً
لأعرفَ خَتْمَ اليأس
لأعرفَ كيف نحبّ دون أن نحبّ
كيف يذبل ما تسمّى بأسمائنا الأولى
وارتوى بما حسبناه لا يعرف الذبول

أيتها الذكرى ــ النسيان
كيف يتبعني البنفسج أتبعُ زرقة الماء
أقرأ جسدكِ ــ
ضيوفه ورعاياه

وأقول يخرج من وجهي ضبابٌ
تخرج من جسدي خيوطٌ
تتواصل تنحلُّ تَنْحلُّ
وأسألُ من رأى حصاةً تمتدّ
امتدّي أيتها النار ،
الأحشاء تيبس
امتدّي

والصقيع يزدرد العضلَ
امتدّي
والزمن رطبٌ رطبٌ
والزفير يَتدوّرُ هالاتٍ هالات

الطرق الصّالحة ليست صالحةً لي
وليست لأحدٍ خطواتي
وفي كل نقطةٍ من جسدي تِيهٌ
وليس الضّلع عشيقةً لأضلّلَ الطرق
وليست المرأة أرضاً لأكتسيَ بالفضاء
أشكّك المثلّثَ بأضلاعه الدّائرةَ بمركز
الدائرة
أشكّك الخبز بالملح
هل يخرج الطبع عن مداره؟
هل أنا سمكةٌ تكره الماء؟

أكثرُ شيخوخةً من الحَجر هذه العضَلة
عبرت مَححجّات الخدَرِ استكشفتْ محيطات الهلوسة
رافقْنا معها دوّار الشمس
سكنّا معها حشيشةَ الملاك

الطرق فواصلُ وحركات
ولا فرق بين القمر وظِلّه
العصفورِ والغُصن
ورأيت البحر في وَزْرَةِ الغابة
والثلجَ ملكاً على الماء   كانت الشمس تحرسني ولي دَوْرة الفَلَك
يحملني قَرنا جدْيٍ تختارني شفتا ثورٍ
أشهد كيف يكون للضوء جسدُ الشوك
لِلطَّمْي أنينُ الأعالي
كيف تمحوني الحقيقة ويثبّتني الوهم   من أين أعبر المسافة
بينهما ـــ
دائماً كان بيننا مسافة .

أيّها الضارب في شريان المسافة استسلمْ
للرِّيح تشرّد الفضاء
للفضاء يمشي بقدمي طفل
لِلحبّ مَنْفى للحب .

رقعة من تاريخ سري للموت :

وداعاً للجسد الذي واثَبَه وساوَرَ
أعضاءه
وداعاً لِمَدٍّ يجزرُ بين طفوليّة جسده
وشيخوخة أحلامه
سلاماً لمملكته البائدة .

رقعة من دفتر أخبار :

يمحو الشهوة ــ يكتشفها
الشوكُ يدٌ لمن يزرع الزهر
الملاك أوّل الحيوان

يمحو يكتشف
يحلم بجسدٍ يكتبه
لكنِ الكلماتُ أحلامٌ والكتابةُ امرأةٌ
ماتت : هل الحبّ هو الحب؟

لم يعد يرى ــ أعني بدأ الآن يرى
حين يحضره الموت لن يسمع صوتها
وإذا سألته : من أنا؟ لن يعرف الجواب
وربما همس : هل التقينا حقّاً؟
ويقول :
ينهضُ اسمٌ آخر للحب .

رقعة من شمس البهلول :

لكي يكونَ ما هو
خرج من نفسه خرج
وبقي فيها شخصٌ لا يعرفه

أتأبّطُ الليل
هديّةً لكل جسدٍ أبلّغُ هذه الرّسالة :
اتّصلْ كما يتصل البحر باليابسة
يَلْتصقان لكن لا شراكة بينهما
كلاهما نقيضُ الآخر

ــ لكن ، لماذا أنا جميلةٌ أيها البهلول؟
ــ لأنّ السفينةَ هي التي تراكِ ، لا الموجة .

5

اللّيل يعرّي عشيقاته
يتصوّف يتّحد بأصغر أجزائه
قولوا للسماء أن تغيّر اسمها
قولوا للأرض أن تأخذ هيئتي
وجهي لمحٌ في عيني بحيرةٍ تجفّ
لِجسدي طعمُ الكفن
لهذا ،
يتخطّفني رعدُ المتاهات
لهذا ،
يصير العالم نافذَةً لا تتسع لأهدابي .

أعرفُ المحارةَ
قنديلَ البحر
فخذَ الليل سِكّينَ القمر
لسانَ القرنفلِ شفاهَ الريحان
أعرف الوجه والقفا
وثمّة سطحٌ أنتشر فوقه وأجهل امتداده وألوانه
الجسد الذي أعطيته جسدي لم ألمحْه
الجسدُ الذي قال اقرأني كتبتُ غيره

اكتبْني قرأتُ غيرَه

لهذا ،
أتردّد صوتاً بلا كلامٍ داخل مسرحٍ بلا حدود
لهذا ،
أسمعُ كلماتٍ بلا صوت :
لَمستْكَ يد الفجر مرّةً
وغابت .

تزيّني أيتها الفصول بشموعِ تاريخٍ ينطفئ
العشب يغلق مقاصيره
الرّبيع يكسر مفاتيحه الأولى
وثمّةَ من يجرح ويلتصقُ ذبابةً على الجرح
وها أنا ـــ
أهبط من الأفق الثاني للولادة
ويَنْخَرِقُ لي فضاءً آخر .

أيها الحنين الذي ينتقش على جدران الزمن
أَيقظْ وحوشَك وأطْلِقها
أيها الحبر البابليُّ
استرجعْ سُكرك وأَسكرني

زمني قميصٌ يضيق والشهوة جسدٌ يتسع
أمحوكِ أيتها الشهوة
أكتشفكِ
أسمع للحوض صهيلَ الأفراس
ألمح للسُّرَّة امتدادَ السهوب
عضَلةٌ تستدير
عضلةٌ تُعاجزني
عضلةٌ تمزّق بعضي ضدٌ بعضي
ألمس القَحْف والقلبَ
نبضَ العظم
وَخْوحَةَ الشرايين
وجهكِ طافحٌ بدمي
وآخذ وأكرّر وأهذي
وللأفقِ يَخُورُ المنيّ .

اتركي لجسدي أن يثبت على الورق
مَمْشى وخطواتك الشجر
مشهداً وجسدك الممثّل والرّاوية
ظِلاً وجسدك الإشارات والتلاويح
سطحاً وجسدكِ العمق
حروفاً وجسدكِ الكتابة .

وتنزَهي
في كفنٍ تنسجينه خيطاً خيطاً
وقولي للإِبَر أن تُبطىء
وأَبطئي

وأنتِ يا متاهات الحب
استَتْشرفْتُك وأخذتْكِ عيناي
بَرَدْتُكِ وثَلَجْتُكِ
استنْقعتُ فيكِ وجَسَرْتُكِ
وأنا الآن أُناسِمُكِ
وفيكِ أُخَضْخِضُ جسدي .

رقعة من شمس البهلول :

يمحو الشهوة يكتشفها
تطوّح فيها
حضنها تفاريقَ وجوامع
مَنحها تصاريفَ جسده
اسْتَصحبها مع أنفاسه وهَيْمَنَها
اخْتَرطَها بلسماً ورأبَ صدوعه
تفارَسا
وَالتَهم أحدُهما الآخر
لا يجد كلاماً
هل يتحدَّث بما يوحي؟

إذن ،
تَدَهْدَهَ في نفقٍ
انتسب إلى بيتِ عنكبوت
تَعَارَك مع جناحٍ سقط من ذبابةٍ ماتت
يتوهَّم نسراً تتبعه الشمسُ يتبع نجمةً تنطفئ ويقول
هكذا أحيا
يتوهَّم كناريّاً تخنقُه يَدٌ تواسيه ويقول

هكذا أحببت

من الحلم
إلى الحلم
يمضي الأملُ يَسْتَتِمُّ خريفه الأخير
والحبّ كَمْأةٌ وتَعاشيب
لا سقفَ غير التوهم
لا توهّم غير اللجّ
وقالت الموجة :
أنا المستقبل .

أمحو جسدي أكتشف جسدي
قلتَ لي : شكوتَ إليّ الوحدة
وقلتَ : سأمثّل لك الحبّ :
غصن
كثيرُ الشوك
أُدْخِل في جوف العاشق
تشبّثت كل شوكةٍ بعرق
ثم جُذب
أخذ ما أخذَ وأبقى ما أبقى
خلاياي ازدوجت وامتلأت أكثر من البحر ،

أَنزلق على مُدْيَة جُرْفٍ مجهول
تنزلق لغتي على مُدْية الهاوية
وبين نشوة الدُّوار
وشفا هلاكٍ غير مرئيٌ
أتدلّى
لا تقريباً
بين
في
ربّما أبداً
والنّفي ظرفٌ والظرف خبر شهابٌ يجرّ حروف الجسد
وينطفىء

جسدي أشياء تتناقض
يربط الكفن بقدم الشمس
ويقول لفراشةٍ
بلون وجهي
اكتبيني على جناحيكِ
واحترقي
هكذا
أنحدر في إنشاءات الذكورة والأنوثة

للذاكرة ستارٌ يغمرني
للحركة رموزٌ تمحو الذاكرة
عَرّوا أنحائي من أسفل
غَطّوا أنحائي من أعلى
جسدي خَطٌّ غضوني تعابير
ـ هل أنتِ من جنسِ ما يُكتب؟
ـ هل أنتَ من جنسِ ما يُقال؟
أكثرُ فصاحةً
أَن اكتسي تأشيراتٍ وتراقيم
أكثر عمقاً
أن تتحوّل أطرافي
إلى حواشيَ وهوامش
أكثرُ شفافيةً
أن يكون الزمن زهرةً تذبل (أو تتفتح) ووجهي الآنية
تَتَأَرْجَحُ البَشَرَةُ
أَنخرط في سِلْكِ الأغوار
أتمحور
أهوي
أَختلط باللّجّة
وتسْترسِلُ أهوالي ـــ

الجرح دلتا
البلسم ألف
والجسد حروفٌ بلا نقاط

أيّة هاوية تَتّسع لأعضائي
ليس للمكان قصبةٌ لأتوكّأ   ليس في مناخهِ غيومٌ لأتوسّمَ المطر
وها أسمع في جسدي
جذوعاً تَنْبتر
وأشلاءَ تَتطاير
وها أنسكب في شظاياي
وأسترخي
أيّها الحبّ ـ الرأسُ الذي يَشجُّه الجَسد عرقاً عرقاً
أيها الحب ، يا أرومةَ الماء
اتّسِعْ
كن الهباءَ والشمس
وأثْبِتِ الغُبار بالغبار .

تمرحَلْ ، أيها الجسد ، من الآن إلى الموت
ـ متى وُلدتَ ، ما عمرك؟

ـ لا أعدّ ، لا أرقّم
أتهالَكُ وَالهاً
أهوائي تَملّكت حركاتي ، وشَرَّبَتْ وجهيَ اليأس .
كرّرت : أملك أقاليمَ لا أعرفها
يُجَيِّشني الرماد لكن اللّهب يقودني .

رقعة من تاريخ سري للموت :

تَمدَّدْ ، أيها البخار ، يا دمي ورافق استطالاتي
ثمة أمواجٌ تقبل من شواطئ غير مرئية
تقول إنّها استطالاتي
ثَمّة صلصالٌ غيَّر اسمه
حَرْفٌ خرج من صوته
أُفقٌ على شَفَا الأفق
تقول إنها استطالاتي
وبين العصب والعصب صَحَارى
تقول إنها استطالاتي

وأنتِ ، يا زهرة الآلام امْنحينيَ احتمالاتٍ أخرى
كوني أمومةً زهرةً بآلاف الأَسْدية والمِدَقّات ،
الكؤوس والتّويجات
امْنحيني ــ لذْكري وجهي
كنتِ تَنْحنين عليه كلّما جمعنا ماءٌ أو هواءٌ لِنقرأ الموت
تمتزج رائحتانا
تنمو أطرافُنا توائمَ توائمَ
أقول لكِ : تَموتينَ مأخوذةً بالماء

تقولين لي : تموت مأخوذاً بالشمس
لكن ،
لحظةَ تذبلين بين عينيَّ
يفصلنا لَهَبٌ لَهَبٌ لَهَبٌ
ومتاهاتُ الأحد السبت الجمعة الخميس
أصِلُ فيك الشهوة بطعم التراب
والفرحَ بنكهة الموت
وها هو جسدي
موشوماً ببقع الحسرة
يزحف بين كلماتي
تتكاثفُ أدغال الأرق
تعلو أمامي الجبالُ
الشجر ينام
ولكلِّ حصاةٍ أذنان تُصغيان إليَّ .

توهَّمتُ أنَّ اليدَ يَدٌ وأنَّ الوجهَ هو الوجه
وكان هذا تعاطفاً مع الرمل .

رقعة من شمس البهلول :

الجسدُ يتذكّر الحبّ ينسى
الحبّ أن نذهب الجسدُ أن نجيء
الحبّ أن نستوهم الجسدُ أن نتَبلبل
الحبّ ـ هذا الهَزْل الكوني
من أجل أن يظلّ الأبد مشقوقاً
من أجل أن نُهَسْهِسَ الشّكّ .

رقعة ثانية :

الحبّ مَلكٌ على السّلب
طفلٌ يظلّ في حالة الولادة
الحبّ زيّ ـ كلّما كثر المحبون قلّ الحب
سريرٌ تعمره حشرات إلهية تنفث الهذيان الكوني
حيث يشتبك فخذ القمر وفخذ الفأر
يتعانق فكّ الشّمس ولسانُ الحرذون
الحبّ فمٌ حُرِّف عن موضعه

لا تطلب الغبطةَ في الحبّ
لكن ، لا تطلبْها في البغض
اطلبْها في رذاذٍ لا ينقطع
من غيمةٍ تسبحُ
في فضاء بحثٍ يسبح
في فضاء رغبةٍ لا اسْم لهما
لا اسْم له .

رقعة ثالثة :

منذ أخذت السّماء تطعم الأرض
انشطر وجه هذه التاعسة نصفين :
نصفاً للخطأ
نصفاً للندم

قبل الأوان الخطأ
بعد الأوان الندم
والإنسان بينهما مَبْغى .

6

قالت أشباحه :

كنتَ ترقد مع آخر نجمة تستيقظ مع أول عصفور
جسدكَ وراء جسدك وعيناك تَسْتَسرّان
ترسم خرائط الماء، والماء يهرب ويمحو
وتساءلتَ كيف يتحوّل الهاجس إلى قدمين ويدين
وقلتَ الخيالُ يلمس أصابعي
المكان يتخيّلني
وما حاجة العين للعين؟

العصر تَشنّنَ جلدُه وبَدّن
الأفق طَحْلَبَ
وَشَوّكَ الماء .

وقالت أشباحه : أيها الفشل، يا جَسده الآخر،
وحدك عرفتَه ــ قلتَ
في أحشائه مشاتِلُ وآلات
لنفي ما يَقبل ونَفْي ما يَنْفي
وقلتَ للأشياء الْبَسيه
وقلتَ له البسني ــ

الآن تستطيع أن تبدأ .

وكان الجسد جديداً وأخْبَرنا :
غَرَضي أن أسمّي الحُمّى ذاكرة الجسد
غَرضي أن أتحدث مع حرائق الداخل
غرضي أن أعارض الموجَ لأحسن تمويه الشواطئ
وأبدأ دائماً سقوطاً
في
زهو
العافية .

وكان الجسد جديداً وأخبرنا :
الماء ضيّقٌ على عطشي
وأنا ضيّقةٌ على أنا
لي آلافُ الألسنة وليس لي إلا كلمةٌ واحدة
لي من الموت أنواعٌ لا تُحصى
وليس لي إلا قبرٌ واحد .

وقالت أشباحه : تَبَلّلي بمطر الأشياء واغمريه يا أعشابَ اللغة
يبتكر أعضاءه أعداءه

يقرأ تاريخ التراب
ويتوّج الشيء ملكاً على رموزه .

وأنتِ انْقصفي يا أعمدة الذاكرة
وأنت انْطَفئ يا جمر الماضي
يفرّغ جسده المزدحم بالأسماء
يمنحه لجسدٍ لا اسْمَ له
ويعشق هذا الجسد الذي لا اسْم له .

وقالت أشباحه : افترسَتْه أحوالُه
تستأصله فأسُه
تمزّقه يداه
من أنقاضه ارتفعت أسوارٌ وَعَلَتْ مقاصيره
انقسمَ ظلّه اثنين يدّعيان حبه :
واحدٌ يؤثر جثته
واحد يفضّل صمتاً يشبهها
وانتشرت جثّته أثيراً
تتدلّى منه رؤوسٌ وأفخاذ موائد وأسرّة
وانتشرت جثّته مرآة

لها شتاتُ المدى

وأخذ كلّ شيء يتراءى فيها :

أين العصفور يطير بأجنحة من الوحل؟

أين الصرصار يتقمّص وجه الملاك؟

وقالت أشباحه : اصهرْه أيها الشّقاء لِيَستنزلَ مطَرَ الوقت

ضجِرتْ أعضاؤه من أسمائها

من النُّطق والصمت

من السكون والحركة

ضجرت أعضاؤه منه تسبقه ـ يتبعها

أصهرْه أيّها الشقاء ليعرف هل هو هو ، أم غيره؟

وقالت أشباحه : لنمضِ

أمامنا الجسد يترمرَمُ سِرّاً سِرّاً

العَفَنُ هو كذلك القلب

العَفَنُ هو كذلك الطفولة

العَفَنُ هو كذلك الحب

ولْنقتنع :

الحب أن تشكّ أيضاً في الحب

الحياة أن تزخرف لك العينُ أنّك الوحل
أن تتّسخ ويكون الوسخ من ولائمِك وأعْراسك
ولنقتنع :
الحياةُ أن تَتَماوتَ
أن تكونَ منذ البدء ، الميّت ـ الحيّ
الحيّ ـ الميِّت

وقالت أشباحه : باسم جسدك الميِّت ـ الحيّ الحيّ ـ الميت ،
لستَ في الطرف
لست في الوسط
لستَ الحكيمَ
لست الطائش
أنتَ
السقوطُ النهوض
اللّحظةُ التي تتنفّسها وتتكرر
كلمة لا كلمة
شيء لا شيء
غَيَبْ تَغيُّبْ
وادخلْ في أعراس المحْوِ والصَّعْق اتّجهْ أرِّخ
لا الأمرُ أمرٌ
لا النّهيُ نهيٌ

انسُلْ دمكَ خيطاً
اتْبَعْهُ
اعنُفْ تَحَنَّنْ
احترقْ ـــ
بلا اتّجاهٍ
بلا طريقةٍ
ارتطاماً
قفزاً
لا تَستَبْق
احترقْ تَسَلْطَنْ
كن المكانَ الذي لا مكانَ فيه
الوقتَ الذي يغلبُ الوقت
كُنِ الشّهوة الشهوةَ الشّهوةَ
ابْرَأ الجسدَ
وسمِّه النبيّ
والناطق .

7

باسم جسدي الميت ــ الحي الحي ــ الميت
ليس لجسدي شكلٌ
لجسدي أشكالٌ بعدد مَسَامِّه
وأنا لا أنا
وأنتِ لا أنتِ
ونصحّح لفظَنا ولسانيْنا
ونبتكر ألفاظاً لها أحجامُ اللسان والشفتين ،
الحنَكِ
وأوائلِ الحنجرة
ويدخل جسدانا في سديم دَغَلٍ وأعراس
يَنْهدمان
يَنْبنيان
في لُجّةِ
احتفالٍ
بلا شكلٍ
بطيئاً سريعاً
نحو ما سميناه الحياة
وكان فاتحةَ الموت .
باسم جسديَ الميت ــ الحي الحي ــ الميت
ارتفع السُّرُوُ بين الاسم والوجه

عادت اللغة إلى بيتها الأول
كان الحب قبراً دخلتُ إليه وخرجتُ
كان القبر نزهةً لراحة الأوردة
ومات النحو الصرف
وحُشرا بين يَديْ أول قصيدة كتبتها وآخر قصيدة
وأخذ الحَشْرُ يحكم ويَفْصل
يبرّئ ويَدين
لكي يأتي الليلُ
يشرد النهار خارج النهار
لكي يأتي النهار
يشرد الليل خارج الليل
لكي تحتفظ الأرض بذكرى العشب
تَتَغطّى بالقش

باسم جسدي الحي ــ الميت الميت ــ الحي
للجسد أن يفصل بين جسدي وجسدي
له أن يعتقل عضواً بعضو
يحارب خليّةً بخلية
له أن يزرع دمي ويحصده
وللجسد أن يكون جسدي
ضِدّ جسدي .

تعازيم

أ .

سلاماً أيها الجسد

أيها النغم أَخرَجَتْهُ اللذة ألحاناً سُرَّتْ بها

عَشقتها وطربْت إليها

ورتَّبت الأوتار الأربعة إزاء الطبائع الأربع :

الزِّير المرّة الصفراء

المَثْنَى الدّم

المثلّث البلغم

البُمّ المرّة السوداء

وأجرتِ الإيقاع في أنهارٍ لا تُحصى

سلاماً أيها الجسد

ب .

اقتربي ، يا شجَرَة الزّيتون

اتركي لهذا المشرِّد أن يحتضنكِ

أن ينامَ في ظللك

اتركي له أن يسكبَ حياته فوق جذعكِ الطيب واسمحي له أن يناديكِ :

يا امرأة!

ج .

« . . . ليلاً ،

نخرج من أسرّتنا

نذهب عاريات حتى أطراف القرية

نحمل قضباناً بلون التراب

نرشُّ فوقها الماء

نفترش الأرض الظامئة

. . . ثم يكون غيمٌ

ويكون المطر» .

د .

استلقي ، أيتها الجميلة ،

فوق هذا العشب الجميل

ضعي بين فخذيكِ زهرة جميلة

وقولي لعشيقك الجميل

أن يزيحَها بعضوه الأجمل .

هـ .

تعرّي ، يا شجرة الورد ، التحفي بالقمر
انزل ، أيها السيد القمر التحفْ بشجرة الورد
وضعنا لك سلماً
جعلنا قدم الوردة آخر درجاته
زيّناه بزهرٍ آخر
حفرنا عليه رسوماً
لأنواع الدّيكة في البر
لأنواع السلّور في البحر
من أجل أن نشهد عرس السماء والأرض .

و .

أنتَ ، يا من لاحقتْه امرأة
كانت تغطّي جسدها بأوراق المدرسة
وتلفّ رأسها بتويجات الورد
كان اسمها أميرة العشب
كان اسمها العيدَ
والكلام
أنتَ ، يا من مضى ،
ها نحن ، حول اسمكَ
نتحلّق

نحسبك شجرةً
نكسرك غصناً غصناً
نصنع منك دمية نغطيها بالقشّ
نلقيها إلى الزبد
ونقول :
الزبد
هو
أيضاً
من
مفاتيح
البحر

ز ـ
هاتي خصلةً من شعركِ
اربطيها بهذا الغصن
اتركيها في عناقِ مَدى الريح
في صورة عاشقين .

8

سلاماً للفساد أليفاً كأنّه الهواء
مؤسِّساً كأنه البدء
سلاماً لآلاتٍ غير مرئية أَبتكرها لأبتكر أجسادي الأخرى
قلوبي الأخرى
سلاماً لكوكبي الجالس على طرف القيد
يتّخذ من قدميَّ وذراعيَّ حدوداً وأعلاماً
سلاماً لوجهي   يتبع فراشةً تتبع النار

/ / هل أفصل نفسي عن نفسيَ
هل أجامعها / هل الجما
عُ لحظة انفرادٍ أم لحظة ازدوا
ج؟ هل آخذ وجهاً آخر؟ وما
ذا يفعل جسد تبقّعه جراحٌ لا تلتـ
ـئم؟ إنها الصحراء
تطبق عليَّ ، وها هو
الجرادُ يَحْتَنِكُ أطرافي //

اجلسْ ، أيها الموتُ ، في مكانٍ آخر

ولْنتبادَلْ وجهينا
أصنع نبضي نسْغاً لأبجديتي
أسوّيك الجلد
أسمّيك النظر
طعمَ الأشياء
وأعلن :
أنا المتوثّنُ والهدمُ عبادتي .

وأقول باسمكَ :
ابتسمْ ، أيها النهر ، لجفافك
امرحي ، أيتها الزهرة ، بين الشّوكة والشوكة
وأقول باسمكَ :
في الرّماديّ أفتحُ جسداً أتجوّلُ في أرجائه
حيث يتمشّى قوس قزحٍ بخطوة الطفل
ويكون لخيالي أن يفترسَ عينيَّ
ويهدم الجسورَ بيني وبين ما حولي
ويكون لي أن أصعدَ وألتقفَ الهواءَ المحيط .

وأقول باسمكَ ، هامساً لأشباحك :

أيتها العطور التي تفرز الرّغبة
تزيّني
واسْتهويني .

وأقول باسمكَ :
دائماً على شَفَا الجنون
لكنني لا أُجنّ .

أجلسْ ، أيها الموت ، في مكانٍ آخر ولنتبادل وجهينا
أُسمّيك الجسدَ وأسأل
كيف أعيش مع جَسَدٍ أتّهمه
وأنا المتّهَمُ والشاهِدُ والحكَم؟
وأسميكَ جسدي
وأرى إليك   إليه يتفكّك ويتركّب
السّاعد فخذٌ
المعصم كاحِلٌ
اليد قَدمٌ
الكتف مِرْفقٌ
وما تبقّى غيرُ ما تبقّى

وأستسلمُ ، أنا الراسخ ،
كانهيارٍ ثلجيّ
عنقي تهبط في التّرقوة
وتهبط هذه في الصدر
ويهبط الصدر في ليل الرّدفين
والرّدفان في شمس الأحقاء
وتكون الأحقاء رصاصاً يرسب في أطراف الساقين وتَتَنوَّرُ بأعضائي
أعضائي .

وتقول باسمي :
أسميكَ عاشقاً
وجّهاً إلى الحيوان
وجهاً إلى النبات
وأصغي إلى هذيانك يطلعُ
في لهاث العناصر :

دال تاء

ـ بحسب حركاتكَ يجري أمري
والليل والنهار بريدي إليك

يتراكضان كمُهرين في سباق
كيف أقمع هوائجي
والحاجة إليكَ هتكتني؟

واو نون

ـ كيف أقمع هوائجي
والحاجة إليكِ هتكتني؟
تبكين؟
ـ لا تحرق النار موضعاً مَسَّهُ الدمع
لذلك أبكي
ينبت القرنفل في الدمع
لذلك أبكي
وأمس قرأت : «كلّ شهوة قسوة إلاّ
الجماع يُرقّقُ ويُصفّي»
لذلك أبكي .

سين ألف

ـ ادخلي ، كأنك نقبتِ الجحيم وخرجت منها
أو كأنك امرأة تشتري العطرَ بالخبز

أُحْصيك وأستقصيكِ
أُزمِنُ فيكِ وأكوكب حولك أعضائي
وكنت صادَفْتُ نفسي فيكِ
وحين تبعتكِ
قلتُ : النَّفْسُ يتبع بعضُها بعضاً .

لكن ،
لماذا أنا كثيرٌ بنفسي قليلٌ بكِ؟
لماذا ، كلما اقتربْتِ إليّ ، أشعر كأنّ عضواً يسقطُ مني؟
مع ذلك ، ادخلي
لايزال جسدي رطباً بذكركِ
وكيف أقمع هوائجي
والحاجة إليكِ هتكتني؟

وأقول ، باسمك ، لجسدها :
جسدكِ صوتي أسمعه
نظري أتشرد فيه جسدكِ رحيلي وكل خليّةٍ منطلَق
جسدكِ مرفأي وأضلِّل المراسي جسدك الصخر يستبقيني
الغبارُ يطير بي

جَسدُكِ هبائي
ويظلِّلني
جسدك فضاؤكِ وأنا وحُوشهُ المجنّحة
جسدكِ قوسُ قزحٍ وأنا المناخُ والتحوّل .

وأسأل ، باسمكَ :
أَصْحَرْتُ   لا مأوى
اسْتَأْسَنْتُ منْ يُطهّرني؟
من يعصمني من العبارةِ
تكدر ،
من الإشارة
تضمحلّ
وكيف يتحرّر القفص؟

وتقول ، باسمي :
أَبْدع لجسدك ما يناقضه
كُنِ الهباءةَ والحصاةَ في جسدٍ واحد
أكمل جسدَكَ بنفيه
ولتكن اللّغةُ شكل الجسد

وليكن الشعر إيقاعه .

اجلسْ ، أيها الموت في مكانٍ آخر ولنتبادل وجهينا
أقول باسمك وباسمي :
نُضلِّل الحياة وهي التي تقودنا
ماذا أفعل
وجسدي أوسع من الفضاء الذي يحتويه
أنا الباحث
وليس أمامي غير الموت؟

ونقول باسمها وباسمك وباسمي :
تجوهرتُ بكِ
وكنت أطمح إلى التبدّد
وفتحتك بجسدي لكن ،
بماذا أختمك؟
ومع أنني مَشُوبٌ بكِ
فأنا شيءٌ لا يستند إلى شيء
ليس مربوطاً
ولا ملتحماً

ولا حالاً

لكنني أسيلُ لا أقف

وجسدي رمَى إذ رمى

بقاب قوسين

وأنا الصَّحيحُ المريض   برزخُ الجنس

استوليتُ

غلبْتُ الكَمَّ والكيف

فُتُّ ما يُقال

مع ذلك ،

عييت من تصوّركِ على أنحاءَ ومراتب

وأعوذُ بأسمائنا من علم اليقين

(اليقينُ شَرَكُ الضمائر

والمعرفةُ

أن

تعلم   وتجهل)

هكذا أتحرّك في سلاسل جنوني وأنوّع الحلقات

هكذا أيّها الثابت

المتبدّل

المتصوّن

يا جسدي

وكذا

وكذا

وكذا

هكذا أسأل :

أنتَ صِراطي كيف أقطعك؟

أو

أسأل :

هل أنتَ حكايةٌ محرَّفةٌ ومكذوبةٌ عليّ؟

هكذا ،

أُنكر ما يفرّقني

وما يجمعني

وأقول باسمكَ :

أنا الماء يلهو مع الماء .

IV ـ سيمياء

1

سيري ، أيتها الحقول ، بخطواتٍ من القَشّ
اخلعْ قميصك أيها الجبل
الضّوء يعبر وتعبر حشراته
الأدغالُ تعبر
وتعبر خواصِرُ التلال
وأنا
مكسوّاً بالزمن ورماده
يرميني الشجر من نوافذه
يتلقّفني فضاء تسيِّجه أفخاذٌ غير مَرْئيّة
بين أمواجٍ من الثمر أبحث فيها عن بُرعمِ التيه
حيث ترفعني صارية اللّذة وتختلط الصخور بالأشرعة
حيث الجسد سِرْدابٌ والشّهوةُ قلعةٌ محاصرة
وأقول : سيكون فَضاؤنا وحشاً
أخضر
لكن ،
أيها الحبُّ المقبل ــ الجسد المقبل
أين أُسكنكَ
وماذا أستطيع أن أمنحكَ
غير ذاكرة الفراشات؟

أقواس :

أ . تخرج فراشةٌ تدخل فراشة والمسرح بهيئة الجسد
في الجسد وحلٌ
لوحله طيبة الورد
في الجسد ذلٌ
لذلِّه نكهة التّأله
هكذا بدأتُ من أظافر القدمين
يوم حككتُ بها جلدة الأرض
بين هواء دمشق وشجر قصّابين
ازّيّنَ النبات
فَكّتِ الأرض أزرارها
هطل ماءٌ لا
أخذتُ غصن زيتونٍ
ورسمت على التراب دَوْرَةَ أحشائي
وقفت السماء جانباً وابتدأ هديرٌ كأنه بدء التكوين
ازْدَوجَ كلّ شيء واشتعلت أعماقي هجرةً وتَقاسَمتْني
الأقاصي
تحت شجرة بشكل الذراعين
أُفقٍ باستدارة السرّة

ارتسمَتْ أوائل ممراتي
لم يكن للفجر غير قمصانٍ تثقبها قرون الماعز
وأخذ جسدي يفيضُ والطّرق لا تتسع
أخطو كمن يصل جمرةً بجمرة
هاويةً بهاوية
وفي ركبتيَّ تتكدَّس الجبال والسهول .

ب . تخرج فراشةٌ تدخل فراشة والمسرح بهيئة الشجر
كتبنا على جذوع الشجر لكنَّ الشجر لم يقرأ كتابتنا
رقدنا على العشب لكنَّ زَغَب العشب لم يأنس إلينا
وكان الوَلَهُ يهجم علينا بجمره وأيامنا قَشٌّ رطب
ونسأل
وتسقط أسئلتنا في جرارٍ تنكسر
ويبدو الأفق طفلاً أغمض إلى الأبد أهدابه
وفي لحظات الحنين والحسرة
نلهج بأحوالنا
نتمدّد على الأرض
ونحفر في جسدها سُرَّة صديقة . . .

جـ . تخرج فراشةٌ تدخل فراشة والمسرح بهيئة الفضاء
من أين لأحشائي هذه الوَسْوَسة؟

من أين لِقدميّ هذا السّمع؟
أنا الشاسعُ
وليس في الفضاء ما يملأ عينيّ
تَدحرجْ ، أيها الشبح ،
أيّنا الشراع أيّنا الريح؟
استمسكْ
استصرخِ المدّ المدّ المدّ
استسلمْ
كُن الغَرقَ وخذني . . .

د . تخرج فراشةٌ تدخل فراشة والمسرح بهيئة الطبيعة
أتحوّل إلى طبيعة ثانية
وتنزلق بين فخذيّ النباتات
كلُّ حجر حارسٌ يسهر معي
كل شجرةٍ مظلّةٌ تتشبّه بالجسد
(أدخل في أبعاد ترشح من شقوقها البخارات
حيث تُطْبَخُ الحجارة
تكون منها الأمواجُ المختومة
وفَلَكُ الرّياح والمصابيح
وتكون السيمياء والحكمة) .

رقعة من دفتر أخبار :

مرةً ،
بدأ الحبّ بقدمين
طوى الزّمنَ غلالةً وضعها تحت فخذيه
ومَدّ الفرحَ وسادة
كان الموت جذعاً يتطاول
والحزن يثقب الأغطية .

رقعة من تاريخ سري للموت :

لم يعد الفضاء إلا رقعةً تتبلّل بالقتل
وينسلها اليأس خيطاً خيطاً
لم يعد الهواء إلا نبضَ قلبٍ يتجه نحو الرماد
انكسر عليٌّ كضوء ينكسر
وبقيت كلماته تهذي وتطوف
وبقيَ هباؤه
يرسم انحناءةَ الشمس .

ـ «افتح قبرك في هباء كلماتك
واخلق لموتك جسداً» .
سمعَ
آمَنَ
ولم يرَ .

2

١٩٣٠ الشّمس قدم طفل
عرفت أقلَّ من امرأة
لأنني تزوجت بأكثرَ من امرأة
(ــ عرفتُ أقلَّ من رجلٍ
لأنني تزوجت بأكثرَ من رجل)
أَعْلنّا :
الزّواجُ غبارٌ
لكن ،
قد يتحوّل غبار الزواج إلى زهرةٍ من العشق .
١٩٣٣ نبتة تشعل قنديلاً
١٩٤٠ طفلٌ يُعِدّ الغيم ينتظره الحريق
١٩٥٠ تمطر في أنحاء أخرى
ستحظى بينابيع يأخذها غيرك .
الجسد أطول طريق إلى الجسد
هل اللمس للجسد وحده ، حقاً؟

١٩٧٣ تمطر في أنحاء أخرى
ستحظى بينابيع يأخذها غيرك .

١٩٧٥ سلاماً أيها الطفل

يركض النهر وراء مائه ولا يُمسك به

يبحث الغصن عن ظله ولا يراه .

سلاماً أيها الطفل

لا يقدر الجبل أن ينخفض

ما ذنبه؟

لا يقدر الورد أن يسقيكَ

ما حكمته؟

سلاماً أيها الحيوان

أنت وحدك الملاك الأبيض .

لأجل مائدة العين

يستريح الشّوفان فوق سواعدنا

يتنزّه القمح

نربط الزمن بأجنحة العصافير نسمع نبض الحقول

يجاور قلوبنا

ونكاد أن نلمس الدم .

إنه الفقر يمطر فوق الزيتون

إنها الحقول تتبرّك بثياب الملائكة

والبحر يبسط يديه لا يصل

والسماء تحمل الجرارَ لا تروي
وكنتُ أجريت أحلامي أنهاراً
وعلّقت كالصُّوَر أيامي
يَتَّحد الصَقيع والسُّمانَى
ويجلس الوَرْورُ على الدّخان
وكان جسدي غيوماً تتراكم وتنتشر
حول أشجارٍ لها شكل شراييني
وأجنحةٍ لها شكل قدميّ
وها خطواتي تذوي وتزهر
ألمح يوماً بغرّةٍ تسترسل
وقميصٍ يتمزق ،
يحلم أن يكون صياداً

ألمح يوماً يجلس على النهر
تجلس قربه صبيّةٌ تكتشف نهديها
ألمح يوماً يُجيِّشُ البروجَ
ويرفع رَايةَ الجَدْي .
والهواءُ هواء بفضل القرية
والبيت بيت بفضل الزيتون
انزعي غلالتكِ أيتها الأرض
الماء يعود مراهقاً من الشيخوخة

والنّبعُ يطير صوب العصفور .

ليس الفجْرَ، بل جرسٌ يتسلّق الفجر
قلتُ للوسادة
وانحنيتُ من نافذةٍ بعلوِّ الصفصاف
أحييك أيها الصباح الحامل وجه صنّين
أيها الوجه الأقلّ غرابة من وجه نينار
طموح صنّين يُرهق الكلام
لتكن شاعراً أو مجنوناً
ولكَ ذراعان وساقان لكي تنسى
ها أنت
ها أنا
أين إملاؤك لأكتب؟
أين صمتك لأمنحك جسدي؟
اسْمِيَ الخيطُ
ينزل من الشمس لا يعلق بك
أين وجهك لأصقل مرآتي؟
أين مرآتك لأرى أشباحي؟
أقصّ عليك تاريخاً بدأْته يمامةٌ
أحمل إليك سريراً

فَرشَةُ النّهارُ ولم ينمْ فيه الليل

صنّين ـ

سُمِّي هكذا بفضل الأيام

سماه الثلج يقرؤه الغيم كل يوم

ولا تسمعه المدينة .

صنّين ـ

سُمّي هكذا بفضل النسيان

اسألوا

أجزاءه الحزينة الباقية التي تتفكك كأجزائي

تُتابع سيرها في غيمةٍ

وتستريح في حصاة

اسألوا فصولَه ونباتاتِه

كلّ فصل جوقة

كل نبتة حنجرة

وأجلس معه وأهذي

يجلس الهذيان في عرشٍ طائر يحملني ويمضي

سلاماً ، أيتها العجينة الصّلبة يا أحلامي

حملتُ خواطر تحمل الأزمنة
علوتُ حتى لامَسْتُ نجمة
وقطفت مع أرواد نبتةً بحمرة الخمر

كان حولنا عشبٌ يجوع وحَصىً يعطش
وتمنّينا
لو تُلْغَمُ الشمس بالماء
وكان صنّين جرحاً يتدفق ويُملي .

رقعة من دفتر أخبار :

أ . عَمّا يرد بقوة الوقت

وقف الضوء كجذع الصفصاف
يرى إلى الريح تجرّ الأفق
إلى الأفق يتخبط يُفلت من فخّ أخضر
أَخَذَ يحوّل الأشياء إلى كلمات يَصْنع للكلمات شمالاً وشرقاً
غرباً وجنوباً
ويرجئ خطوط الاستواء
امتدّت عيناه سطوحاً وخرائط
يفصّل التّويجات
يلامس عنق الغصن وأسنان البرعم
يحتضن أحشاء الماء وخاصرة الوقت
وكانت أصابعه هي التي ترى

وكنت أرى إليه كيف يبدأ الموت منذ أن يولد
شعاعُه المتواصل هو نفسه موته المتواصل (الحب كالضوء ، موت
متواصل منذ ولادته)
وكانت أصابعي هي التي ترى

ب ـ عَمّا يفاجئ من الغيب

الشجرة أجمل غرفة لنوم العصفور
والغصن أجمل سرير
الحب يحتضن غائباً
يحمل موسيقى جسدٍ
يحمل القتل
تتخثّر الفصول
يكون للطفولة أن تموت وديعةً كبذرة القمح
للموت أن يهبَّ كنسيم بحري
يكون للبحر عينا صقرٍ يُحتضر
لا يقدر أن ينتهي لا يقدر أن يبدأ
يُطْعَنُ الصقر
وهو في رفيفه الأخير ليتوّج نفسه على الأوْج
دمهُ ينزف
ولا مُلْكَ له
الملكُ لنارٍ تهبط على أحشائه .

ج ـ عَمّا يجيء من جهة قصابين

لاحَقْتُ فراشةً
تطير في الاتّجاهات كلها

ولم تكن جاهلةً ولا ضالّةً

القمر حوذيٌّ يقود عربة الشهوة

الغيومُ قماشٌ
نرسم عليه أحلاماً
نرجو أن تنزل مع المطر

أحياناً يَتّسخ الضوء
كيف نغسل وطناً يتّسخ فيه حتّى الضوء؟

د ــ عما يرد بقوة الضوء

أيها الضوء ،
خُلقتَ إلهاً ويرفضك الظلام
ألهذا كنت العينَ الوحيدةَ التي خُلقت من أجل
أن تسكنها الظلمات؟
ألهذا كنتَ الخالقَ يلبس شكل الخليقة ،
والماءَ
يتزوّجُ
شكل الإناء؟

3

أمحو وجهي ـ أكتشف وجهي
الأشياء أقنعةٌ أخترقها
والعالم حولي أَسارِير.

ها هي قصّابين
تبدأ كما يبدأ النهر وتتّجه إلى فاتحة البحر
يختلط ماؤها بمائه
تخرجُ مع سمكةٍ
تطيرُ في الليل   تتندّى
تجلس مع سمكةٍ تقرأ
ولها قَرْنان يضيئان
تسافر مع سمكةٍ
ينبت بين كتفيها الزهر
وأحياناً ينبت الطحلب

ورأَتْ قصابين شجراً يطلع مع الشمس   يموت حين تغيب
ورأت قباباً تسير على الماء
كانت أرواد تلبس مُلاءَةَ الفَجْر

تخلط الجناح بالسنبلة
والأحصنةَ بالقَصب
اختبئي في عباءة الموج
واتركي حول قدميك مكاناً للأرض
جسدٌ يستأنس يستوحش في رقّةِ الهدب
شمسٌ تخرجُ من الحنجرة
أفقٌ يترك شفتيه على الأذن
جمعٌ بصيغة المفرد
هذه إشاراتكِ
هذه حروفي .

أَدخلُ في عتمة أغواري وأنتِ مصباحي
أَمنحُ يديَّ لطفلٍ يتعثر سمّيته الحنين
وأسير إلى جوار ظلّي
أحمل حطب الضّوء وأقول للزمن
أيها الرّمح استبسلْ
وجهي مجرّة الرمز
وجسدي عُرْجُونُ اللّغة
وها هي حياتي
قمقمٌ يتدافع في هَلَعِ المصادفات وهجمة الزبد

أمام المرآة ــ الماء   أنعكس :
جسدٌ آخر يتراءى
النّرجس كنيسة الموت
والموتُ قدّاسٌ بلا صوت
من الزرقة إلى البياض ينتقل الموج
من النورس إلى الطمي تهجم الشواطئ
تاج الماء ينكسر
والزبد يَسْتردّ أسلحته .

لكن ، أيها السيد الذي يحرس الموج ،
لن تقدر أن تنساني
وجهي شهوة الأفق
وصوتي الهسيسُ الذي يتبطّن الموج .
وها هو الموج
عنقٌ يتجه نحوي أنا الغيمة ــ القلادة
وليس للتراب ندوبٌ إلاّ خطواتي .

رقعة من دفتر أخبار :

حزنٌ يعبر أمامه لم يَره
ناداهُ
يرتعش ويلبس الرخام
مرآةٌ لحزنٍ رآه
لم يُنادِه
حزنٌ آخر
لكن لا جسدَ له
يَثِقُ بجسدِهِ لا بفكره .

رقعة ثانية :

الأرض حضورُه وهو غياب السماء
أَقْنَعَ كلماتِه أن تحتضن أحشاءَه
لم تحتضن شيئاً
ما قاله ليس منه
ما يحلم أن يقوله لا تتّسع له الكلمات
يريد أن ينكسر
لكن كيف ينكسر ولم يَحْظَ باللهب الذي يُغريه؟

وكيف يُغريهم بلهبه
وهم يتخطّفون رماده؟

رقعة ثالثة :

أسرع الطّينُ أسرعَ وتَحوّل إلى غبار
لا شيء لا شيء لا شيء
يلتصق بالخشب عموداً فقرياً لليله الرّخْو
ويحلم
كيف
تناثر
عضواً عضواً في شوارع استباحها
واعتقل أطرافها
ليطلق الحركة
طرطوس أرواد اللاذقية دمشق
صوته يعقرُ تاريخه
ووجهه الجَذْرُ والقَشّ
الحزنُ الذي يستأصل
والفرحُ الذي يؤصّل
لا شيء لا شيء لا شيء

وبين قصّابين ودمشق
تسقط السماء مطراً بحجم اللوز :

اصعدْ أيها التراب

جَسدُه سُلّمٌ
تبخّرْ أيها الماء
جسده مهرجان إسفنج
اصعدْ
واشهدْ للمطر كيف يضاجع الأرض
كلّ عشبة مسحت أهدابها وقامت
كلّ حصاة اغتسلت وتهيأت
والزهر دَمٌ يملأ الثقوب .

رقعة من شمس البهلول :

يبحث عن دَغلٍ يرفعه محرقةً
يطرح فيها أوائل نذوره وبشاراته
يقيم
لكل ما يشحّ
لكل ما ينطفئ
ولائمَ وأعراساً
ويدعو الحبّ

يسمع التعب يقول : أنا الصفحة الأخيرة
الصفحة الأولى
يسمع الموتَ يقول : أنا حِبْركَ الباقي

رقعة ثانية :

يَسْتجلي شرقاً يغسل الضوءَ ويعلن :
لستَ حيث أنتَ بل حيث لا أنتَ
لا في النوم بل في الأرق
أَنِمِ النومَ

أَرِّقِ الأرق
ما لستَ يُدَمِّر ما أنت
دمِّر ما أنتَ
لِتبني من أنتَ
وابدأْ :
كنِ النَّردَ
كن ضربة النَّرد .

فواصل :

أ. أُمثّل الجسدَ في سيفٍ
تسنّه اللذة
يضاجع الحزن .

ب . لكي أكونَ جسدي ،
أسمّي نفسي الهباء
لكي أعرف ، أنام
ولست في حاجةٍ إلى مكان
حاجتي إلى طريقٍ طريقٍ
تقدّم أيها الدخان
يا فرسي لعبور المسافات .

ج . أتكلم دون أن أتكلم
أسير دون أن أسير
أتغلغل بين الورقة وغصنها

الشيء والشيء
حين لا يعود يتميز
الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود
أصرخُ منتشياً
تَهدَّمْ ، أيّها الوضوح ، يا عدوّي الجميل .

د . . . . وسرتُ كأنّني الليل
ـ ما هذه الشموع التي تركض وراءك؟
ـ لعلها الشمس
لعلها الموت .

هـ . أعمالي باطلة
وأفعل دائماً كأنّني الحقُّ .

و . تخيلتَ أَنَّ لدوّار الشمس عينين وأنه يرى
قلتَ : أنا كذلك دوّارُ الشمس
خرجتَ من حدّ الحيوان إلى حد النبات
هجرتَ مملكة الدم إلى مملكة الشيء

استوت لديكَ الأشياء يا دوار الشّمس

المجد نملةٌ

العائلة كهف

التاريخ دُكّان توابل .

وانحزتَ إلى الشهوة

وجئتَ من جهة الجسد والطبيعة .

ـ إذن ، أسألنيَ الآن :

ماذا يملك الإنسان غيرَ موته؟

4

يمحو وجهه ـ يكتشف وجهه
لم تكن أمّه تعرف صنّين وهي التي قرأته
حجراً حجراً

اخرجْ ، أيها الطفل ، إلى الحجر
كلّ شيء يقودك إلى الحجر
الرماديْ الأبيض الأحمر الأسود الأصفر الأزرق
الخمري الجاديّ

يهيمُ ينطوي
يتكئ يظمأ
يتأمل يبحث مثلَك
وحين يلتصق بجذع شجرة أو بعشبة
يَتَنسَّك أو يَشْبق ،
يتصاعد منه بخار التنهدات
أو يتسلّل وينأى مثلَك

وحين يجد نفسه وحيداً لا يقدر أن يتحرك
يستدعي إليه الجهات الأربع

والعمق والعلوّ
ويقول لما حوله أن يترقرق سراباً أو ماءً
يُخيِّل لنفسه أنه يتقمّص النرجس
وأن ظلّه يعانده
وأنه يودّ أن يَتّحِد بظله مثلَك
وحين لا يقفز حوله عصفورٌ
ولا يسمَعُ همساً أو رِكْزاً
ولا يرى إشارة أو تلويحاً ،
يَتَجهّم ينقبضُ يأرق
تَضيقُ حنجرته
يتحفّزُ ليسافر ليضيع
في دُوارِ الكَدْحِ والمرارات مثلَك

وحين يرى ما حوله يتكلّم ويَصِرُّ بأسنانه
يحلم أن يتحوّلَ إلى فراشةٍ
ليكونَ له أن يَستبْشر
لأنّه صار في مثل هشاشتها
أكثرَ قابليّةً لأن ينسحق
ويهلكَ بغتة
عَفْواً

مثلها مثلَك

وحين يكونُ موحشاً
ليس أمامَه غير الشمس
خشبة هذا العالم ومسرحه ومسرحياته
والممثلين ، يَدخل في دورِه
الهزليّ
الفاجع
الماجن
يداهن يصانع
يَطعن يداري
يتحقّق يتوهم
يُظلم يضيء
مثلها مثلَك
وحين لا تمسك به يَدٌ
أو تنظر إليه عين ،
تنفجر في أعماقه الحرقة
يحنّ إلى الدخول في الرعب كريشة النسر
رعب الأعالي
مصاريع الفضاء

الأشباح

التي تتزيّا بقلانس تشبه

رؤوس العصافير مثلَك

الحجر مثلك

يمتزج بالغُبار والضّوء

يطرد الوجعَ وأطباق الدمع

يجعل النظر سيفاً أو رمحاً

حجرٌ يتلألأ يجذب

يقول للوجوه أن تُنَوِّر فتنوِّر

للجسد أن يشطح فيشطح

حجرٌ بخارٌ في النهار

غبارٌ ضوئي في الليل

نومٌ على العين

دوارٌ تحت الرأس

صديق الحُبلى

ويوم تَلدُ

يجلس بين ثدييها

حجرٌ يتدلّى من عنق شجرةٍ ليمتلئ ثدياها ويكثر ثمرُها
ينمو في صدر غزالةٍ لتتزوّج الريح
حجرٌ تزاويقُ
طلاسِمُ
الأسْود قدرةٌ وسلطان
الأصفر جسرٌ لكل شيء
الأغبر كحلٌ امرأةٍ على اسم رجل
رجلٍ على اسم امرأة

حجرٌ يفرز الشهوة
حجرٌ لا يغوص في الماء
حجرٌ يحارب النار
حجرٌ يلتفّ به الحزين
يتختّم   تزول أحزانه
حجر يتخلخل   يخرج منه فضاء
وتخرج الرياح
حجر يجلس تحت اللسان لكي لا يسكرَ الرأس
حجر منذورٌ لشهوة التيه مثلَك مثلَك

أَنذرُكَ أيها الطفل لشهوة التيه
لتيهِ الشهوة.

رقعة من شمس البهلول :

دخانٌ يتَنَكّس
يتحامل على الهواء
لا يقدر أن ينتهي لا يقدر أن يبدأ
البحر يرفض البحر
الصحراء تنفي الصحراء
وللشمس أجفانٌ من الشمع .

رقعة ثانية :
قلتَ مرة :
ذهبَ الحبُ بقي الجرح
قلتَ مرةً :
أيتها الخطيئة ـ البراءة
أسمّيك أسمائي أرسمك بوجهي
إذن :
افتحْ شبابيكَ العافية واسمعْ ضجيجَ الأرجل
ثمة هواجسُ يتكئ عليها المشرّد ويسير في الأزقّة
ثمّة نهودٌ شفاهٌ يتوضأ بها
والشمس إناؤه الذهبي

إذن :
اقرأْ فاتحة الأفق
مُدّ يديكَ وأَخْرِجْ ما يتراءى
ادخلْ إلى مَداركَ واجلس في عبادة الحال
أنت السائح
لا ملك لخطواتك إلا جسدك
وقلتَ مرة :
أنا الذبيح وليس من يخالطني
وقلتَ مرة :
لونيَ الثلجُ
وأسير متوّجاً بالشمس .

تعازيم :

أ . «نستدعيكَ

أيها القوي الذي حملته أمٌّ فقيرة

وولدته سراً من أبٍ مجهول

وضعته في سلّةٍ طرحتها في دجلة

لم تغرقها مياهه

أخذك التيار إلى بستانيٍّ

انتشلك

وربّاك كأنّك ابنه

أحبّتك عشتار

وأحببتَ الشعوب

نستدعيكَ :

الشعوب كلها في سلالٍ من القش

ولا ماء

بل نار . . .»

ب . «ـ مُتَّ؟

ـ موتي مخبوءٌ في المحيط

في المحيط جزيرة

في الجزيرة شجرة رمّان
في جذر الرّمانة صندوق
في الصندوق علبة بهيئة يمامَة
في العلبة كتاب
في الكتاب كلمة ـ
من يعرفها ويتفوّه بها
يعرف متى أموت
لكن ، هيهات
هيهات . . .»

ج . «ـ كانت الأرض دجاجةً تبيض الذهب
ذَبَح الدجاجة وأكلها»

د . «تقدّمْ ،
أَسرِعْ أيها الثور الأسود
اضربوا وجهه بالملح
غطّوا عينيه
واسألوه :
هل النفس في البدن أو البدن في النفس
أو
هل الشمس في الفضاء أو الفضاء في الشمس؟

5

لم تكن الأرض جرحاً
كانت جسداً
كيف يمكن السّفر بين الجرح والجسد ،
كيف تمكن الإقامة؟

أخذ الجرح يتحول إلى كلماتٍ
والجسد يصيرُ سؤالاً
. . وانكسرتْ عشبةٌ طلعت من ساقها فراشةٌ
طلعَ من رأسها برعمٌ بلون الشهوة
أضفتُ عنصراً لعنصر
مزجتُ الورقةَ بالجذع
الغصنَ بالطّين
وقلتُ : من هنا يَجيءُ المستقبل .

هكذا تنمو أشجارٌ تشبه البشر
ينمو بشرٌ يشبهون الغيم
وقلتُ : لي عرش صنّين
لصنّين سلطة الغيم

وأخذ يرنّ كالجرس
والشمس وراءه عنزة شاردة .

كانت الشمس تستدرجني ويغويني ماءٌ فيها
قلت أنزل بين الأغصان في موسيقى التّفاح والكرز
وجاء صوتٌ من جهة الكرز
ووفدت قمة صنين عاريةً
(صنّينُ جسدٌ يكسوه الغيم   تعرّيه الرّيح)

ضعوا خشبةً
ليتقدّم ذلك الواقف
جلستُ أنظر
قمت   مشيت حافياً تحت مطرٍ يضحكُ
والهواء قصبة تبكي
سمّيت الفضاء قدماً واتجهت نحو الطريق
«متى يبلغ العتبة» سمعت الريح تسأل الريح
«متى تُوضع الخشبة» سمعت الحجر يسأل الحجر
متى يخرج من اليوم
هذا الطالعُ كالعددِ وأسماؤه النار؟

لماذا تشحبُ ، أيها العالم ، في عينيه؟
هل وجهه يُحيِّرُ ويُعشي؟
انْصَدِعْ
تشقَّق ، أيها العالم ، واهْوِ
أنت الورقُ وهو الشرارة
والجنون يلغم أحشاءه

غَنّى ، كما غنّى أصدقاؤه الصعاليك بين مكة ودمشق :
يَدكَ ليست لك لتقبض عليه
عينكَ ليست لكَ لِتراه
يسكنُ مكاناً غير منظور :
الحريّة .
أنت تعتقلُ الوهم
وهو
هنيهةً هنيهةً
يعتقل الزمن
ويرميه في حوض كلماته .

هل الريح تهرم؟

هل يتخبّط الأفق في بيت عنكبوت؟

كان صنّين يسمع ويرى
لم يتكلم تكلّمتْ أشياؤه
حين سمعتُ سلامَ الحجر
هرولتُ وأخذتُ أرتطم بالحصى .
انحنيتُ ألملمه
سمعتُ غناءه في كفّي
سمعت حنين شجرة يرتعش جذعها أمامي كالحوض .

قالت الشجرة : اقتربْ قالت قدماي : تباطأ
ورأيت صنّين ينام في سحابة
وسرعان ما استيقظ
وبين عينيه أحلام تَشبّهتْ لِيَ أنها أحلامي .

أحلام :

أ ــ «ينبجسُ مني ماءٌ يسقي شجرة رمّانٍ تصيرُ امرأةً
تخرج إلى جانب البحر
معها غَزْلٌ
فيه عقدٌ تشبه السلّم
قالت كلماتٍ وصعدت
كانت تضع قدميها في الخيط
وتصعد
حتى غابت» .

د ــ «سرتُ والمطر رذاذٌ بيني وبينه وميضٌ يشبه الصوت
كنت ألبس الأسود
كانت السماء تلبس الرماد
باريس برج إيفل كنيسة السان جرمان سرنا
باريس وأنا
كما تسير الغيوم في السماء
انصهرنا باريس ، الغيوم وأنا
في عصفورٍ
جسده فضاءٌ
وجناحاه قوس قزح» .

و ــ «وجهٌ بكاها يبدأ سيرته الأولى (أهي قصّابين ، أم هي امرأة؟)
من المطر البريء يتجه نحو الماء الوحشي
مددت جسدي إلى نهرها
ارتجفت أسماكه
عرفت أن أحزاني خارج الضفاف
وليس لجلدي وسوسة .
حملتُ قفيري وعدت
نرداً يتدحرج على سلالم الوقت
عصفوراً يجمد في قبضة الريح
زهرةً تختنق بين الحجر والحجر
أعيريه قدميك أيتها الدرب
الطفل يتعثر
وبين قدميه تحرنُ أحصنةُ الشوك» .

ن ــ «ركضتُ في منعطفٍ
خَططتُ بيدي خطاً جلستُ فيه أتمتم كلماتٍ
تعلّمتها في طفولتي
غَشِيَتْني سحاباتٌ سود
حجبت عنّي ما حولي
سمعت فيها أصواتاً

رأيت عظاماً تتناثر وتبكي
وسمعت شجرة تقول : هذه ليلة الوسوسة» .

ي ـ «بئرٌ   أقترب لأشرب
طلعت امرأةٌ قالت بلهجة آمرة : تزوّجْني
تزوجتها ، وكانت . . .
بعد هنيهة ، قالت :
سأعود حيث تركت نفسي» .

س ـ «وقفت يدٌ على رأسي تحمل فأساً
أخذت تهدمني كأنني جدار
ثم جاءت يدٌ بنتني عضواً عضواً
وسمعت صوتاً : أنت الآن لا ينحجب شيء عنك
وخُيِّل إليّ
أنني أدحرج الظلمة بأصابعي
أراعي الشفق وأراعي جناحيّ
أبقى أياماً في حال الفناء
يغمرني التراب
وينبت عليّ العشب» .

أ/أ ــ «جلست شمسي التي هي أيضاً شمس قاسيون
تقرأ الشعر قرب ضفة بردى
كدَّرت عليها الضفادع بأصواتهن
قالت : إما أن تَرْحلن
وإما أن أرحل
في الصباح لم
تبق ضفدعة
في النهر» .

د/د ــ «ليلاً
تخرج أمي إلى الهواء
تدعو القمر أو ما يشبه القمر
وتنام معه في فراشٍ واحد» .
أحلمُ
كلمة تلفظني وألفظها
ويسكن كلٌّ مِنّا في طَرف
أحلم
عادةً في أصابعي
قشعريرةٌ في قدميَّ
أحلم ــ
أنا الصخر يتدفق منه ماءٌ يقول

أبكي من الفرح
أبكي من الحزن
أحلم ـ
أشطر الكونَ
أراه جانبياً وأستريح
لكنني لهبٌ وليس لي زوايا
أحلم ـ
لماذا أحلم دائماً أن أدخل في غير الممكن؟
ألأنَّ دمي شبيهٌ بالحلم ، أم لأنّيَ الموت؟

رقعة من تاريخ سري للموت :

فَقَدَ المكان والأثر
يكاد أن يفقد جسده
هو ، الآن ، رقيمٌ تنتقش عليه طلاسم
كدبيب النمل :
وأنتِ أيضاً ترفضينه أيتها اللغة؟

رقعة من شمس البهلول :

ليس الرأس في الرأس بل في السرّة
غالباً يكون بين الساقين
أحياناً يذهب الشتاء ويبقى الصقيع
يجيء الربيع ولا يجيء الزهر
أحياناً يكون أيلول الخريف أيار الصيف
من الهباء يرتفع جسر الشمس
من المطر تجيء جذور الوحل .

رقعة ثانية :

أعطيتَ لوجهك الصمت
لقدميك الكلام
لذلك اصطدمتَ بالجدران
واصطادَك فخٌّ
هيهات أن تُفلت منه ، هيهات . . .

رقعة ثالثة :

يلحق بالفضاء

يعيش عيشة الغيم
لأيامه رائحةٌ لا يعرفها من ملائكة الجسد غيرُ الطبع .

رقعة رابعة :
لأنه يقف مع الجذوة وهي تتلاشى
تسكنه نشوة الغابة
لأنه يستسلم إلى ما يراه
يجد نفسه دائماً خارج أسواره
يلبس حُرّية التّرابِ ويختار أعشابه
لأنه يعرف كيف يعرّي الشّعاعُ جسدَ الوردة
يستطيع أن يكسوها
لأنّ جسده يوقظه
يتخذ الموت سريراً ويتوسّد الليل
لأنه يعيش مهجوراً
يعرف أن يتسيَّج بالضوء
ويُقنع الريح أن تكون هندسته وأرقامه
لأنه يُدهِشُ
ينتظر من يقتله مشدوهاً به
لأنه ينجح دائماً
يفشل دائماً

منذورٌ
لكي لا يكون إلا طيفاً
منذورٌ
لكي يستبق ويُقال :
خطواته ليست له .

رقعة خامسة :
ظَنٌّ أن الدائرة اكتملت
أنَّ لهمومه قطباً آخر
لماذا تجيء بعده أيها الحزن؟
يعتذر إليكِ يا أبجدية
ويقول لا نعم لا
ويرتمي
يبسط راحة يده
يجلوها مرآةً يحدّق فيها
يسأله نَفَسُهُ :
من أنت أيها السيد؟
من يقول لأدونيس من هو؟

رقعة من تاريخ سري للموت :

يسأل   لا جواب ، فليكسر مرآة نرسيس
مرآة نرسيس ظِلٌّ   كيف يكسر الظل؟
لكن ، حين سأل
عرف أنَّ الإشْكال أكثر إبانةً من الإبانة
عرف أنه مكدودٌ بالفتنة مشبوبٌ لها
عرف طسم
عرف أنه المنادَى وأنه ينصرف
عرف أنه عادة ثانية وطبيعة خامسة وزمان رابع

لهذا
ولأشياءَ يرجئ ذكرها
وصفَ نفسه أنه الشّرق

لهذا
ولأشياء نسيها
سكنَ في لذة الخطيئة
وأخذَ ينشر علم الشهوة

لهذا
ولأشياء لا يذكرها
نزح إلى الظنّ
ولابسَ الحيرة .

6

من الرغبة والقصد
ركّبْتُ ماهِيّتي
مستقلاً ولي مُعين
تَامّاً وبي نقص
طالِعاً وبي غروب
منظوماً وكلّيَ انتثار
مقبولاً وما من أحدٍ إلا ويرفضني
قريباً ولا علامة لي
من الرغبة والقصد
ركّبْتُ ماهيتي
بعضي كلّي
ظلامي نوري
مهجوراً لا أستوحش
موصولاً لا أستأنس
آمِناً ولا طمأنينة لي
مَلِكاً مُلْكِي اليأس .
من الرغبة والقصد
ركّبْتُ ماهيّتي
يقيناً وظنّاً في صحنٍ واحد

تصريحاً ، وشهادتي الرّمز
وقلت لعباداتي أن تكون بحثاً
وأن تكون جسمانية
وأن أُخْزَنَ فيها
حيث يكون مُنْقَلبي
وأبلغ أقْصاي

أكتب الأمور التي هي من جِنْس ما لا يُكتب
والتي ليست من جهة العادة
ولا من جهة ما يذكر
ولا تكون أفكار
بل شغف
ولا تكون حاجات
بل هواجس ورغبات
حيث يكون من أسمائي
ما هو مُظْهَر
وما هو مُضمَر
وما هو مُشْتَقٌ لا يأخذهُ الحصر

حم ، آلم
حيث أفرغ قلبي من أخبار الغير
أمحو الحدود
أُقيم في المطالع
أغيب كثيراً أحضر قليلاً
لكي أحضر ولا أغيب
وتكون أشيائي مرموزةً
ولست أنا من ينطق بها
بل
حم ، آلم
ولست أنا من يكتب

لا أكتب أَهْذي بحالي وشَأْني
أقولُ ما يغلب عليَّ
وما يجذبني إليه جسدي

لا أكتب
أُعلن تأويلاً لجسدي
وأغرق في خلافٍ معه
أو سوءِ تفاهمٍ

وأُعلن شراييني أعراضاً للكتابة

لا أكتب
لماذا كلّما أوضحتُ ازددتُ غموضاً؟
لا أكتب
أنا المرضُ والكتابة سريري
لا أكتب
أبتكرُ المباهجَ وأشياءَ اللذة
أقذف بأهدابي إلى الأمام
وأنسى ذكرياتي
لا خير لا شرّ
لا شيء غير هذه الحركات الصعبة السهلة
البطيئة المسرعة
الحركات التي تشعّ من أعضائي
طينة واحدة كيفما شاءت
الخير شرٌ بلونٍ أبيض
الشر خيرٌ بلون أسود
ولكل كلمةٍ جزْنٌ
فيه نَسْتَحِمّ ونعيّد
وأنسى وأصحّح :
أُنسُوا تَصِحّوا

لا أكتب

أتحد بقشرة النهار

لأكون الصورة والشكل

لمعنىً

هو الموت ، حقاً

لا أكتب

أتغيّر

أغيّر ما يغيّرني

غموضاً ، حيث الغموض أن تحيا

وضوحاً ، حيث الوضوح أن تموت

لا أكتب

أستسلم كالطبيعة لِلخَفَرِ

أختبئ وراءه

وَشْيَ تردّدٍ

رَقْشَ احتمالٍ أو شَكّ

أَستسلم لِلبَشرةِ

الشكلِ

الصوتِ

أستسلم
وأرجئ المعنى

لا أكتب
أتناسل في غبطةٍ جديدة
هي غبطة أن أعرفَ حين لا أعرف

لا أكتب
أختبركَ أيها الجسد
الاحتمال، الظلّ
الظّاهر، ما يلوحُ، الأرجح
الهيئةُ
المسطّح عُمْقِياً
أيها الجسد ــ الماءُ
تنزل في مجرايَ تستقرّ
تصعد إلى محيطي تَرْسبُ
أَصلُ إلى الحقّ فيك
أتحقّق أن الجسد هو أيضاً حيث اللاّ جسد

لا أكتب

أَختبرك أيها الجسد

أعيد ألحّ أكرّر

أزن أحوالي بأنواع الكم والكيف

تحيلني إليك

أنت مَرّةً جمود أجزائي

أنت مَرّةً غليانُ أجزائي

هذيانٌ يقول : الخيرُ كله في مجرّد الحياة

هذيانٌ يسأل :

متى صَحَّ اللاّجَسدُ لكي أعوّل عليه؟

فشلتُ في نسبتي إلى الألف

متى تنتهي نسبتي إلى الياء؟

لا أكتب

حجبتَني أيها الجسد بي

عجّبتني منّي

وكلما ازددت يقيناً أنّ جسدي آفة جسدي

تطيّبتُ بهوائي

أتلهّفُ عليّ بي

أرجع إليّ منّي

لا أكتب

قلبي يلتوي عليّ

أجمع بينه وبين شفتيّ وعينيّ

أستغيث

وأُهَيْنِمُ أحشائي

وأعرف أنني لا أعلم

لكن ، من أين أتعلم؟

وأنني أعلم

لكن ، كيف أتكلم؟

وأنني لا أتكلم

لكن ، لِمَ وكيف أستسلم؟

لا أكتب

أتشوقُ إلى ما لست منه

أنتسب إلى ما ينفيني

أعلن الخيبة راحةً وأقول : اليأس أحرى

وكلُّ ما تبقّى خَزَفٌ

والخزَفُ شاهدي

يشهدُ فيّ

ويشهدُ بي

ويشهد عليّ

لا أكتب
أعاند نفسي كأنني عدوّي
وأنتظر فاجئة الغيب
مثلك ، أيها العصر ــ الجسد
الجسد ــ العصر
أتناثر
أجدُ فيك ما أجده فيّ
بالأ مَرْصُوصاً
وسراً أكثر وضوحاً من العلانية
مثلك لا الإشارة تَصدقُ
لا العبارة تَتحقّق
وكلّ مستقيمٍ معوجّ

لا أكتب
أنا الفأس أحفر أنحائي
أنا الأرض ــ مكتوبةً
أعرف ما أنتم فيه

ولا تعرفون ما أنا فيه
وكلّ شيء يحول بيني وبيني
بيني وبين . . .

وزَمَمْتُ نفسي
وصرت أحصنَ
حصنٍ
بيني وبين . . .

لا أكتب
أنا الخَطَرُ
بحرٌ لا أتبع لا أقود
وأضلِّل حتى نفسي

لا أكتب
أنا حَطبك الأخضر، أيها الجنون
اقذفني في قعر الهاوية واستبْقني
حيث لا يقين
لا شيء

حيث يَنْقَرِض ما كنت
يَنْدرس ما أنا
حيث اليباس في القعر   النبع في القعر
حيث نتلابس و/ أو نَتنَاهَب
أنا حرفُكَ الأول
أنت كلامي الأقصى
وأعود من الهاوية
قميصاً آخر
أرتّب أيامي بتخطيطٍ آخر
لأشياء الشعر

لا أكتب
لماذا
كلما
أوضحت
ازددت
غموضاً؟

7

أمحو وجهي ـ أكتشف وجهي
أيّتها الأبجدية البائسة
ماذا أستطيع بعد أن أحمّلك
وأية غابة أزرعُ بكِ؟

أتجرجر وراءكِ
أنا الجذرَ الوحشي

بين قدمي آسيا
حيث تعبر أفراسٌ لها أردافُ النساء
وكواكب تقطر البخور والتوابل
حيث السماء تمطر الجثث والآلهة

وأنتِ ، أيتها الأشلاء الباقية من أحلامنا
تحوّمي حول صبواتِنا
أجسادنا تُتوء الطوفان
وليس في أنقاضنا غير المحيطات
والآن أول البحر
أنا الصارية ولا شيء يعلوني

والآن أول الأرض .

(بيروت 1973-1975)

أحلم وأطيع آية الشمس

1

أحلمُ وأُطيع آية الشّمس آتِياً في سديم الإشارات ، ـــ

من أين لتلك الهَرَمِ
أن يحملَ القمر على
كتفيه؟
ولمَ يجلسُ خان الخليليّ
علَى مقعدٍ واحدٍ
معَ الحُلم؟
وما لِسُقوف الخشَب
في شَارع الجَماليّة وشارع
الدّرب الأحمر ،
يكادُ أن يغْلبَها النّعاس؟

حدائقُ النّحاس
شمسٌ تتدلّى
ثَدْياً للرّغبة وثَدْياً للحزْن
فيضٌ ينزلُ
مِن دفاتر إمْلاءٍ
مَلأى بِبَشَرٍ يكتبه جنونُ الأرجُل
في نسْيانٍ أكثر بَهاءً مِنَ التذكّر ،

وَفيما كنتُ أتّكِئُ على أنْفاس المُشاةِ وجلابيبهم ،
كنتُ أعـانِقُ الظّاهرَ لِكَي أُجـاورَ الخـفيّ ، وأسْـتـسلمُ للواقع لكَيْ يأخـذَني التخَيّل في انْهيارٍ جوفيٍّ في اضْطرابٍ تَلَفٍ وتدْميرٍ ومنَ النّفـايات وصناديقِها مِن الواحِ الألـمنيُوم وأدَواتِ المعْدن مِنَ البضَائع وناقِليهَا كانت تَعلُو هَمْهَمةٌ تَنْحبِكُ نسِيجاً يطوفُ أو يضطجعُ فِي أَسِرّةٍ

يحملُها الهواء

رأيتُ الموت شاباً ،
وأصغيتُ إلى أصواتٍ
تكرز : الفكر أن تحلم ،
والحياةُ أرْغَنٌ من الغبار ، ـــ

خُطواتي تعزفُ علَى أُرْغنِ الغُبار ، والخيُولُ التي تُرابِطُ في مخيِّلتي تنطلقُ في تيهٍ أخْضَر ، ـــ أكشُفْ عنْ مَسرحِكَ ، أيّها الواقعُ ، واصْنعْني كبَحْرٍ يصنعُ أمواجَه /

المكانُ ليلة القَدْر ، ـــ
أسافِلُ مثقلةٌ بالأعالي
رُكَبٌ تسْجدُ لكي تلامِسَ السماء
والوقتُ زغَبٌ في جناحِ المكان وغُنَّةُ انْشراحٍ
في حُنجرتِه ،

أُتركْ لإيزيسَ أن تفتحَ قميصَك ، أيّها الوقْت
أُتركْ لأصابِعها أن ترتقَ هواءك الذي تَتَفَتّقُ أطرافُه ، وأَدْخِلْني في طقُوسِك ،
نحْنُ شَبِيهَان في الإثْمِ ، ـــ
الشَّهوةُ محيطٌ والجسَدُ أكثرُ مِمّا يُطِيقُ الكلام ،
وهَا هُو الفضَاءُ سِحرٌ أبيض ـــ

يَكفي ، لكَيْ تتآخى مع الدّهْر ،
أن تجْلسَ علَى ضفّةِ النيل .

رَا ، أنت الآنَ غيرُكَ وبقدميَّ تمْشي
رَا ، حَقّاً المنيّةُ هي العجوزُ والحياةُ أبديّاً عذْرَاء ،
والسّلامُ لِهلْيوبُوليسَ الكتابِ الجامعِ الجَامعةِ الأمّ .

2

دُروبٌ تنْحدرُ من أعالي التّاريخ تربطُ خوفُو بالمُعزّ ، وأَسمعُ كلاماً يجيءُ
منْ أبي الهَوْلِ : أَنْصِتْ في الجَسدِ الواحدِ إلى تشاؤُمِ الرّأس
وتَفاؤُل القلب ،
وَامْضِ حيثُ الموتُ بَخُورٌ يعطِّر الحَياة .

إيزيسُ ، أتبعُ شعاعَكِ ، —
أنْخرِطُ في سِلْكِ ابْنِ عربيٍّ لأُتْقِنَ التّسْمية
وأسمّيكِ الأسماءَ كلَّها ،

النّيلُ يلقّح لغتي ، وأنا اليوم
لوتّسٌ وغداً بَرْدِيٌ . ولسْتُ أحَيي
الرّايةَ والحكاية ، بل الثّديَ
والسُّرّةَ ، وأُحَيّي اللّقاح ، —
رَا ، البَرْديُّ شاهدٌ أخضر :
اللّغة لإيزيسَ والحروفُ لقدْمُوس .

وَأقولُ : البيتُ
الذي نسكنُه معكِ فكرةٌ لا حجَر ، وأقولُ : بِاسْمكِ لا عُمرَ لنا وبِاسْمكِ
نلبَسُ قميصَ الهواء .

أَيّها النّيل الشّيخُ النّيلُ الطّفل ، مثلكَ أجمعُ إليّ أقْطاري مثلكَ أتّخِذُ من إيزيسَ والمتوسّطِ حَوْضاً لطَبيعتي ، مُلْقياً رأسي في أحضانِ السرّ ، ـ
رَا ، الشّمسُ ذاكرتُنا ، وجذْرُ الأسْرار لايزالُ يتأصّلُ وينمُو
رَا ، الكلمةُ بيْن يديكَ سفرٌ والوردةُ وطَن
رَا ، الزّمنُ الوراءُ ووجْهكَ الأمامُ وكلّ إيابٍ ذِهَاب .

3

لَنْ أقولَ توقّفْ لِلهَرمِ الذي يَتبعني إلَى بَاب زَويلة ، ـ
لمَاذا يَتمثّلُ لي صبيّاً ألْثغَ يحملُ
باقةً منَ البنفْسجِ؟
ولمَاذا يسْبَحُ مثلي في الغيْب؟
لِيجلسْ إلَى جَانبي في المقْهى ، ولْيتكلّمْ ، ـ

النّيل ، ـ

في جَسدِ هذَا النّوتيّ بستانُ وَرْدٍ تُسيّجه التنهّدَات
وذلكَ الفَنارُ حلمٌ يشتعلُ في أَرْدافِ امْرأة حُبْلى ،
وَظنّي أنّ الخبزَ ، ممزوجاً بالتّعب ، أجملُ قارَبٍ في هذَا الموْج
ومَا هذا الماءُ الذي ينبذُ أوفْيليا ويعشَقُ هَامْلت؟

هائمةً
تَتموّجُ
الحَيْرَةُ
في أحْوالِه .

ميدَان التحْرير 1 ،ـ

شَبَحٌ يدير طاحونَ مُلْكهِ بجَدولٍ ينبعُ منْ عيونِ النّساء
وللشّمس بَشَرةُ عنكَبوت .

القَرافة ،ـ

لا الموتُ ، بل هُوَ الجسَدُ يتَمَسْرحُ بين العتَبةِ والشّاهِدةِ ، وثَمّة أشخاصٌ يتجمْهَرون ، كلٌّ يحمِلُ نَعشاً يناديه يا سَريري .
وكَانت الشّمسُ تُترجمُ نارَها ، والطّبيعةُ تُعرّي ثَدْيَيْها
عِصيانٌ يَحْتشدُ في أعضَائي لا أعرفُ كيف أُعالِجه ،ـ
اهْبطي يا مَلائكَة .

بَيْن القصْرَين ،ـ

لنْ يكُون القَمرُ ، هذه المرّة ، الوليَّ علَى اللّيل .

جَامع السُّلْطان حسَن ،ـ
الحَجرُ يرْوي إعجَازه
إيقاعاً تتخاصَمُ فيه اللّحظات ،
نَقْشاً يدَجّن الشّهُب

مِن الأسْمال
يُنْسَجُ بُرْدُ التّاريخ

أقواساً تجمع المَلذّات
في أحجارِ قصَائد ،
والخَطّ يفهرِسُ النّظر .

ميْدَانُ الحسَيْن ، ــ

مِنَ الحكْمةِ أن تَظَلّ غَريباً
لكيْ تدخلَ تحْت قبّة المعْنَى ،
هكَذا تلبسُ المصَادفةَ ،
وتتأصّلُ في ضَرْبة النّرد .

من الثّقوب والحُفر ،
تخرج أشياء لا هوية لها
تكرزُ بالعَرْش .

القلعة ، ــ

بَشَرٌ يكبرونَ تحت النّعال طمَعاً بجنّةٍ مَا ،
بشَرٌ يلْبِسون السّلاسِلَ احتفاءً بالمستقبل .

شَارع المُعزّ ، ــ

تخرجُ عربَاتٌ وأحصنةٌ ، سيوفٌ وتيجانٌ تتدلّى على الجُدران ، أو تتحوّل إلَى نوافِذ ،
عِمَاراتٌ تنقلبُ إلى سُرادِقَات لِلجذْب والنّبْذ ،

أنينٌ يحفرُه الصَّمت في جسَدِ الفضَاء
المـهـمـازُ حـاكِمٌ ، الحـاكِمُ كـرسيٌّ ، والكـرسيّ مقـبـرةٌ ـ ولن يُدهشَكَ هذا التحوّل إن كنتَ تعرفُ عتَمات التّاريخ .

قبّة قلاَوُون ، ـ

التّاريخُ حزمةٌ من القَشّ
وثَمّة أنفاسٌ تحَوّم حولَ شجرةِ العمْر كَمثلِ أغْصانٍ عَاريةٍ لا تقدرُ أن تحتفلَ إلاّ بطائر اللّيل .

ميدان التحرير 2 ، ـ
خُطواتٌ تتوالَدُ من هَذيانِ الحكْمة ،
قلوبٌ تنبضُ كَملايين الأجنحَة في غَابةٍ بلاَ تُخوم .

الأهْرام ، ـ

وَفْدُ عرّافين وفَلَكيّين يتقدّمهُم فيثَاغُورَس في ضيافةِ أبي الهَوْل
نجومٌ تخْلعُ سَراويلَها لكَي تسْتلقيَ بين ذِراعيْ أخناتُون
جنودٌ يعصونَ القيصَر ويمجّدون كليوباطْره ، ـ
لكنْ ، ماهَذا الحَشدُ الذي يقتل طه حُسين وعليّ عبْد الرّازق؟

ولماذا يشيخُ كلّ شيء والجديدُ الكرسيّ والمَائدَة؟

را ، إليكَ اعترَافي : السّماءُ لِلشُّرَطيّ .

هَل ستذْكُرني بعْد أيّها الحَاضِر؟ إذنْ ، لكَ أن تقُولَ : عاشَ خاتماً وبيتُه الأفق .

الأزهَر ، ـ

أَعشقُ هذا اللّطف ـ الهواءَ الذي يهبُّ من شُرفاتِ الحاكم ،

ولنْ أسألَ : هَل كَان يحْكمُ بأمرِ نفسِه ، أمْ كانَت روحُ الله ترَفرفُ علَى جبينه؟

بَاب زَويلة ، ـ

قَليلاً ويأخذُ رأْسكَ السّيفُ الصّديقُ ،

يكْفي أن تنْظرَ إلى الرّأس كمَا تنظرُ إلى ثَمرة .

تاريخٌ تحفظهُ ذاكرةُ الهواء

وتكْتبه أقلامٌ لا تَاريخَ لها

في إقليمٍ يحْرسُه الغيَاب .

كَافُور ، ـ

المَعِدةُ في الرأْس والكتِفُ تحْت الخاصِرَة ،

النّهار والليلُ يغيبان ويحْضران لا بِإذْنٍ منَ الطّبيعةِ ، بلْ بإذْنٍ منَ الطّبع ،

وأُراقبُ شاعِراً يموتُ في جَسدِي ، وتعْرِفُون مَنْ هُو .

فَجْأةً مدينةُ المَوْتى ، ـ

أسْراب
حَمام
تَسْتحم
في مَاء
الموْتِ

الحياةُ والموتُ صديقان يَلعبانِ النَّرد ،
وَمَثْنَى مَثْنَى ، تسْقطُ النّجوم شاحبةً حولَ قبُور العُشّاق
الموتُ ياقَةٌ وكُمّ ، ودغدغَةٌ تحت الإبْط . تماثيلُ تنهضُ كلَّ
ليلة تَتجوَّلُ اخْتِفاءً بموْتها الحيِّ . موتٌ / شَهيقٌ بينَ الحياة
والحَياة . وتلْكَ القبّعاتُ التي تَحْجبُ وتُخْفي والتي لم يَرَها
إنسانٌ بعد ، رأيتُها بأمّ عيْني في مَدينة الموْتى لكنّ شهرَزادَ
نفسَها لم تُصدِّق . أحياءُ موتى ، أحياء ، ــ أحياءً بالموت .
مهلاً في أيّة خليّةٍ تتحرّك الآن؟

قَمَرٌ
يُوصْوِصُ
مِن وراء
شَاهدةِ امْرأة

مـدينةُ المـوتى ، ــ ابتكِرْ أجنحـةً لا لِكي تطيـرَ ، بل لكي
تمسحَ هباءَ
السّمَاوات .
هكَذا انسلّتْ منْ لعنةِ الرأسِ إلَى نِعْمة القلْب ،

أُصْغي إلَى نزيفٍ يتدفّق منْ غيابٍ كَان قد سَقانيَ إكْسيرَه . أُصْغي إلَى مسَاكِنَ تَكْتحلُ كلَّ فَجْرٍ بشَرابِ الوَرْد ، ولا فَرْقَ فيها بين حيٍّ وميْتٍ إلاّ بالوقت . أضَريحٌ هذا أَمْ بيت؟ ولِمَ القبرُ أكثرُ أبّهةً منَ المنْزل؟ ومَا الفَرقُ بين الجسَدِ والظّلّ ، بيْن العتَبةِ والشّاهِدة؟ وما هَذه السّماءُ المَرْضُوضَة؟

مَوْتٌ يَعْرَى ، يجوعُ ، يَتسوَّل . وله عذابُه وأَوجاعُه . ولَه أن يُنزِّهَ يدَيه في رقْعةِ اللّعب . ولَه أن يَرْعى الحَياةَ ويسهرَ عليْها . وربّما وَشْوشَ ، ــ

ليسَت الحياةُ في الجسَد ، بلْ في الحجَر ، وليْس الحجَر إلاّ حِممَ بركانٍ اسْمهُ النّائمُون تحْت التّرابِ . وكلّ حيٍّ مبطّنٌ بمَيْت ، وكلّ ميّتٍ لِباسٌ لِحيّ . يا لَلْموتِ ـ الخُنْثَى / يَالمَدينةِ الموْتى ، ـ أقربُ جَنّةٍ لأقربِ طريقٍ نحْو أَقْربِ جَحِيم .

كيف أُوحّدُ بيْن طَبقاتِ تاريخ يَجْرِي من سُرّةِ إيزيسَ إلَى سَريرِ شجرة الدّر؟ هلْ يَكفي ماءُ النّيل لِكي أَصْنَع هذه العجينة؟ هل أَحتاجُ إلى مِرْهَم نَخْليّ يلائم فُتوقَ الطّبع؟ هل يكْفي أن أتركَ القمرَ يَسْتولي على طِباعي؟ وهلْ عليّ أن أقولَ لِلْحِبْر : ثُرْ أيُّها البخارُ وتَوِّجْ رأسَ التّاريخ .

4

«جُلوسُهم علَى التّراب» / «أميرُهم كَواحدٍ منهم» ـ أَفْسِحْ لِعمْروٍ يا مُقَوقس . ابْتهجي ، إيزيس ، بالتحوّل . مَمْفيسُ والفسطاط بيتٌ واحد ، والنّيل أخٌ لِزَمْزم . وأنتِ ، يا شجَرة الجُمّيز ، شَجرةَ العَذْراء ، انْحنِي مِنْ جديدٍ فوق النّبع وكوني الغِطاءَ لِطفلٍ يَستَحمّ ، ـ

الألوانُ ثِيابٌ تتجدّد ، والكائنُ هُوَ هُو .

لكن ، ما هذا اللّيلُ الذي تُقْتَلُ فيه النّجومُ . ومَا لِلّوتَسِ يكَاد أن يذبلَ فِي سَرير إيزيس . أهِي ثَمَرٌ لا ينضجُ هذه الإقامةُ عَلى الأرض؟

وَلِلهواء الذي نَتنشّقه طعمٌ ليسَ في التّرابِ ، وليسَ في المَاء والمِلْح . كأنَّ الحَياةَ مائلةٌ والضّوءَ يعتزلُ صَديقَه الفجْر .

وتلك هيَ نِعْمتي ـ أنّني أُعاشِر الكَارثةَ وأنَّ لِلتّاريخ بيوضاً حائِرةً تَخْتبئُ بين أوْراقي . الذرّة تبْتكرُ الحاسَّةَ والأدمغةَ والمقابرَ ، وأنا كمَنْ يعيشُ في عَصْرٍ منَ الهشِيم ، وفي أُذنيهِ هَديرُ الحَجرِ وعصْرِه ، ـ

الآخرةُ متاعٌ للدنيا ، والإنسانُ دودٌ على عُود .

كلاّ ، لستَ أيّهَا الوجهُ إلاّ قناعاً ، ـ

هَلْ يجري نَهْرُ التّاريخ مُعاكِساً نَهَر الأيام؟ هَلْ لِلنّهار
هُوَ الآخر باطنٌ وظاهِرٌ؟ ولمَاذا القَصيرُ في الذّهن طويلٌ في
الجَسدِ ، والقصيرُ في الجسَدِ طويلٌ في الذّهْن؟ ألهذَا
سَمَّيتَ الشّيخَ ، أيّها الزّمَنُ ، وأنتَ في المهْد؟

إذْ أفهمُ هَذه التحَوّلاتِ وأسمعُ محالَها ، أتَشغِلُ بِشَمِّ الحياةِ ورَشْفِهَا ،

بِاحْتضانِهَا وتَقْبيلِ قدميْهَا . أُفْصحُ عَمّا أُزَاوِجُ بينَه وبيْنَ
دَمي وعَمّا يلْتبسُ بأجزائي . أتعلّم حلاوةَ الدّبيب وغزلَ العقْل
وعِزّ المُجَاهرة . أنبذُ أسْفاراً ضَجِرَ الكَلامُ الذي يسْكنُ فيهَا ،
وآخذَ يَخْتنِقُ حَرفاً حَرفاً . وأقولُ : فَلأكُنْ قوساً تَصِلُ بيْنَ
نُسْغ المدينة ورأسِها ، وبيْن إبْرةِ الدّم وخُيوطِ المَجرّات ، قوْساً

تُطلِقُ سهاماً لِنسيانٍ هُوَ وحْده الذّاكرة ،
ثمّ يَطيبُ أن أحترقَ نواةَ التّاريخ وأُبدِّلَ عِطْرَ الأشْياء ،
مُتفوّهاً بِاسْمِ القَاهرة كأنّني أتحدّث معَ الحُبّ ورحيقهِ الأوّل .

ـــ «أفندم» ، صوتُ ياسمين ويُشبهُ النّارَدينِ ،
إنّها نفرْتِيتي : «أنا الشّمسُ ، وربّما تعرّفتَ عليَّ في يَمامَة»

ما هذا الفرحُ ،
ومن أين جاء
يَنْتَشِل أحزاني؟

وثَمّةَ راقِدون تحْتَ أحْزانهم في ما يُشبه الغضبَ ، في ملكُوتِ أوهَام وهَواجسَ .
الضّوءُ نفسُه يعرُج ، أوْ هكذا شُبِّه لي . وأسمعُ الفجرَ يتَساءل : كيفَ أُواصِلُ شُروقي؟ وقُلْ مَنِ الجالسونَ حولَ مائدةِ الوعْد ، والشّمسُ تَقرَع أسنانَها حوْل آذانِهم؟ سيفٌ على لساني ، رُمحٌ بين عينيَّ . أَهُوَ ثَلْجُ التّاريخ يَنْهمِر
علَى كتفيَّ؟ أهِيَ أفرانُ الذّكرى تتأجّج؟ وهل ستُمْطِر السّماءُ عسكراً وشَياطين؟
أَقولُ وقوْلي رسَالة . ثُمّ أَلُوذُ بالنِّيل ، مُصْغِياً إلى صمتِه ـــ عالِياً ، كأنّه نشيدُ لغةٍ لا تُسَمّى .

5

أحْلمُ وأطيع آيةَ الشّمْس ،ـــ
لا الرّاوَنْدُ لا شَرابُ الأترجّ لا ماءُ الورْد

الحَيّة

«يأخذُ جلْدَها يحرقُه ويبخّر أحْواله» ـ في قبَابٍ في مقَاصيرَ في
نوافذَ
في أفـاريزَ في خَلوات في تكَايا في نقـوشٍ في أشْكال ثلاثيّـة
مربّعة
خُماسيّة مثمَّنة أسطوانيّة
في زهْرةِ كَتان يتعبُ القَمرُ ويخْرجُ من المشْهَد ، ـ

كُرسيٌّ يجلسُ فوقَه الصُّراخ ، ـ ...، يحبسُ الشّمسَ في قمقم أصفر
الرّايةُ هيَ الرّاية ، واليومُ الذي يَصِلُ لكي يتحدّثَ معَ المطر
لا يحملُ إلاّ الجُوع .
سِتّي زينب سِيدي الشّافعي سيدي البدوي
أنوارٌ تنطبعُ فيها الصّور
لا تَقَعْ في شَبكةِ الشّهوة
لا تَقْتُلْ عقلكَ
لا تَشْربْ خمرَ الغَفْلة
عُدْ إلَى صِباكَ غَنِّ أيّها القدّيسُ الشيخ ...، يُفْرغُ نفسَه
صَوتي خزائنُ والكلامُ يعمرُ خزائنَ أُخرى لكي يَمْتلئَ بملاكٍ أنثى .

كَلامٌ

ينزلُ علَى ناقةٍ من النّور
من ثِقَل الكَلام ، يَتَدلَّى بطنُ النَّاقةِ حتَّى يُلامِسَ الأرض .
اركبْ يا عسَل!
خُذْ نَسْراً وبَطّاً وديكاً وطاوُوساً   قَطِّعْها وخَلِّطها   اجعَلْ في كلّ ناحيةٍ
جزءاً من هذا الخليط واتركْ منَاقيرَها بين أصَابعك   أُدْعُ كلاً منها
باسْمهِ وضَعْ أمامَه حَبّاً وماءً   انظرْ ـ هَا هِيَ الأجزاءُ تتطايَرُ بعضُها
إلى بعض والأبدانُ تَسْتَوي   أُدْعُ الآنَ تلك السَّمـاءَ لتـأمـرَ كلَّ بدنٍ أن
يَنضمَّ إلى رقَبتـهِ ورأسِه وَاترُكْ لهَـا أن تُعطيَ لِكُلٍّ مِنقارَه   وانْظرْ ـ هَا هِيَ
من جديدٍ تأكلُ الحَبَّ وتشرب المياهَ

حَوْلَ

شَجرةٍ تحملُ القَمحَ والعنبَ   العُنَّابَ والتِّينَ وبقيّةَ الثـمَار   اقطفْ ما
شئتَ مِنْها تَقطفْ رَدِفَ السّماء
كَذِبَ الهدْهدُ وصَدقتِ الحيّة
ـ (غريب! يُضيف إلى الكَواكب اللّوبياءَ ، وإلى البُراقِ عصَا مُوسَى)
وفي كُلّ زاويةٍ ، يجلسُ الزّمنُ كشيخٍ لا ينطقُ إلاّ رمزاً ،

وأنا

يَسْتولي القَمَر علَى طبَاعي

وقَلبي يَتخلْخَلُ في جَوْفي ، ــ
فَتَري عطرَكِ واغمسيني فيهِ ، الْبَسيني واعْتقِلي أوْصالِي
مرْمُوزاتٌ والدّنيا هَاربةٌ
والأشياءُ نبُوءاتٌ خَرْسَاء

وأَحْتفِلُ بكِ ، يا مَدينتي ، بكلّ مَا لَكِ وفيكِ وعَنْكِ ومنكِ وإلَيكِ
أَحتفلُ وأقولُ للأزمنةِ كُوني ليلةَ الغَطاسِ لكلّ ليلٍ ــ

«أُسْرِجَ من جَانبِ الجزيرة ومن جانبِ الفُسْطَاط
ألْفَا مِشْعَل
غيرَ ما أسْرَجَ أهلُ مِصْر :
آلافٌ منَ النّاس ، مسْلمِين ونَصارَى ، في زَوارقَ ، في
دُورٍ تُجاوِرُ النّيلَ ، علَى الشّطوطِ
لا يتَناكرَون الحضورَ ،
أَظْهروا كلّ ما أمكنَهُمْ
منَ المآكلِ والمشَاربِ والملابس من آلاتِ
الذّهبِ والفضّةِ من الجواهرِ
من الملاهي والعَزْف والرّقصِ
إنها أحْسَنُ ليلةٍ تكُون في مصْر وأشمَلُها سُروراً
لا تُغْلَقُ بِها الدُّروبُ
يَغطسُ أكثرهم في النّيل

ويقُولون إنّه أمانٌ من المرض . . .» (المسعودي : مروج الذهب)

ولمْ يكُنْ مكانٌ لكَافُور

ولمْ يكنْ أحدٌ حَارِساً علَى الهوَاء ، ــ

أُوه ــ ما هَذا العالمُ الذي نفَخُوا بين سَاقيْه الزُّئبق
جَمْدار أميرْ شكَار جُوكْندَار إسْتادَار
جَمَقْدار بشْمَقْدار

طبولٌ أبْواقٌ مَزامِير

ــ مَا رأيكِ في هذَا العالَم أيّتها الخنفُساء؟
ــ مَا تقولُ في حُظوظِنا ، أيّها النّسْر؟

الآفَةُ من فَوْق ، ــ
وَالتّاريخُ غيومٌ تضحكُ في سَماءٍ تجرُّها الرّيح .

6

بيْنَ هِيرُودُوتَ وشَامْبَلْيُون ، بيْن الإسْكندَر ونابُلْيُون ، تُرخِي مصرُ جدَائلَها علَى كتِفَيْ المتوسّط ، ــ تَمنحُ وجهَها لحكْمة الرّيح ، وتَقرأ سِيرةَ الموْج /

وفي الشّوارعِ التي تهَاجر بين المَاضي والماضِي ، كنتُ أُواكبُ سُرادِقاتٍ تَصِلُ القِلاعَ بالقلاع ، السَّيفَ بالسَّيفِ ، الخيالَ بالخَيال :
محَاربون فُرسَانٌ ــ قِرمزٌ وأرجوان ، يخْرجُون ، بعدَ اسْتخَارة الشّافعِي ،
ويَدخلُون ، يأتونَ ويذهبُون بينَ القَرافةِ والمقَطَّم ، عربٌ ، يونانٌ ، يهودٌ ، أتراكٌ طُولونيّون ، إخْشيديّون ، أيُّوبيّون ، شراكسةٌ ، أكرادٌ ، برْبر . يتَراؤون كمثلِ تَقاطيعَ في وَجْهِ القاهرة في وقتٍ ــ كرسيٌّ منَ الزّئبق وكلٌّ يمضغ البلادَ بأسْنانِ الآخرِ في حُمّى سُلطانٍ في رَقائقَ
منَ الفضّةِ والذّهَب ،
ومنَ السّقوف تسْقطُ ملائكةٌ بزيِّ الجُنود
وفي الأزقّة حيثُ كانتْ تتراءى أطيافٌ تدخلُ معنَا في حوارٍ ، كنّا نسْمع نَفَر رحُو يكرّر : «جَفّت الحقولُ ، فاضتِ الضّرائب ، زاد الموظّفون» ، ونسأل أبي أوْرَ السُّؤالَ نفسَه : أيّها الحَكيمُ ، أينَ منْ يُقال عنهُ : «يرعَى النّاسَ جَميعاً ولا شرَّ في قلْبهِ؟»

ومَا رأيكَ في القوْل : «لايَزالُ النّاسُ بخيْر ما تَفَاوَتُوا ، فإذا تَقاربُوا هَلَكُوا» / ثم يُشبِّه لسَمْعِنا صَوتُ المتنبّي ونُضيفُ أصْواتَنا :

أُفٌّ لهذا التّاريخِ الذي يكْسُونَا . تاريخٌ كمثْلِ أضْلع مأخُوذ بجمْع الأمشَاطِ .
ونُكرّر : أفٌّ لمنْ يكتبُه ، ــ إنّه كمنْ يَذبحُ دجاجَةً مؤكّداً أنّها غزالةٌ . وكنّا نُنشِدُ

بصوْتٍ واحِد : مَأوى لمنْ تَشرّد ، سلامٌ لِمنْ هُزِم . ونرَى إلى الجُنود يطلعُون مِنَ الشّقوقِ والأنقاضِ في قِطَع الزّجاج والفخّارِ والنُّقودِ في أشلاء النّقوشِ والقنَاديلِ ، ثم يرتفعُون أسْواراً بمهاميزَ مِن فولاذٍ ، وتُروسٍ منَ الحديد .
وكانتْ أحصِنتهُم أقواساً ، وفوقها يَدُ الشّمس ترقّص اللُّجُمَ . وفي حَقْل السّماء ، كانتْ أجسَامٌ كوكبيّة تركضُ بيضاءَ كأرانبِ حقْلنا ، حيثُ كانتِ الشّمس تُخاصِمُ ظِلّي ،

أَجسامٌ كوْكبيّةٌ

تَنبتُ حولَها أسنّةٌ وأنيابٌ ، تَخْتفي بِولادَاتٍ أُخرى تَحت بَراقعَ وعباءاتٍ / تَوقّفْ
أنتَ أيّها الطّيفُ وابْتسِمْ لهذه الطّبيعةِ غيرِ الميّتة ، تَوقّفْ والتقِطْ لصَحْراثكَ ثمرةً ما ، ــ

وَاليقينُ أنّ أنفاسَنا تَتصاعَدُ عاليةً متّحِدةً بقرْص الشمْسِ . واليقينُ أنّنا نرَى هاروتَ وماروتَ يَتكئانِ على عَصا مُوسى في الغُوريّةِ وأمّ الغلام ، وليس السّحَرةُ غرباءَ عن ذلك الدّخان الذي يَطْلعُ من مباخِرَ غيرِ مرئيّةٍ ونقرأُ فيهِ : «خَيرُ نِسائكم السّواحِرُ الخَلاّبات»

هَاتي يَديكِ أيّتها العَاشِقَة . الشّمسُ هُنا لا تَشْحُب ، (وأُحِبّ أن أحْيا شَحّاذاً بيْنَ العشّاقِ علَى أنْ أموتَ أمِيراً بيْنَ الموْتَى)

. . ./ وأخَذْنا نُطلِقُ في فضاء القاهرة يَمامَاتٍ بعْد أنْ نُعطِّرَها بالمِسْكِ وماء الورْدِ .
شهْرزَاد على قدَمَيْكِ تُرفرِفُ يَمامةٌ من ليل إيزيس .

إليَّ ، سيِّدتي ، حكيمةٌ أنتِ ، وأسَّسْتِ لحكْمةِ الأرض . انْظُري في عينيَّ .
ألَيْستَا أكثرَ نَفاذاً منَ الضَّوء؟ قُولي ألاَ ترَيْنَ فيهمَا سَفراً نحْوكِ إليكِ ،

حَيثُ أبناؤُكِ يَسْتسْقُون ، يُهيِّئون محَاريثَهم لكَيْ يقودُوا المطَر إلى حقُولِهم ،
يهيِّئُونَ حُقولَهم لكَي تَتّسعَ لبيوتهمْ ، يهيِّئون بيوتهم لكَي تَتّسعَ لِلأساطيرِ ،
يهيِّئون
الأساطيرَ لكيْ تَتّسعَ لكِ ،

إليَّ سيّدتي ، وعَهْداً لإيزيس : سَيخرجُ منْ حُنجُرتي نِيلٌ آخرُ يَخرجُ على سُلْطةِ الغيْم .

7

انتبهْ! يُمكنُ زهرةً من الكلام أنْ تُخفيَ غابةً من القَتلى
تَعَلّم! طَاعةُ الموتِ تَسْتَلْزِمُ فوْضَى الحياةِ
فَكّرا! الإنسانُ نتاجُ ـ لا منَ الطِّينِ لا منَ القِرْدةِ ، بلْ منَ الخُبْز

الزّمنُ ينزُّ
أحصنتَه في
أحشائك ،

ولَيْستِ الحَقيقةُ بيْن الأذنيْن ، بلْ بيْنَ الفخِذَيْن ، ـ

ميْدَانُ الحُسَيْن ، ـ
صَوتي غبارٌ والزّمنُ أكداسُ حَطَبٍ ، ولا نارَ
في خُطواتي . وأسْمعُ في حَيّ أمّ الغُلام زفيرَ العَالم ، ـ

ساحَةُ الحُسيْن ، ـ تمْتلئُ يَدايَ بِالأيْدي ،
رأسِي وطَنٌ وقلْبي فُـصـولٌ   في لحَظاتٍ تَبْـتَكِرُ غُـيـومـاً تَبْـتكِرُ النّار الأولى   في حُبٍّ
طُوفانٍ والأرضُ لا تَتّسعُ   السّماءُ كلّها تَنزلُ على شفتيّ
ـ شْمالَكْ يا وَلدْ! يمينِكْ يا سِتّ! افتحْ عينكَ يا عَمّ!
حَمْداً لهذا العالَم ، ـ عنْدَهُ منَ الأرض صَبرُها
وعنْدَه منْ النّيل أحْضَانُه .

ماذا يقدرُ
أن يفعلَ
رأسُ كلمةٍ
يتدَحرجُ قربَ
رأسِ الحُسيْن؟

. . . وكـانَـتْ أهدابُ خـانَ الخليليّ تكبـرُ وهيَ تنظرُ إلينَا ،
فيمَا يرسمُ حيُّ الحُسَيْن طبيعةً من خَلائقَ تندرجُ في أبابيلِ
الشّكْلِ . فجأةً ، يَنْبجس شيء ما . أوهْ! ـ

ماذا يعني
عصرٌ يُبَوّقهُ
الكلام؟

لم يكن الوثنُ يوماً في مثل هذه الألوهة . عفوكِ نفرتيتي ، ـ
لا يزالُ الشّعرُ يجهلُ كيفَ يُحْصَدُ القمْحُ الذي زُرعَ فيكِ ،

عفوَ الأُنثى التي تهبطُ علينا من قُبّةِ بَنَتْها بجسدِها وتهبطُ معها نارٌ أعلَى مِنَ الهَرَم ، ـ واشْتَعِلْ سلاماً أيّها الرّفيقُ العاشِقُ ، وابْتَهجي أنتِ المأخُوذةُ بغَسْل السّراويل . والشّكرُ للمَناديلِ التي رافَقتْ نَوْمَنا وتحوّلت إلى كتبٍ ودفَاتر .

ماذا يعني رجالٌ يُنْفَخُونَ في زجاجٍ فكري؟

تَسيرُ وتَسمعُ في الغُبار وَقْعَ الخُطواتِ التي سَبَقتْك . كيْفَ يُمْكِنُ لمَنْ يَنْحدِرُ من دَمِ الحُسيْن أن يُعْطِيَ رأسَه لغير الحلُم؟ آهِ ، نِفرْتَاري ، ـ لوْ رأيتِ عينيْ تلكَ الطّفلة التي تبيعُ آياتِها عندَ مَسْجدِ الحُسَيْنِ ، لَتَقَدّمْتِ نحوها وقَدّمْتِ أُضْحِياتك .

كيف تَتنبأُ وأنتَ في المحرقة؟

وشُبّه لي أنّ الرّوحَ تَسيرُ في حيّ أمّ الغُلام ، كمِثْلِ امْرأةٍ مُحجّبة . كنتُ ألمحُ على جدرانٍ يَتفيّأ الزّمن شقوقَها عيوناً تخرجُ منها أطيافٌ تسير بأقدامِ أطفال . كنتُ أرَى أشخاصاً أتْقَنوا لعبةَ الأراجيح لأنّهم دائماً فوقَ الهاوية . وليسوا بِحاجةٍ إلى النّجوم ، لأنّ لديهم فجراً آخرَ قبلَ الفجر . كنتُ أرى أشْخاصاً تتعَبُ أجسادُهم لكنّ أفكارَهَمُ هي التي ترْشَحُ عَرقاً . كنتُ أرى أشخَاصاً لا يَنامُون اللّيلَ إلاّ بيْن أهدابِهم . وكنتُ أرى عَتَباتٍ لا تُرَى نُقِشَ علَيْها :

«أيّها العَابِرُ ، هَلْ تعرِفُ كلِمةَ السرّ للدّخُول إلى نفْسِك؟»

أفْكارٌ تجرّها المآذِنُ ـــ في مَساجدَ قديمةِ الرّأْسِ ، حَديثةِ الرُّكْبة ـــ
في مَدينةٍ وُلدتْ مع الماء ـــ في مَساجِدَ ـــ أسوارٍ لا تعتمدُ إلاّ على أنفاسٍ
تَرْتفعُ أعمدةً يُقالُ إنّها آهاتُ المصلّين ـــ في أُفقٍ : كلّ شيْءٍ فيه فَقَدَ
وظيفتَه ، ولا يَزال
كلّ شيْءٍ يجْلسُ حيثُ هُو ـــ بين جُدْرانٍ : لِكُلّ جدارٍ وجْهَان مثلَ جَانُوس ،
في بلادٍ بوجوهٍ لا تُحْصى ـــ في تَاريخِ أوثانٍ : أُقدّم لكَ أيّها الخالِقُ الذّكَرُ
ذبيحةً أنثى ، وغفرانَك إن لمْ تَقدرْ أن تهضمَها ـــ في عالَم لستَ أنتَ
الفقيرَ إليهِ ، بلْ هُو الفقيرُ إليك ـــ في نظامٍ ، كَثيراً كانَ الإنسانُ فيه كُرسيّاً
للإنسانِ ـــ في
تاريخ يأكلُ بِيَدِ الموْتِ ـــ في عصْرٍ يجلسُ إلى مائدةِ الحاضر ويَقْتَتِلُ
على غَنيمةِ الغابر ، ولا ملجأ لأهلهِ غير تلك الثّقوب التي يحْفرونَها في
حظيرةِ الذاكرة ،
أجسادُهم في إقْليم ورؤوسُهم في إقليم ، والكونُ ورقَةٌ ، لا قرار له ولا عُمق ـــ
في مقاصيرَ تَطوفُ حولها نساءٌ لكلٌ منهنّ رفيقٌ أعلى ، وكلٌّ منهنّ تَعْتَقِلُ
بِاسْمهِ اللّيلَ بين فخذيها ـــ في سديم يرقدُ الشّرقُ والغرب فيه على وسادةٍ
واحدة ، ـــ حول
هيكل هَوْدَج يغطّيه كِشْميرٌ أزرق ، واللّحظاتُ أنابيبُ يَخْرجُ منها دخانُ
الملائكة ـــ في أعشابٍ يُسْتَقْطَرُ منها إكسيرُ القرائح ، حيثُ تُقبّلُ الجوامع
وَجْهَ الفضاء وتَفتقُ المآذن ثِيابه ، ـــ
وأنتَ يا صديقيَ المُصلّي ، ـــ
رَجاءً لا تخفضْ رأسَك ، لئلاّ يسْقُطَ الأُفق .

مقهى الفيشاوي ـ

أَذكرُ، لي موعدٌ مع سقيفةِ ذلك الجحيم،
أذكرُ، الموتُ يُوقِظ ملائكةً شيوخاً في زوايا هذا المَسجد،
أذكرُ، الموتُ يسكَرُ ويكتبُ على شاطئ النّيل مازِجاً قطْنَ المساء بكِتّان الفَجر،
أذكرُ، الموتُ يَضَعُ مقاعِدَ كأنّها رسومُ سفُنٍ على صَفْحةِ النّيل من أجل زُوّارٍ يسكنون

في أشعّة الشمس،
أذكرُ، الموتُ وراءَ الهرم أمامَه، لكنَّ الأحياءَ سَحَابٌ والمَوْتى قمحٌ
أذكرُ، كان خُوفُو يَبْتسِم، كأنّه لايزالُ يُروِّضُ الموتَ، أو كأنَّ الموتَ فراشَةٌ ترفرف علَى قنْديلِه.

يُومِئُ لي بابٌ ذاهِبٌ إليه آخذُ اللذّةَ أغسل جسدَها داخِلاً فيها خارِجاً منّي ويكونُ اسْمُنا المكانَ ثَمّةَ هُنا الآن السّاعةَ اليومَ إيلافاً لتاريخ لا يكتبُه القَتل لحاكمٍ مَحْكوم بالحبّ مُوقِظاً في دَمِيَ الطِّينَ، ما قبلَ تاريخِه إيقاعَ الأنهارِ الغاباتِ المدنَ الغناءَ الأسطورةَ الطّفلَ الضّياعَ في أسرّةٍ أذْرُعٍ أعناقٍ أسْهَرُ في موْجةٍ أنامُ في وَرْدةٍ مُصغِياً /

«وأصرفُ وَجْهي عن بلادٍ غَدا بها

لِسانيَ مَعقولاً وقلبيَ مُقْفَلاً
وجَدَّ بها قَومٌ سِوايَ فَصادَفُوا
بها الصُّنْعَ أعْشَى والزَّمانَ مُغَفَّلا»
(أبو تمام)

«ولا أُعاشِرُ مِنْ أملاكِهِمْ مَلكاً
إلا أحقَّ بِضَرْب الرّأسِ من وثَنِ»
(المتنبي)

«ضَاقَتْ عليَّ نَواحِيها فما قَدَرتْ
علَى الإناخَةِ في ساحَاتِها القُبَلُ»
(العقيلي)

إلى أحَدِ أسمائي ، ــ
أُنقِّح كِتابَ الحِكمة العربيّة وأنبشُ منْ أجْلِ ذلك مخْطُوطاتِ اللاّشعُور

إلى آخرَ من أسمائي ، أكادُ أنسَاهُ ، ــ مَنْ سَيفْهَمُ أنّني أعيشُ في جَناحَيْ يمامةٍ وأطيرُ في فَخّ؟

8

هكذا أكتبُ القاهرةَ مكتوباً بها ، مُعْطِياً لِكتفيَّ أحزانَها . ومِنْ هذه الوَرقةِ التي أُمْسِكُ بها الآن ، تَخرجُ نَفرْتَاري في يدِها قرباناً وبين نَهدَيْها زهرةُ لوتَسٍ ، وأسمعُ شِعْري يُوشْوِشُني : لا أريدُ أن أنتصرَ بعد الآن ، لقد شَيَّخَتْنِيَ انْتِصارَاتي .

ثُمّ أنطلقُ مع أشباحٍ تَنطلق مع اللّيلِ تَسْهرُ في الشّوارعِ تَتمدّدُ بين العَيْنِ والعين أصْدافاً وَدَعاً خَواتِمَ رُسوماً مَرايا جدائِلَ عقوداً أرْوِقَةَ

قناطِرَ غُرفاً موائِدَ قواريرَ حَشْدَ أقلامٍ ومحابِرِ الغازَ ورقٍ وحِبْرٍ ،

وَتِلْكَ هيَ الأبديّةُ تتوسّدُ أعْناقَ الكَلِمات .

أشباحٌ / وَطَنٌ تحت بَشَرةِ الزّمن ــ زِنْبيلٌ ، يحْمِلهُ ماءُ النّيلِ تُولَدُ فيهِ السّماء . ما أكرمَكِ أيّتها القاهرة ، ابْتكرِي وارْمُزي : هذا عَمَلُكِ .

رأسي جديدٌ وأخافُ أن أقولَ ما أقول . . . معَ ذلِكَ : السّماءُ هُنا امرأةٌ ــ مِرْآةٌ لِهذا الذّكَرِ ــ الكَوْن . وانْظُروا : في المَحَطّات في المَفارقِ عرَباتٌ قُطُرٌ خيولٌ منَ الفَصائلِ كلِّها فرسانٌ منَ السّلالاتِ جَمْعاء

لِقاحٌ وأعراسٌ / الصّهيلُ أخٌ للصّفيرِ والآلَةُ عِجْلٌ مُسمَّن في تاريخٍ : أُمثولةِ بَطَرٍ ، والتفكّكُ احْتِفالٌ

والعَجَبُ أنّ الغُبارَ حِبْرٌ أحمَر .

لِماذا يتركُ ليَ التّاريخُ في كلّ مدينة ، أحَبَّ دفاتِره إليْه؟
لِماذا أحلمُ وأطيعُ آيةَ الشّمسْ؟

السّيدُ ياسِين / تَليمَه : «جاء التّاريخُ يلبَسُ قبّعةً وجَلَس علَى كرسيٍّ مِنْ عِظام القَتْلى
أخذتْه الصّاعِقة ، ولم تكن إلاّ ضَوْضَاءَ الشّوارع»
حُتاتةَ : «تاريخٌ يَلتقِطُ جَنينَهُ مِنْ ثَوْرةٍ لم تُحْصِنْ فَرْجَها»
لكنّ تستطيعُ إيزيس أن تُعطيكَ سَبْعة أجسادٍ لِروحكَ الواحدة ، أنْ تُفيضَ عليكَ يوماً لا تَعرفُه الفصول ، فيما تسأل أين جابر عصفور فيما تُصْغي لأمّ كلثوم أو غيرها مما تُحبّه في حديقةِ الذّاكرة ، فيما تَترصَّدُ هبوطَ ليلٍ آخر على العَضَلِ العاشق تَستطِيعُ أن تَكْسوَك بحريرٍ أسود أن تأخذَك بين ذِراعيْها لكي تُقابِلَ القَمَرَ الآخرَ الذي يَتمدّد في عقدةٍ من الأجنحةَ ولِكي تُرْضِعَكَ الثّدْيَ الذي تحلمُ بهِ ولا تَجْرُؤ أن تُفْصحَ عنه ،ـــ
الخرّاط لرزق الله : «كيفَ تحوّل الخبزَ إلى لونٍ ، واللّونَ إلى فضاء جنسيّ؟»
الكفراوي ومطر : «يُخلط الذّكَرُ بوَرق الغار ، وتُخلطُ الأنثى بالورد»
الغِيطَاني : «أنا العاشِقُ وسُكنايَ في كبدِ الحبّ»
اعْتِدال : «الحبّ الماءُ الوحيد الذي لا نقدر أن نَطْفُوَ فوْقَه»

رمَضان : «كشمسٍ أُولى يسْطَع في المدينة الشّعرُ ، وكلّ خليّةٍ في جَسدِ القصيدةِ بيتٌ كريم»
طهَ : «رأْسِي مَليءٌ بِمُشاة التّاريخِ ، ولِكُلّ طائرٍ قَدَماي . . .»

وكان الطِّينُ الذي يُواكِبُ النِّيلَ حِبْراً آخرَ يتَهيَّأُ لكتابة الحُقُول . وكانت إيزيسُ تخـيطُ الجـبلَ إلى الجَـبل والنَّجمَ إلى النّجم ، فـيما تُطَمْئِنُني : لَيْسَتْ هذهِ القصيدةُ إلاّ طِفْلاً وُلِدَ في التّيهِ وظَنّي أنّه سيَحْظى بِغَزالةٍ ما .

9

مِنْ هَذا الغَامضِ الذي أعرِفُه

مِثْلَكِ ، ومِثْلَكِ لا أسمّيه ، من النّيل جَارِياً في حالاتٍ تُنَوِّرُ الحُقولَ مِنْ سوادِكِ اللّقاءِ بينَ الماء والضّوء مِن حُزنكِ الجِسْرِ بين الهاويةِ والذُّروات مِنْ عَرّافاتكِ وعَرّافيكِ وأُولئكَ الذين اخْتَصُّوا بتأويل الرّؤيا مِنْ خُبْزِكِ الذُّرَةِ الشّعيرِ الشُّوفانِ وما تَيسَّر مِن القَمْحِ منَ الباعةِ المُتجوِّلينَ الغُرباء المُتَشرّدين بين مَقْهى محْفُوظ ومَقْهى

الغيطاني ، منَ الأبوابِ والسّاحاتِ والزّوايا والمَمرّاتِ منَ الحُروفِ السرّيةِ التي تَتَناثَرُ بين جابر عصْفور وأدونيس ، منِ الصَّخَبِ الذي يَتصاعَدُ في الميادين كأنّهُ

يَجيءُ مِنْ عَصْرٍ آخر بهَوائكِ نَفْحةً نَفْحةً

بِشَمْسكِ خَيْطاً خَيْطاً ،

أَبتكِرُ قميصاً آخرَ ليُوسفَ وامْرأةِ العزيز وأُضيفُه إلَى جَسدِ التّحوّل ، هامِساً : لأنّكِ السرُّ ، لا يعرفُ الشّعرُ أنْ يُقدّمُ لكِ إلاّ الشعْر .

10

أحْلمُ وأطيعُ آيةَ الشّمسْ ، ـ

لحظةَ كانَ القمَرُ يهبِطُ في حَوْضِ الأُنْثى ، كنتَ تُصْغي إلى مُناجاةٍ تَتأَرْجَحُ أبراجُها بَيْنَ الثّورِ والعَقْرب ، وتَشقُّ طريقَها في اتّجاه أغوارِكَ ، حتّى اللّهَبِ الذي يسكنُ في كلماتِكَ ، حتّى قَرارةِ المَوْج ـ الصّوت .

إيزيسُ / القاهِرة ، ـ

أكتبكِ فجراً يوقِظ النّائمةَ أثينا ،
أكتبكِ إكْسيراً ضِدَّ زَمنٍ لا يَهدأُ سعالُه ، زمنٍ تُحَزِّزُهُ خَناجِرُ الفَتْك واللّغةُ حوله حِراب ،
أكتبكِ اسْتواءً على كُرسيّ يتوسَّطُ سُرادِقَ الكَوْن ، ولَهباً من سُلالَةِ الكَواكب ، وتَكونُ لُغتي قدِ اسْتبدَّت بِغَيْم الصُّور ، وأكون أعلنتُ : حِبالُ صوتيَ النّيلُ ، ونَبرَاتي الفصولُ ،

هكذا أنْفَذُ إليكِ مُؤْتلِفاً مُخْتَلِفاً ، وأُسْقِطُ على وجهكِ أنْداءَ المعنى ،
هكذا أكتبُكِ جسداً ـ نَشيدَ ماء تَثنّي ومِلْءَ أعضائيَ انْكَسري مَوْجةً مَوْجَةً ،
كُوني لِيَ الأرضَ مُسْتلقِيةً أكُنْ لكِ الهَواءَ قائِماً وسَمّيني بِأَسْمائكِ ، امْتَزَجَتْ حنْجرتي بِصَوْتكِ وأشْيائِه حَمْداً لِمفتاحكِ لِلْعتَبةِ لِلْقمح على

العَتبةِ لخُطَواتك حَولَ العتَبةِ لِمَساتِها لِغلالتِك لأرْجوانِ آبَنُوسٍ غابَةٍ تَتّسعُ بَحْرٍ يَهدِرُ للحالةِ النّباتيّةِ فيك لِلْجُوعِ العيدِ الذّراعيْنِ المُخْمَلِ المُسْتطيلِ الدّائريّ القَوْسِ النَّشْوةِ الرّعشةِ اللّيلِ سَحَراً سُحَيْراً ، حَمْداً ، ــ

أحلمُ وأُطِيع آيةَ الشّمس .

(باريس ، خريف 1988)

يد الحجر ترسم المكان

(رقيم البتراء)

1

لا أقولُ نثْراً   لا أقُولُ شِعْراً
بل أكتبُ رقيماً

[في الرَّقيم خمسةُ أقْوال :
اللَّوحُ
الدَّواةُ بلُغةِ الرّوم
القريةُ
الوادِي
الكِتابُ (لسان العرب)]

أسْمعُ حركةً في فِهْرسِ البَتْراء   أسمَعُ نبْضاً في قَفصِهَا الصَّدريّ   أهُوَ
الحجَرُ يتفتّحُ وينْمُو؟
لا تُوقظوا الحَجرَ من نوْمهِ   لا تعكّروا بُحَيْرةَ أحلامِه
انْظُروا   لِلْحَجَر جسَدٌ وَرْدٌ
أَصْغُوا   كأنَّ الحَجرَ يَنْمي البشرَ   وإلَى نفْسهِ انتِماؤُه

2

أسْمَعُ حركةً في فِهْرس البَتْراء   أهيَ أرواحٌ سُفْلى أمْ هُوَ حَفيفُ الفلَكِ؟
كَيْفَ أندمجُ في هذِه الأشعّةِ   وأكونُ جزءاً مِن هذا الأثير؟
هَلْ سأجِدُ في قاموس الحِبْر ما يشرحُ ذلكَ
الشّكلَ   تلكَ الدّوائرَ   هذِه الخُطوطَ؟
مَن يُعلّمني أنْ ألمسَ السّماء؟

3

احْمِلُوا ذاكِرةَ الصّحراء في طَريقكُم إلى الشّقّ

[ويقال : السّيق
أهُو جسمٌ واحِدٌ
شُقَّ نِصْفين
لا يلتقيّان؟]

حَيُّوا صُخورَ الجِنّ   قَبْرَ المِسَلاّت   وادْخُلوا قاعةَ الاحْتِفالِ
بِالموْتِ الآخرِ الحياةِ الأخرَى   يَطيبُ للمخْملِ الأحمَرِ أن يَسير مَعكُمْ
ويطيبُ للأبيضِ البنفْسَج
ويَسيرُ معكُم ذُو الشّرى

[حجرٌ أسودُ
هو نفسُه الشّمس]

بمَحارِيبه التي تُلوّح لكُمْ مستلْقِيةً في أحْضَانِ الصّخْرِ   يتفجّر مَاءُ السرِّ
أنّى توجّهتُمْ   ولاَ حاجةَ إلى أيّة عصًا
ولنْ تضْرِبُوا أيّة صَخْرة
تَتذكّرون الأمّ الأُولى ناقةَ صالح

[أخرجها صالح من الصّخر علامة على نبوّته
كانت تطوف المدائنَ السّبع توزّع حليبَها

لم تؤمن ثمود
غرزت سكاكينها حيث تنام النّاقة ـ تمزّقت
خواصرها ومن أحشائِها خرج طفلٌ تحوّل إلى
صخْرة
يُقال لايزال النّاس يسمعون أنينَ الأمّ
وإبنها حتّى اليوم]

تَستعيدُون مَا قالَهُ فَمُ السَّمَاء وتَسمعُونَ هاتِفاً :
مِنْ هذهِ النّاقة ـ الصّخرةِ
خرجَتِ البَتْراء

[سمّاها اليونانُ
آرابيا بترايا]

وأخذتِ البَتراءُ ترسمُ نفسَها بالحَجَرِ والذّهَبِ وما يلْطفُ مِنَ المَعادِنِ في حَربٍ
بينَ اللّغة وأختِها الطّبيعةِ
بيْنَ القلَم واللّونِ والمِنْقَش صَفّاً
والبازِلْتِ والغْرانيتِ والمَرْمرِ صفّاً آخر
حَرْبٍ تفرّق بين النّجوم وتوحّد بين اللّغات
أحْياناً كانتِ الغُيوم تتَدخّلُ وتتدَخّل الجِبال والبِحار ـ
وَيكونُ العَنْبَرُ ساحَةً
والبَخورُ هَالاتٍ

كَمْ كانتْ طيّبةً لَهْجةُ الفجْرِ وهْوَ يَنْتصرُ لأهْلِ البَتْراء

[كانوا يتكلّمون
الآراميّة واليونانيّة إضافةً إلى اللّغة الأمّ
انشقّوا عَن العربِ آخذين بثقافةِ
آرام في الزّراعَة والصّناعة وحِرْفة اليد
«تَمعْدَدُوا ولا تَسْتَنْبِطُوا» (عمر بن الخطاب) :
تَشبّهوا بِمَعدٍّ لا بالنّبطِ / ويُرْوى كذلك :
«نحْن معاشر قُريشٍ منَ النّبط من أهْلِ
كُوثَى رَبّا» (ابن عبّاس)
وقِيل في كُوثَى رَبّا ولدِ ابْراهِيم الخليل]

وَمَا أسْعدَ الحُروفَ التي كوّنَ بهَا كَلِماتِه فِيمَا كانَ يخْصُنُه بِاسْمِهَا الحَارِث

[سُمّي «محبّ اليونانِ وحاميهم»
نُقِشَ اسْمُه تمْجِيداً في المِدْرَاس
معْبَد ذُو الشَّرى]

وَانْظُروا إلَى عَربةِ الفَجْرِ تنزلُ الشّمسُ منْهَا تَخيّلوا كيْفَ كَانتِ البتراءُ تنهضُ
كلّ يوْم تمسَحُ جَبينَ النّهارِ وتسيرُ
لِتكتُب تاريخَها في موْكبٍ مِنْ أحْصنةِ الضّوْء

[سطَع هذَا الضَوء
علَى عمْرو بن معد يكرب
واصفاً سعدَ بن أبي وقّاص :
«أعرابيٌ في حَبْوَته
نَبَطيٌ في جِبْوتهِ /
هُو عربيٌ عطاءً ، نبطيٌ حِذْقاً ومهارةً]

4

إنّها الشّمسُ تَسْتيقظُ عَاريةً حتّى مِنْ قَميصِ نَوْمِها تَنظرُ إلَيّ مِنْ شقُوقِ
نَافِذَتي فيمَا

أنهضُ وتقـول ناريَ اليـومَ سَـلامٌ وبَرْد وكَـان النّهـارُ قـد بَدأ
يتسَلّقُ سَلالمَ الحجَر
تَحسّسْتُ حنجُرتي ــ هلْ سأقْدِرُ أنْ أقولَ ما لَمْ أعرِفْ أبداً كيْفَ
أقُولهُ؟

صُخورٌ تنْتقشُ كمَا يخطُر لِلْعيْن ــ وُجُوهاً أعْناقاً
أثْداءً أردافاً
شُموعاً قَناديلَ وسَائدَ أسرّةً مَناديلَ

أضِيفُوا إلى العُلوم عِلْماً آخرَ ــ كيْفَ يلبسُ الحجَرُ الغوايةَ ، كيفَ يَشْتَهي
ويُشتهَى فاتحاً صدْرهُ باسِطاً ذراعيْه وكيْف يُهَيّئُ
سَرِيرَهُ

ويخيَّلُ إلَيْكَ أنّك تسمَعُ أهلَ البَتْراء يتحَدّثُون معَكَ فِي
الأبْوابِ والنّوافذِ فِي الأوْدِية وعلَى الذّروات تُوقِن أنّ

مَا مضَى هوَ الباقِي   أنّ الزّمنَ الذي يطْفُو بينَ قَدميْك دخانٌ عَابِر
وَحِين ترى إلى الخَليقةِ التي كوّنَتْها الأزَاميلُ   وتَرى أعْضَاءَها المقطّعةَ
تَسْأل صَارخاً : مَنْ لَطّخ هذه البَراءة؟ مَنْ شوّهَ
وسَجنَ ونفَى؟
ومَا أغْمَض حُزنَ اللّقاء بيْنَ مَنْفَى البَشرِ ومَنْفَى الحَجر
أيّها الطّاغِيةُ ، هَلْ حَقاً كانت معَكَ يَدُ اللّه؟

صُخورٌ ــ محِيطٌ منَ اللّون والضّوْء :

قُل الحجرُ مسْكُونٌ بالغَيْب
وقُل لِلسّماء ضَعي يديْكِ علَى كتِفيّ
هَلْ ستكُونُ ، أيّها المُحيطُ ، النّجمَ الذي رُميتُ بِه
واستَنرْت؟ هلْ ستَكون الأكثرَ إطْمِئْناناً
إليّ والأكْثر وثُوقاً بِي ــ أنَا المأخُوذَ
بِرُبّما
وَبالهشاشةِ
وَبالظّنّ؟
أسْألُ وأتقدّمُ ــ
كيْفَ يُمكِن ألاّ أثِقَ بِالرّيح؟

5

فِي نَفَقٍ تُمْسِكُ بهِ السّماءُ مِنْ رأْسِهِ وتَبُثّ فِيه لألاءَها
كَان الأحمرُ النّبيذُ الذي تلْبِسُه الصخْرةُ ـ الخزْنَة

[تَسهرُ عليها نساءٌ يَحرسْنها :
قطَعت كلٌّ منهنّ ثديها
الأيمن لكي يسهل عليها
في الحرب استخدامُ القوس]

يَضعُ أَبْهَى تيجَانِه وكَان وجهُ الحَجرِ وَوجهُ إلاهةٍ علَيْهِ
(خبّأت إسْمها) يتهامسان :
مَنِ العابِرُ ومِنْ أيّ غبارٍ يَجيء؟
وَحْيٌ مِنْ جهَة البحْرِ الميّت :
أُكتبْ آخرَ قصَائِدَكَ علَى آخرِ ورَقةٍ
مِنْ هذَا البَرْديِّ الأخِير
واقْرأْ «ما أنا بقارئ» .

6

إلَى المِدْراسِ أخذني القلَمُ النبطيّ الآراميّ :
ذُو الشَّرَى حَجرٌ ـ عَمُود
[مِنَ الحجَرِ ـ الشّرَاة
«أشرقَ يَهْوه»

فِي ضَبابٍ منَ البخُور والصَّنْدَل
وحَوله مَنْ حولَه ، ـ
حجرٌ دائِرةٌ
حجرٌ قضيبٌ
حجرٌ وسَادةٌ
حَجرٌ رَحِمٌ
حَجرٌ مِعْراج]

بِاسْمِهِ تنسجُ القوّة دروعَها الحمْرَ ذُو الشرَى عِنَانٌ لرأْسِ الزّمن
لا يجيءُ الزّمنُ إلاّ بين خُطواتهِ ذُو الشّرى شررٌ في عَضَلِ التارِيخ بهِ
يحْملُ الفكْرُ مصَابيحَه ويُوغِل في المَادّة
مَرْئيٌّ بغيابِه
تخْرجُ مِنْه كواكبُ تشْحَذُ البَصيرةَ
وتغْلُو بِالبَصَر
ذُو الشّرى شاطِئٌ يُطَمْئِنُ اللّجّ لُجٌّ يزحْزِحُ الشّواطِئ

نحْوَ سيّدةِ المَاء ـ اللاّت

[لا يقدِر العقلُ
أن يتركَ دِفْءَ نَهْديها]

تُخاطِبُه يا هُوَ يُخاطِبُها يا هِيَ

وأَصْغُوا إلَى خُطواتِ العُزّى

[نَجْمة الصبْح
كوكَبِ الحُسْن]

وَانظرُوا إلى الفَجْر يُسْرِجُ لها أجْملَ أفراسِه
للأُنوثةِ هذَا المَكان

[«كُلُّ مكَانٍ لا يُؤَنّثُ
لا يُعوّل علَيْه» (ابن عربي)]

للأُنوثةِ هَذه الجرّةُ لمَاء الدّمُوع لِلعُزّى
لِلاّت تسْتضيفُ إيزيسَ في قَصْر البِنْت
وسَبيلِ الحُوريّات
لِلسرّ هذهِ الجرّة لهرْمِسَ

[هَلْ يكونُ هرمسُ
إلاّ الكُتْبَة ذلكَ الإلهَ
النّبطيُّ الغامض؟
أتكونُ الكتابَةُ اشتقاقَه الأوّل؟] .

وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ المكان :

يرْقُد الزّمنُ بيْنَ المِشْكاةِ وأُختِها
تَنوّرُوا أحْلامه سابِحةً بيْن يدَيْ
أبديّةٍ باطِنَةٍ وراء ستائرَ مِنْ
أنفاسِ المادّةِ
واقْرأوهُ ـ مُستسْلِماً للبتْراء كأنّما

فوّضَ أمرَهُ إليْهَا

وَحْيٌ مِمّا وراءَ الجِهات :

بيتُ النّبوّة يتفيّأُ
زيْتُونةً «لا شَرْقيّة ولا غرْبيّة» .

7

أ ـ بَيتٌ ذِراعٌ ذِراعَان

ينْهَضُ الجسْمُ فيهِ كأنّهُ ينهَضُ في إناء يَتّسعُ لورْدَتَيْن
إحداهُما زَائرةٌ كأنّها مُقيمةٌ والأخْرى مقيمةٌ كأنّها زائرة
لا تَعشقُ البيتَ بلْ مَجيئَها إلى البيْت
قدْ لا تسمعون الكَلامَ الذي باحَتا بِه
غيْر أنّكُم ترونَه يَلْتصِق على الجُدرانِ

الشّبيهةِ بأوراقهِما كأنّه غيْمةٌ مِنْ رمادِ
قَمرٍ يَدخلُ عتبةَ الأفُولِ   ولا تقْدِرُ
الشمسُ أن تَصلَ حتّى إلى قدَميْ ذلكَ
الظّلِّ الذي لا يبارحُ البيتَ كأنّ الظلَّ
نفسَهُ بيتٌ داخلَ البيْت

ب ــ بَيْتٌ

لا يَجِدُ مَنْ يُغنى بِه غيرَ الغُبارِ والرّيح
لكِن الغُبارُ الذي لامَسَ مرّةً كاحِلَ العُزّى
لكِن الرّيحُ التي لاتزالُ تتَردّدُ في حُنْجُرتها
تَنهّداتُ النّساء اللاّئي كُنّ يَتحلّقْنَ
حَوْل قَامةِ اللاّت

جـ ــ بَيْتٌ

شُعراءُ يقرأُون قصَائدهُم فيمَا يتكئُون علَى خواصِرَ
كريمةٍ   إنّها المرأةُ تُعلّم كلماتِ الحُبِّ لا لِلسّريرِ
وحدَهُ   بلْ أيْضاً لعتَبةِ البيْتِ وسَقْفِه وجدرانه .
حَقاً كأنّ المرأة والشّاعرَ في سَريرِ الحُبِّ ليْسَا
شيئاً آخرَ غيْرَ الأرْضِ والسّماء

حَقاً الحبُّ نفسُه هُوَ الشّرعُ
عجَباً لذلكَ الدّهْرِ كيفَ يُنتجُ هذَا العَصْرا

[«والعَصْرِ
إنّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ»]

8

مَدىً مُحيطٌ يأخذُكَ بموْجِهِ ويأخذُكَ بأعْماقِه   تقولُ المكانُ يُهيمنُ
على الزّمان   تقُول المكانُ جرّةُ الأنوثةِ   وتشْعر أنّ الكَلامَ يتكسّرُ
علَى شُطآن شفتيْك   وترَى إلى الآلهةِ يَجلسون معَ أصدِقائِهمْ
مِن البشرَ فِي قاعةٍ واحدَةٍ يسْتقبلُون زوّارهُمْ

[في القاعة بقايا زوّارٍ ومستَقْبِلين وجوهٌ
لم يبقَ منْها غيرُ ما استطاعَ الحجرُ أن يُخبئَه :
أجسامٌ بلا سيقانٍ ولا رؤوس أكفٌ ـ
عَناقيد   امرأةٌ نصفُها الأعلَى لبْوَةٌ
فَمٌ كأنّه يصْرخ : لا تشوّهوا شفَتيّ
رأس نسر عيونٌ مَهَا قرونُ ماعِزٍ
خيولٌ أطفالٌ رجالٌ نسَاء
استُلِبتْ عيونُهم ومَا بين أفخاذهم   نجومٌ وصُلْبانٌ
لن تَجد أيّ هِلال   ربّما كانَ الهِلالُ
اكْتفى بإعطائنا الكلامَ لكيْ نقولَ ما نقول
ربّما كانَ حسَناً أن نفْتقده   ثَمّةَ آهلَةٌ
لا تُحصَى منْ سماء أُخرى تخْرجُ إليكَ في
كُلّ خُطوةٍ تخطُوهَا]

وتُصغِي إلَى خُطوة الغُراب تُملي عليكَ نقوشاً غيرَ مرئيّة :

أعْطِ ذاكرتَك للحجر

ونَمْ بين شفتَيه

الحَجرُ ماءٌ ثانٍ

ينْتَصِر الحَجرُ مُنهَزِماً

الحجَرُ في البتْراء

رئةٌ للمادّة

إنْ كانَ علَى العقْلِ أنْ يكْسُوَ العالَم

فعَليْه أن يَعيش عارِياً كالحَجر

عُرْيُ الحَجر ثوبٌ للكِتابة

وعُريُ العقْل ثوبٌ للمعْرِفَة

طَابَ لِي فيمَا أَرودُ هَذا الإناءَ المُسْتطرَقَ الحَجرَ ـ البشَرَ أنْ

أسْتعيدَ تحْت شمْسِ البتراء سِحْرَ البيانِ والمجَاز

[«خمّر اللّهُ طينةَ آدم بيده أربَعين صباحاً» /

«يُؤتى بالموْت يوم القيامة

في صُورة كبْشٍ أملَح

فيُذبَح بيْنَ الجنّة والنّار»]

ذَلكَ أنّني كنْتُ ألمسُ تلكَ الطِينةَ بيـدَيّ وكنتُ أرَى إلى المـوْتِ
يُذبح عنْد كلِّ حجَرٍ
وطابَ لي أن أكرّر : ما أحْدثَ هذا القَديم .

9

وَحْيٌ مِنْ جِهَة أوغارِيت :
مِنَ الحُروفِ التي احْتضَنَتْها الصّخرةُ ـ البتْراء
جاءَتِ الحروفُ الكُوفيّة
وليْسَت إلاّ نَقْشاً آخرَ لصوْتِ آرام
والسّلامُ لِلضّاد

لِلْقَلَم النّبطيّ الآراميّ
سَلامٌ لهُ حيْثُ وُلِدَ وحيْثُ أقامَ
وحيْثُ هاجَر

10

إلى أُوغاريتَ يأْخذُني اليومَ هَذا القلَم
(هَلْ سيَأخذُ معَهُ المعْنَى ويوزّعهُ علَى فُقَراء الشّكل؟)
لا بِلِسانِه يتكَلّمُ الحَجرُ هُنا بَلْ بأرْدافِهِ لهُ جُذورٌ كالشّجرِ لَهُ أطفالٌ
يلْعَبُون معَ النّجوم والشُّهبِ وليْسَ عندَهُم شيْءٌ
السّماءُ هيَ التي تأخُذُ ما يقْطِفُون

قلتُ : السّماءُ   لكِنْ كيْفَ سَيُعلِّمني هذَا القَلمُ أنْ أَنقشَ أوْ أكتبَ
سَماءً تبْدو كأنّها الأخيرةُ؟ أنْ أرسمَ تحْتَها حاضِراً لا أكادُ أراهُ
إلاّ محْمولاً علَى حصَاةٍ سوداءَ تُدحْرِجُها يدُ اللّه؟ وأنْ أقولَ ماضِياً
تَجرّه الرّيح؟
والطِّينُ هنَا يرسُم الرّوحَ   لا طينُ سُومرَ وبابِل وآرامَ   بلْ طِينُ
قُريْش   بيْنَ ألْواحِه شاعِرٌ لم يبْقَ مِنْه غيرُ قدمِه اليُسْرَى
وغيرُ أسْماء غامضَةٍ لبعْضٍ منْ كُتبِه   بينَها قَاضٍ : رأسٌ
على طبَقٍ
لِلْموتِ هنا حياتُه السريّةُ الأُخْرَى

ويُحْكَى مِنْ هُنا يمرُّ اللّهُ كلَّ يوْم
إلى أينَ تقودُني أيّها القلَم؟
وماذا تفْعلين بِي أيتُها الأبْجَدِيّة؟
بَلوتِني لأقولَ بكِ المَحْوَ
لأسْألَ : هَلْ ضيّعَ التاريخُ حقيبةَ أوْراقِه الخَاصّة؟
هَلْ سنَظلُّ نشْرَبُ ماءً لا نقْدِرُ أنْ نرَاه؟
إلى متَى تُوَحّدُ الثّمارُ مِنّا ـ نحْنُ الذينَ
نمْلِكُ الجذُور؟

ماذا تفْعَلِين بي أيّتها الأبْجَدِيّة؟

هَلْ بِقدمَيْ هاجَرَ علَيَّ أنْ أكتُبَ؟
هَلْ بعطَش إسْماعِيل وتيهِه؟
هَلْ كتَبْتِ علَيَّ ألاّ أتفيّأَ غيْرَ شَجَرةِ الجَحيم؟

قُلْ أنا الغرِيبُ وأتْقِنُ هنْدسَةَ المنْفَى
قُلْ خيْرٌ لِي أنْ أرقصَ معَ هذَا الغُبار
وقُلْ سأكتبُ آخرَ قصائِدي
علَى آخِرِ ورَقةٍ
مِن هَذا البَرْديِّ الأخِير .

11

بُلْبُلٌ في شَجَرةِ عَرْعَر
[بعَصيرِ العَرْعَر مُضافاً إلى السكّر
نحْصل علَى شَراب الجِنّ
ولِلْعرْعَر رائحةٌ تَجيءُ منَ الأعالي]

لا لِلشّجرَة يُغنّي بلْ لنَا نحْنُ الذينَ نعْبرُ باكِراً بيْنَ الغُصْنِ والحجَر
وأنتِ أيّتها الفراشةُ التي خَرَجتْ لِتوّها من قَصْر البِنْتِ ، ألَيْسَ
لكِ فَرسٌ غير هذَا الهَواء الذي يتَصبّبُ عَرقاً؟ ألَيْسَ
لكِ بيتٌ غيرُ هذَا القَفصِ الذي لا تكفُّ عن نسْجِه محَابرُ
اللّونِ وإبَرُ الموْت؟

وَحْيٌ مِنْ جِهةِ اللاّت :

حبٌّ
أنْ نكتشفَ
مُحيطُ المعْنَى
بسفينةِ النّوم .

وَحْيٌ من جهة العُزّى :

أعطيْتُ لِلرّيح أن تقولَ الكَلامَ الأخير
لِلْماء أنْ تحتويَ النّار
أعْطيْتُ للجَنَاحِ أنْ يقسّم الفضَاءَ قِسْمَين ـ
واحِداً للشّهيقِ وآخرَ للزّفير .

وَحْيٌ مِنْ لا جِهَة :

مِنَ التّرابِ والحَجَر
لا من الورق
يجِيءُ الكِتاب

كَمِثْل مَا أُوحي ، ـ
سأَرَى بعيْنِ التّرابِ وأسْمعُ بأُذْن الحجَر
ولنْ أعوّلَ إلاّ علَى ما يسْكنُ جسَدِي .

12

صَباحُ الخيْرِ أيّتُها الجدّةُ الطيِّبة

هَلْ بُني بيتُكِ من جسَدِ الأرضِ أمْ مِنْ جسَدِ السّمَاء؟
الآنَ يخرُج مِنْ بيْن ذراعيْكِ قوسُ قُزح كأنّه يتدلّى
مِنْ أعناقِ غيُوم بلَوْنِ الدّم يضعُ رأسَهُ
علَى القدْسِ وقدَميْهِ في نَهْرِ الأردُنَ ، ـ

ـ كَلاّ ، لنْ أُصغيَ إلَيهمْ
ـ ميلُوا قَليلاً إلى تلْكَ القاعةِ التي يتفتّتُ فيهَا مِسْكُ التّاريخ
ولَسْتُ أراكِ بعَيْنيّ وحْدهُمَا
أراكِ بشهيقيَ وزفيري
باللّحْظةِ التي جئْتِ منهَا وبالتي أنا فيها
وبتلْكَ التي تَجيءُ في نَبْضِ ما يجِيء
كأنّكِ بعْضٌ منّي وكأنّي بَعضٌ منكِ

هُوذَا أنا ، وقَدْ اتّحدْنَا ،
محْمولٌ بكِ إلى الأيّام الأُولى مِنَ الخليقَة التي اغتسَلتْ بماء الأردُن
وأدْخُل معكِ عالَماً يَمْتدُّ بيْنَ الحجَرِ وأخيه الإنسانِ ولا حُدودَ لهُ
غيْر الهَواء والضّوْء

ـ كلاّ ، لنْ أُصغيَ إليهمْ

ـ مِيلُوا قليلاً إلى تلْكَ القاعةِ التي يتفتّت فيها مِسْك التّارِيخ

أيّتها الجَدّة الطيّبة

ما هَذا السرُّ الذي يغْلبُ الشّرْعَ؟ صَدقْتِ
لا بالشّرْع يُفَسّرُ الكونُ بل بالحُبِّ

وهَا هُوَ جارُكَ البحرُ الميّتُ يَصْعَدُ بطيئاً في اتّجاه يَنابيعِهِ
ماؤُه مريضٌ ولا راحةَ لهذا الدّخانِ الذي يتبَخّر مِنْ أحشائه
في الطّرُق جَحِيمٌ وحوْلَها يعلُو كُرسِيُّ اللّه

ـ إنْ أعرْتَ أُذُنيْكَ لِغيْر مُوسيقَاهُ انْطفَأ صَوْتُك
يصعدُ البحرُ الميّتُ   لاتزالُ الذّروةُ في الجِهَة الثّانية منَ الطّرفِ
الأقصَى   كَنَزْتُ اليأسَ ولَبِسْتُ الجراحَ لكيْ أستَطيعَ
أنْ آمُلَ   غيرَ أنّ الخريفَ يغْزُو الكلامَ وفي الخَريف
يتكلّم الغُصنُ بحُنجرةٍ جَفّتْ   فِي الخَريفِ تطفُو أوراقُ
اللّقاء علَى وجْهِ الموْت
ـ بَلَى
سَأكُون أنا نَفْسِي رَبيعيَ الخاصّ
وسَأكتُب آخرَ قصائِدي
على آخرِ ورَقةٍ

مِن هَذا البَرْديّ الأخِير

الميّتُ البحْرُ يصعَد
وفيما أهْمِسُ أيّتها الجَدّةُ الطيّبةُ   احْتَضِنيني ، مُلَوِّحاً
بِالوداع   أتخيّل حَيوانَ المُسْتَقْبَل
أتخيّلُ ذلكَ الجسَدَ الخلاسيَّ الذي يتَملْمَلُ فِي
أسِرّة الحجَر
أُصادِفُ رأسَ التّاريخ
وأُخطِئ
وليْسَ خطَأي إلاّ نَرْداً لِتذْجِين الدّهْر

بلَى
سأكْتُب آخرَ قصائدِي
على آخرِ ورَقةٍ
مِن هَذا البَرْديّ الأخِير .

(عمّان ـ باريس 18/10/1991-30/1/1992)

المهد

. . .   إذَنْ أدْعُو إلَى تَواطُؤِ الهَمْسِ والشَّمْسِ ، العُنُقِ والأُفُقِ
إذَنْ ، أُشَبِّهُ غُمْدَانَ بِالنَّهار ، وبَلْقِيسَ بِاللّيْل ، وأنا بَيْنَهُما الهَدِيل .

1

شَجَرٌ أيّامِه عارٍ ، والجذْرُ الذي نَماهُ يَأْخُذُ شَكْلَ الصَّحْراء ، وهَا هُوَ التَّاريخُ
يُلَفُّ بِالسّراوِيل ، والوطَنُ يُكْسَى بِالرَّمْلِ   لَكنْ هَذا الظّاهِرُ لا يَعْرِفُ
مَنْ هُوَ   يَعْرِفُهُ باطِنٌ لَمْ يَحِنْ ظُهُورُه   بالغِياب يَمْتَحِنُ
ويَستقْصِي ، وبِاسْمِ الحُضورِ يسُنّ شَفْرَةَ الكِتابَةِ ويُحَزِّزُ هَذِهِ الأرْض .

إنّها مُهْرَةُ الحِبْر تَخبُّ فِي سُهولِ الحُلْم ، لَكِنْ لأحْلامِهِ طَبيعَةُ
الجِبال   مَحاراتٌ وقَواقِعُ يلفظُهَا مَوْجُ الذّاكِرَة   الزَّبَدُ يَنْعَقِدُ أساوِرَ
في مِعْصَم الشّاطِئ ، والصَّخْرُ صَنّارَةُ الهَواء   ورأى أنّ
لأيّامِهِ جَسَداً تَمْسَحُهُ الرِّياحُ بِرِيشِها ، وأنّ دَرْبَهُ غاباتٌ تَحْتَرِقُ

كيفَ يُحَرِّرُ هذا الأُفُقَ الذي يَلْتَهِمهُ مِنْشارُ الرُّعْب؟

2

قال أنْسَلِخُ مِنْ أنْقاضِي وأرْمي نَرْديَ النَّبي ، ــ
«عَلي أحْمَد سَعيد ، اسْمٌ يَمانيّ» ،
سَمِعْتُ هَذا مِراراً والنَّقْشُ الذي بَقِيَ مِنْ قَصْرِ غُمْدانَ يَعْرِفُ
اسْمي والحَجَرُ الذي نُصِبَ لِعَشْتَرَ يَتذَكّر اسْمي لِي في تُرابِ اليَمَن
عِرْقٌ مَا طِينَتي قابِلَةٌ وغَريزَتي حُرّة ، ــ
أنا الأُسْطورَةُ والهَواءُ جَسَدي الذي لا يَبْلَى

هَكذا ذَهَبْتُ معَ ظَنّي الجَميلِ انْسَلَخْتُ مِنْ أنْقاضي ورَمَيْتُ نَرْدي
النبيّ /
هُوذَا أتوَهَّجُ مَع رامْبو بَيْنَ جَمرةِ عَدَنٍ وتَباريحِ المَنْدَب عارِياً
مِنّي مَكْسُواً بِها أضيعُ فيها وتَتضوَّعُ فِيَّ ــ
عَدَنٌ / قَدماها مَوْجٌ
جِذْعُها بَراكين فَجْرُها يَطوفُ ساحاتِها بِقميصٍ مِنْ نارٍ وحينَ يَقْرَعُ
بابَكَ مَحْمولاً علَى أجْنِحةِ النّوارِس تَنهَضُ وتَجْلِسُ مَعَ شَمْسٍ تَجْمَعُ
بَيْنَ حِكْمَةِ الغُرابِ وعُذوبَةِ البَجع تَرى إلى البَواخِرِ تَتدَوَّر قِباباً تَكْتَنِزُ
المُحيط وَمِنْ كِتابِها مَفْتُوحاً علَى مَدى الزُّرقَة تَسْمَع كَلماتٍ لَم
تألَفْها تُفْرِغُها علَى صَفَحاتِ الشّوارِع رافِعاتٌ وعَرَباتٌ / مَحابِرُ وأقْلامٌ مِنْ
مَعْدَنٍ آخَر وكُنْتُ أسْمَعُ كَلِماتٍ أخْرَى تَتساقَطُ علَى الأرْصِفة / يَمْتلِئُ
وَجْهُها بالْجِراحِ ولا شِفاءَ لِرُضوضِها وبَيْنَ أسْلاكِ الحَديدِ وأسْلاكِ القنّبِ
يَتصاعَدُ الصّخب :

عُمّالٌ يَفْتحونَ خَزائِنَ المَوْجِ
عُمّالٌ يُفْرِغونَ ويَفْرِزونَ
عُمّالٌ يَحْزِمونَ ويُكَوِّمونَ

وتَرَى إلى العرَق يَتدحْرَجُ علَى جِباهِهِمْ وأعْناقِهم وتَتمَرْأى فيهِ كأنّكَ تَتمرْأى في ماء عالمٍ جَديد وتَرَى إلى طُيورِ البَحْرِ تَتكتَّبُ وتَهْجُمُ تُريدُ أنْ تُشارِكَ في هذِهِ الضجّةِ الخالِقة وتُنْسيكَ طَلاسِمُ التَقْنِيةِ التي تَكْتُبُ المَدينَةَ طَلاسِمَ كُنْتَ تَتوسّلُها في طُفولَتِكَ لِتَقْرأَ الغَيْبَ

... / وأخَذَتْ عَدَن تَتراءى قَصيدَةً لَمْ تُكْتَب وكانَ رامْبُو قَدْ حاوَلَ، ـ اسْتَخْرَجَ حِبْراً آخَرَ مِنْ كِيمِيائِها ، لَكِنْ خانَتْهُ كِيمِياءُ العَصْر .

3

أتَحدّثُ معَ عَدَنٍ وتُوحِي إلَيَّ صَنْعاء تَسيرُ معَكَ الأولَى وتُقْبِل إلَيْكَ الثّانِيَة فِيما تَجْلِسُ حَوْلَهُما الجِبالُ كَمثْلِ شُهُبٍ هَدّها السّيْرُ .

صَنْعاءُ ــ تسنُدُني أشْجارُ السِّدْر تُظَلِّلُني أشْجارُ العَرْعَر
تَحضُنُني بُيوتٌ أعْشاشٌ تُواكِبُني مدَرّجاتٌ سَلالِمُ
وحينَ أنْخفِضُ في تِهامَةَ وألْتَبِسُ بِعُشْبِ الأقاليم تَتخطّفني
نَباتاتٌ تَتآلَفُ معَ الصّخْرِ ونَباتاتٌ تَعشَقُ الملوحَة وتَنْفجِرُ

أمامِيَ الأوْدِيَةُ حُقولاً فَيْضيّةً ـ وهَا هِيَ المِياهُ أمّهاتٌ يُرْضِعْنَ النَّخيلَ والأثْلَ الأرَاكَ والطّلْحَ   ويُرْضِعْنَ حَشائِشَ لا تَفْقَهُها اللُّغَة

صَنْعاءُ ، ـ أسْتسْلِمُ لِمُهْرَة الحِبْرِ وأُلْقي رأسِي علَى خاصِرةِ أحْلامِها : هَلْ أهْمِسُ لِبَلْقيس أنْ تكْسِرَ عَقْرَبَ الوَقْتِ؟
هَل الذّاكِرةُ بلْقيسُ هَلْ بلْقيسُ النّسيان؟   هَلْ بلْقيسُ نَجْمةُ العَصَب هلْ هِيَ أنينُ القَصَب؟ هَلْ هيَ الضَّوْءُ تُفْرِزُهُ شَمْسٌ لا تَتْرُكُ أثَراً لِخُطُواتِها؟ هَلْ هيَ الحَنانُ يَدْفُقُ عارِياً وأغْزل كَماء اليَنابيع؟   هلْ هيَ المنْجَلُ يَحْصُدُ الظّلام؟   السُّؤالُ يجمَح ولا أعْرفُ كَيْفَ أرَوِّضُهُ

لِي في تُراب اليَمَن عِرْقٌ ما ،
والخَريفُ الذي يَتساقَطُ مِنْ أعضائي وَرقٌ يكْتُبُهُ مَهَبُّ المَرارات   يَتساقَطُ فِي خَيْطٍ يَجيءُ مِنْ جَنائِنَ عُلِّقَتْ بقَدَمَيْ كَوْكبٍ تائِه ، جَنائِن تَنعكِسُ فيها الفُصولُ وتَعومُ أشْلاءُ النّهارِ واللّيْل   جَنائِنُ أجْهَدُ فيها أنْ أُعَرّيَ الرّقيمَ والكَهْف   أنْ ألامِسَ نَصْلَ اللِّقاح حيْثُ يَرقدُ غُبارُ الطّلع   أجْهَدُ أنْ أكْتَشِفَ وَحْدَةَ الشّفاه بَيْنَ الزّهْر والنّحْل وأنْ أنْقُشَ الجانِبَ الآخَرَ مِنْ عُمْلَةِ السرّ

لي في تُراب اليَمن عِرْقٌ ما ،

هَلْ يُجْدي هَذا الجَيْشُ الذي أتَقدَّمُهُ في جَبينِ هَذهِ اللَّيْلةِ حَيْثُ
يَخْرجُ طائِرُ الرَّغْبَة نَحْوَ سَمْتٍ مِنَ السَّرْخَسِ ودوّار الشّمسِ؟ هَلْ
يُجْدي ذلِكَ الحُزْنُ الذي أصْقُلُ صَفائِحَه بأهْدابي؟ خَيْرٌ لي أنْ أتوتّرَ
قَوْساً لِسَهْمٍ أخْتارُ فيه مِنْ أينَ وكَيْفَ خَيْرٌ لِي أنْ أرْسُمَ خَريطَةَ
أحْشائي وأتَنقّلَ بيْنَ تُخومِها فِي هَذيانٍ أُهَنْدِسُ عَماراتِهِ وأفْرِضُ
علَيْها ضَريبَةَ المَفاتيح

هَكذا أُطْعِمُ كائناتي خُبْزاً آخرَ وأغيِّر آدابَ المائِدة وحينَ يَجْلسُ
الزّمنُ إليْها أُعَدِّلُ جلْستَهُ ماسِحاً كَتِفَيْهِ بِحَنانِ شَيْخٍ يَموتُ ثُمَّ
أملأُ الكُؤوسَ بِخَمْرةِ الفَجيعَة وأُنادِمِ الرَّفْض

لي فِي تُراب اليَمنِ عِرْقٌ ما ،
أقْدامُ حَديدٍ تَسْقُفُ المَكانَ نِساءٌ يَنْقُشْنَ قُبُلاتهنّ علَى شَفَتَيْ
عصْرٍ يَتغطّى بالإسمَنتْ
لَيسَ لذي يَزَنٍ إلاّ أنْ يُغالِبَ أسْواراً
يُحْتَضَرُ وراءهَا الأسْرَى وإلاّ أنْ يَسْتطلعَ الدُّروبَ في آثارِ خُطُواتِهم
لَيْسَ لهُ إلاّ أنْ يُكَرِّرَ قِراءاتِهِ لأبْجَديَّة الغُبار

صَنْعاءُ ، نَوافِذُ بِلُطْفِ الطُّفولةِ مَمرّاتٌ كأنّها الكِتابَةُ وبَيْنَ الخَط
والخَطِّ فَواصِلُ وحَرَكاتٌ تُوَشْوِشُ ، ـ
للقَناطِرِ خُيولٌ وهَذا القَوْسُ حاجِبانِ وثَمّةَ أقْمارٌ تَقْفِزُ مِنْ أعالِي

البُيوتِ ومِنْ أطْرافِ المآذِنِ يَنْكَسِرُ شُعاعُها ويَلْتَئِمُ غَلائِلَ وعَباءات
وفي الأزِقَّة المَرْصُوفَة بأسْنانِ تاريخِ شيخٍ كُنْتُ أتَخَيَّلُ وَقْعَ قَدَميَّ
مَمْلوءاً بأشْباحٍ لَهُنَّ هَيْئَةُ الكَواكِب .

4

ـ «حَقّ العشْرين بِعَشْرَه ، يا بَلاشْ يا بَلاشْ» / يُكَرِّر طِفْلٌ نِداءاتِه يَسْحَبُ خُيوطَ صَوْتِه بَيْنَ سُوق البَزّ وسُوق النُّحاس فِيما يَرْفَعُ مِرآتَهُ الصَّغيرَةَ في اتِّجاهِ شَمْسٍ تَتسَكَّعُ بَيْنَ الأرْجُل وفي أريجٍ مِنَ البَهارات تَتشابَكُ الأسْواقُ أوْرِدَةً وشَرايينَ في هَذا الجِسْمِ الذي لَيْس مِن واقعٍ ولا حُلْمٍ

صَنْعاءُ ، ـ آخذُكِ بَيْنَ ذِراعيَّ نَمْشي معَ رِجالٍ يَرْفَعونَ
النَّهارَ مِظلَّةَ أحْزان معَ نِساء يَحْمِلْنَ علَى أكْتافِهنَّ
هُموماً بلَوْنِ الزَّبيبِ ولَيْسَ لأقْدامِهنَّ إلاَّ شَهْوَةٌ واحِدة :
أنْ تقبِّلَهَا الرِّيح

قَناديلُ وجَامعُ أرْوَى يتَّكِئُ علَى رِياضيَّاتِ سَبأ قناديلُ
انْطَفَأَتْ ولَها شَرارةُ الوَحْي أقْرأُ أسْرارَها مَتْناً مَتْناً وأُرْجِئُ
الهَوامِشَ والتَّفاصيلَ ثمَّةَ عَصْفٌ ما وأسْألُك
أيَّتُها القَناديلُ أيْنَ السَّاهِرونَ ومَنْ يُمْسِكُ بالزِّناد؟

أوَّلُ السُّوق / مَهلاً ـ لَيْسَ هَذا ماءً بَلْ دَمٌ لَيْسَ هَذا جِداراً بَلْ

العَمودُ الفِقَرِيّ لِرَجُلٍ قالَ مَرَّةً كَلاّ
آخِرُ السُّوق / امْرَأَةٌ كَوْكَبٌ آبنوسيٌّ يَسْبحُ في أثير التنهُّدات
ـ «أَلَنْ نَلْتَقي بَعْدُ؟»

تَرَكْتُ اللّيْل يَنامُ علَى عَتبةِ بَيْتِها فيما كانَت نَجْمَةٌ تتهيّأُ لِكَيْ تَقْتَحِمَ غُرْفَتي وتقْرأَ جَسدَها عليَّ
وكانَتِ الأَسْواقُ تَهْدِرُ وتتمَوّجُ فيما كُنْتُ أَسْتَعيد قَوْلَ الهَمَدانِيِّ :
«لا تَلْحَقُ بِحسْناء صَنْعاءَ امْرَأةٌ مِنَ العالَم» .

أتحدّثُ معَ صَنْعاءَ وأتجوّلُ في عَدَن ،
صَيّادُونَ يَرْسُمونَ ظِلالَهُمْ علَى البَحْرِ حَضَرٌ وبُداةٌ
يَسْتَنطِقونَ جسَدَ المادّة ويَرْجُونَ ذاكِرةَ الشّواطئ تَنفُرُ أَحْلامُهُم أحْصِنَةً تصْهلُ ، ـ

فَرَسُ شَهْوةٍ
شُعاعُكَ أيُّها التّاريخُ وقِشْرَتُكَ تُعاكِسُ شَهَواتِنا لَكِنَّ سِلاحَكَ صَدأٌ ونَحْنُ صَوّانُ الرَّغَبات نَخْتارُكَ أيُّها الصّوّان بَيْنَ مُلْكِ الصَّحْراء بِكَ تَسَمّيْنا انْشِقاقاً بِكَ فَكَكْنا بِكَ تَماسَكْنا والتَحَمْنا وأنْتَ فِينا شَقيقٌ لِلْماء (الصّوانُ ماءٌ جامِدٌ الماءُ صوّانٌ سائِل)

أقُولُ عَدَنٌ وصَنْعاءُ وأُضْمِرُ هَذا المرَكّبَ ـ المَهْد /

«. . . نَحْنُ آسِيا وأفْرِيقِيا مَغْسولَتَيْنِ بِماء المُستَقْبل مَكْسوَّتَيْنِ بِسَعَفِ البِدايات   ولَسْنا مِنْ عَصْرِ المَعْدِن بَلْ مِنْ عَصْرِ الإنْسان»

أقول عَدَنٌ وصَنْعاءُ وأعْني هَذا المركّب ـ المهد /

ـ كَيْفَ لِغُمْدانَ أنْ يظَلَّ شاباً مُنْذُ آلافِ السّنواتِ؟

ـ كَيْفَ أجيبُ وأنا «حَصَّنْتُ غُمْدانَ بِمُبهَمات؟» (إكْليل الهَمَداني)

صَنْعاءُ، ـ مِنْ هُنَيْهة رأيْتُكِ في صورَةٍ والآنَ تَتحوّلينَ   أنْتِ الثَّوبُ يُفْتَقُ ويُرْتَقُ بِرِقَّةِ الهُدْبِ وما أغْرَبَ الخَليطَ الذي يُنْسَجُ هَذه اللَّحْظَة /

سُوق الحَرير، ـ

امْرَأةٌ مِن جِنِّ سَبأ   ثَوْبُها تَعْريشُ بَطرٍ وتَخْريمُ
شَهَواتٍ   حافِيةٌ وكُمّاها طائِران
لَوْحٌ: «أبْكارُ النِّساء كَإناثِ الخَيْل
لا يَسْمَحْنَ إلاَّ عَنْ صَهيلٍ ومُغالَبة» (بلقِيس)

سُوق الحَبِّ، ـ

نَقْشٌ: «هَذا العالَمُ لا يَحْلُو فِي عَيْني
وما لا يَحْلُو فِي العَيْنِ لا يَحْلُو فِي الفَمِ».

سُوق الذَّهَب، ـ

لَوحٌ: «كلّ قَريبٍ شاسعٌ».
نَقْشٌ: «يَزْهَدُ العاقِلُ كأنّهُ المَوْت
ويَعْمَلُ كأنّهُ الأبَدُ».

سُوق الفِضّة ، ـــ

نَقْشٌ : «يُوقِنُ الصّائغُ لِيُصْلحَ نَفْسَهُ
ويُتْقِنُ لِيُصْلحَ الدُّنيا» .

سُوق القات ، ـــ

رُقْعَة : «تُدرِكُ يَداي ما لا تَراهُ عَيناي» .

سُوق العطارة ، ـــ

رُقْعَة : «يَذْهَبُ عَنّي ما أُريدُ ويأْتِيني ما لا أُريدُ» .

سُوق الزّبيب ، ـــ

نَقْشٌ : «أَنا راعِي الحَيّ فإذَا سَكرتُ ضَاعَ» .

سُوق الحنّاء ، ـــ

لَوْحٌ : «ما لَوْنُ الربِّ؟» (بلقِيس)

لِي في تُراب اليَمَن عِرْقٌ ما ،
أهْبِطُ معَها إلى البِدايات كَيْ أُحْسِنَ اكتِشافَ ما يأتِي
شَقائقُ نُعْمان
سِلالُ عِنَبٍ تَنْهَضُ مِنْ أسِرَّة التِّلالِ نَهْدانِ يَسْتَعجِلان
ووَراءهما يَتفتَّتُ فَخّارُ الأزْمِنة شُكْراً لِلْحبِّ
المُزْدَوِج شُكْراً لِحِكْمَة صَوّانٍ يَسْتَوْهِمُ أنّهُ صَديقي
وأنتِ حاذِري أنْ تَبْتَردي ـ أُغَطِّيكِ يا أسْراري
صَنْعاءُ ، ـ حَقاً تُقِلّني الرّيح أتعلَّمُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ومَنْطِقَ كُلّ شيْء
تَسيرُ مَعي الجِبالُ وتَجْلِسُ وَرائيَ الجِنّ .

5

«نُونْ والقَلَمِ وما يَسْطُرون»

«تَطاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنا دَمّونْ
دَمّون إنّا معشَرٌ يَمانُونْ
وإنّنا لأهْلِنا مُحِبُّونْ» /

اهْبطْ ، أيُّها الشّاعِرُ ، إلى الكَثيبِ
الأحْمَرِ في أسْفَلِ وادي الأحْقافِ ، واسْألْ قَبْرَ هُود : مَنْ أنْتَ ، ومِنْ أيْن؟
إيل / عَلِي
أُقْسِمُ بِهذا الوادي ، كُنْتُ أسْتَطيعُ مُتَوكِّلاً على امْرِئِ القَيْس ، أنْ
أتَسَلَّقَ الفَضاءَ وأنْ أخْتَرِقَهُ ،
ولَسْتُ ساحِراً ولا أدَّعِي النُبوَّة .

كانتْ أطْرافِي قَدْ امْتلأَتْ بِلَيْلِ حَضرموْت ، وازَّيَنَتْ حَواسِّي
وكُنْتُ اسْتَيْقَنْتُ أنّ اللّيْلَ فِيها لَيْسَ مَغيباً لِلشَّمْسِ وأنّ السّماءَ
فَوْقَها لَيْسَتْ قُبّةَ الأرْضِ بَلْ ثَوْبُهَا الّذي يَلْتصِقُ بِجَسدِها ـ

سِين ذَات حَميم عَشْتَر
يا لَلْجَسَد ـ هادِراً بِنَشيدِ البِداياتِ
لا تَتَّسعُ لِخُطُواتِهِ ساحَةُ الوَقْتِ ،

يا لَلْجَسَدِ مَوْجاً يُزَحزِحُ شطْآنَ التّارِيخ ؛

إنّها النُّجومُ تَهْبِطُ إليّ ،
وها أنَا أتَشَرّدُ مَعَها
يَحْرِسُني التّراب نَفْسُهُ ،
وسِلاحُهُ الخَطّ المُسْنَدُ ، والنُّقُوشُ ، والتّماثيلُ ،

وفي كُلّ ناحِيةٍ مِنْ كِنْدَةَ يُدَنْدِنُ امرؤُ القَيْس
شفتَاكِ ، فاطِمُ ، عَسَلُ دَوْعن
نَهْداكِ تَمْرٌ مَدِينِيّ

وظَنّي أنّ هَذا المَدَى الذي ينْسجُهُ المَدَرُ قَدْ فَهِم طينَتي
وأنْتِ ، يا فاطِمُ ، سأُسَمّيكِ في هَذا الوادِي
بِاسْمٍ تَجْهَلُهُ الشِّفاهُ
وأنْتَ يا جَسَدي ، سأكْتُبُ بِالخَطّ المُسْنَدِ رَسائِلَ شَوْقِكَ إلَي المَعْنَى .

اهْبطْ أيُّها الشّاعِر
الفَضاءُ بَيْتٌ تَسْقفُهُ أحْلام النّساء
والقَمَرُ يَتسلّقُ الجُدْران ،
ويُوَصْوِص مِنَ النّوافِد ، ـــ

وها هِيَ الأزِقَّةُ والحُقولُ تَسْهَرُ كَمِثْلِ الكتُبِ التي تختَصِرُ الطّبيعَة .

سَيؤُون   تَرِيم   شِبام

أبواقٌ مِنْ عالَمٍ آخَرَ تَصْدحُ تَحيّةً لِلْعَناصِرِ
الأيّامُ تَنْزِلُ علَى سَلالِمِها كَمثلِ الأطْفالِ ،
ومُنذُ أنْ تَصِلَ الشّمْسُ إلَيْها ،
تَجْلِسُ علَى عَتباتِها وتَتَنهَّدُ كأنّها لا تُريدُ أنْ تَنهَضَ

اهْبِطْ أيُّها الشّاعِرُ ، ـ
أظُنّ أنّ ذاكِرَتي تَسيلُ في وادِي الأحْقافِ
أظُنُّ أنّ الزّمَنَ ينْكَسِرُ بَيْنَ يَديَّ كَمِثْلِ قَضيبٍ يابِسٍ
أظُنّ أنّ الجِبالَ التي تُظَلِّلُ أحْمَد بْنَ عِيسى المُهاجِرِ ، جاءَت تُشارِكُنا
الدّانَ في فُنْدُق سَيؤُون ، ذَلِكَ المَساءَ ، وتَرْقُصُ في طَرَبٍ شِبْه
صوفِيٍّ ،

أظُنّ أنّني قُلْتُ : لا شَكّ أنّني سَليلُ مُوسيقَى خَرَجَتْ مَرّةً
مِنْ حُنْجرَةِ السّماء ، ثُمّ آثَرتْ ألاّ تَعود
ـ أيّتها الموسيقَى ،
أهْلاً بِكِ علَى هَذِهِ الأرْض ، في دارِ هِجْرَتِنا الدّائمة .

والآنَ ،

جاءَتِ الشّفافِيةُ تَحْمِلُني وتتَعالَى أَقْدِرُ أنْ أتحَوّلَ أن
أتماهَى ومِثْلَما كُنْتُ الطيِّعَ أقْدِرُ الآنَ أنْ أكونَ الآمِرَ أقولُ
لِكُلِّ طينَةٍ كوني صُورَةً لِكُلِّ صورةٍ تكَوّني أعْطي لِلأشياء
حَركاتي وأهْوائِي يَمْتَلِئُ كُلّ شَيْءٍ بِضِياء هَذِهِ الخَليقَةِ وأكُونُ
قَدْ عرّيتُ الزّمَنَ /

رَمَيْتُ ثِيَابَهُ الحِجازِيّة فِي خِزانَة بِلْقيس
ونَثَرْتُ أيّامَه النّجْدية في مأرِبَ وما حَوْلَها
وأكُونُ قَدْ أجْرَيْتُ عَلَيْهِ ماءَ تَكْوينٍ آخَرَ ،
وكَسَوْتُهُ بِأنفاسِ لُغَةٍ ثانِيةٍ ـــ

هكذا أتكَلّمُ بِطَريقَةٍ تُجسّدُ

أصْدِقائي شُعَراءَ الجاهِلِيّةِ (أقْصِدُ شُعَراءَ البَصيرَةِ والهُيامِ
والرّغْبَةِ) أقولُ لِكَلِماتي أنْ تَنْتَشيَ في مَكانِها بَيْنَ شَفَتَيّ
وهَذا الضّوْء الذي يَجيئُها مِنْ أشْياء الواقعِ أُغْرِيها بِالسّفَرِ في
وَحْشِيّةِ سُقوطٍ لَيْسَ إلاّ صُعوداً آخَر
حيثُ نَرى لِلرّغْبَةِ جَسَداً يُولَدُ في الجَسَد
حَيْثُ نقْدرُ وَراءَ كَلّ حِجابٍ أنْ نُحَيّي امرؤَ القَيْسِ ،

وَنَسْتَشِفُّ عُمَرَ بْنَ أبي رَبيعَة ،
وحَيْثُ نَسْمَعُ الحَجَرَ والمَاءَ يَتحَدَّثانِ دائِماً عَنْ يُوسُفَ وامْرَأةِ العَزيزِ ،ـ

«نُونْ وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُون»

«تَطاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنا دَمُّونْ
دَمُّونْ إنّا معشَرٌ يَمانُونْ
وإنّنا لأَهْلِنا مُحِبُّونْ» /

سَلاماً حضرَمُوت ـ
أيّتُها العَيْنان السّوْداوان في هَذا الرّأسِ الأزْرَقِ الذي سُمِّي السَّماء ،
أيّتُها المَرْأةُ التي تَغْتَسِلُ بعَسَل دَوْعن ،
حِزامُها بَحْرُ العَرَب
وخَلْخالُها المَوْج .

6

. . . / إنّها ساعَةُ المَقيل ، ـ أرْبِطُ مُخَيِّلَتي بِتِلْكَ الخضرَة وأُخْلِي جِسْميَ
مِن دَبيبِ الهَواجِس
مَاذا؟ في قَراراتِي وَخْزٌ
«نَاسٌ يأكُلُ بَعْضَهُمْ بَعْضاً ثَمَنُ الرَّأس مِنْديل ولا شَيْءَ

إلاّ السّلاحُ والصّياحُ» /
هَلْ أجِيءُ مِنْ دَاء لا يَشْفَى؟

وخُيِّلَ إليّ أنّني أسْمَعُ صَوْتاً يلفظهُ قَيْءُ الصّحْراء يَتحدَّثُ عَنْ قَمَرٍ صِناعِيّ اسْتَقالَ مِنَ الجاذِبِيّة عَنْ مُسْتَوْصَفاتٍ لِلنِّساء الآليّات عَنْ فَنادِقَ وأعْراسٍ لِلْقِطَط
وتَراءَتْ لِي جُذوعٌ بَشَرِيَّةٌ مَبْتُورَةٌ تَلْتَئِمُ حَوْلِي تارَةً وتَتَمزَّقُ تَارَةً في أحْشائي وكُنْتُ كَمَنْ يَسْبَحُ في شَرْقٍ تَثْقُبُهُ بُحَيْراتُ الدّم وشُبِّهَ لِي أنّني في مِهْرَجانِ أعْناقٍ تَحْتَفِلُ بِذَبْحِها دُونَ أنْ تَدْرِي وتَمْتَمْتُ : أنْ تَكْتُبَ هُوَ أنْ تُهرِّبَ الكَلام /

لَنْ تُغْرينيَ أيُّها المَلاكُ والشّيْطانُ أعْقَلُ مِنْ أنْ
يُوَسْوِسَ إليّ عَيْنايَ تَفِرّانِ إلى الأمام وقَدَمايَ
نَشْوَةٌ ورَقْص الإيقاعَ الإيقاعَ ولْنَرْقُصْ فَوقَ
رَمادِ هَذِهِ الأزْمِنة

هَكذا ذَهَبْتُ معَ ظَنّي الجميل فجْأةً رأيْتُني أستسْلِمُ لألَقِ لَحْظَةٍ تَنْضَحُ بِرائِحةِ عُودٍ يُؤاخِي بَيْنَ النّسْيانِ والذِّكرى وأُصْغِي إلَى حَكيمٍ يُمْلي ـ
ـ «كَلاّ ، لَنْ تَجِدَ الطّبيعَةُ زُهوراً جَديدةً إلاّ في
جِراحِنا كَلاّ لَنْ يحْظَى تارِيخُنا بِنَبْضِهِ إلاّ في
مَنْفانَا» .

وحَسِبْتُ أنّ آسيا العَجُوز تَجْلِسُ فِي رِواقِ أرْوَى
والفُصولَ تَتبادَلُ قُمْصانَها بَيْنَ ذِي يَزَنٍ وعَشْتار .

. . . / إنّها سَاعَةُ المَقِيل ، ـ

أيّتُها الإيقاعَاتُ الطّالِعَةُ مِنَ الأوائِل أمْتَزِجُ بِك وأُضِيفُ بَصيرَتي إلَيْكِ أتْرُكُ لأوْتاري أنْ تَصْهَرَكِ طينَةً ثانيةً ومِنْ هَذا الرِّواقِ الذي نَرْعاهُ أصْدِقائي وأنا نَكْتُبُ لِتِلْكَ الجِهةِ المَطْموسَةِ مِنْ عُروبَةِ القَلْبِ لأولَئِكَ المسْحوقِينَ يَموتُونَ وهُمْ يَتقاسَمونَ الرّغيفَ لأولَئِكَ التّائهينَ يَسْقُطُونَ وهُمْ يَتشَبّثُونَ بِالأعالِي يُشارِكونَ الحُقولَ كآبَةَ الجَدْبِ ويُصادِقُونَ الهَواءَ لأولَئِكَ المَنْبُوذِينَ يَنْتَعلونَ الأوْدِيَةَ ويَلْتَحفونَ الجِبالَ

. . . / إنّها ساعَةُ المَقيل ، ـ

تَنْهَضُ في قَصائِدِنا أبْوابٌ وشُرُفات نَكْتَشِفُ زَوايا مِنْ جَسَدِ صَنْعاء لاتزالُ عَصِيَّةً علَى الصُّورِ نَسْمَعُ كَلِماتٍ فِي حُنْجُرَةِ عَدَنٍ لا شَواطِئَ لَها

ـ بِلادٌ نَاقَةٌ تَرْعَى أعْشاب الفِقْه /

الصّحْراء تابُوتٌ يَتَنقّلُ علَى رُؤوسِنا واللُّغَةُ بَبْغاءُ فِي قَفَصِ الرُّعْبِ

ـ كَيْفَ نَخْتَرِقُ هَذا الرّبعَ الخالِي؟ أيْنَ لُقْمانُ وحِكْمَتُهُ؟ هَلْ عَلَيْنا أنْ نَجْدِلَ شَعْرَ السّماء أعِنّةً لِخُيولنا؟ أنْ نَصْرخَ بِالنّجومِ مُدّي أيْدِيَك إلَيْنا؟ هَلْ عَلَيْنا أنْ نَشُقّ القَمَر؟

ـ مِنْ أيْنَ لِنَمْلَةٍ أنْ تُغْرِيَ نَسْراً؟

ـ تُناضِلُ كَمن يُقاتِلُ الغُبار كَمن يَكتُبُ أَبْجَديَّةَ الرَّمْلِ
كَمن يَرْضع ثَدْيَ الحَجَرِ
ـ الوَطَنُ فُرْنٌ يُطْبَخُ فيهِ مَنْ يَجِيءُ لإيلافِ مَنْ يَروح
ـ لَيْتَ السَّماءَ تَمْرٌ إذَنْ كُنّا أكَلْناهُ واسْتَرَحْنا
ـ ما أَنْتِ ومَنْ أَيَّتُها الشَّجَرَة؟
ـ ربَّما كُنْتُ حَبْلَ سُرَّةٍ بَيْنَ رَحِمِ اليأْسِ وسَريرِ الغِبْطَة رُبَّما كُنتُ لُغَةً يَلوذُ بِها الحَيّ فِي حِوارِهِ معَ المَيِّتِ رُبَّما كُنْتُ لَوْناً يُوَحِّدُ بَيْنَ قَوْسِ قُزَح وقَوْسِ الأيّامِ رُبَّما كُنْتُ إكْسيراً يَتْرُكُ لِكُلِّ شَيْءٍ أنْ يَسْبَحَ في شِعْرِهِ الخاصّ

ـ إذَنْ ما شَكْواكَ أيُّها القَاتُ الصّامتُ؟
ـ . . . أنَّ صَديقِي الوَقْتَ أقَلُّ اخْضِراراً مِنِّي /

هَكذا تَسْتَنبتُ قاتاً آخَرَ لا مِنَ الأرْضِ
لا مِنَ النَّباتِ بَلْ مِنَ الصَّبوةِ وانْفِجاراتِها ، ـ

نَشْوةٌ : حينَ تأسرُكَ العاصِفةُ استَسْلِمْ ،
لكِنْ كُنِ الوَترَ الَّذي يَعْزفُ الرّيحَ ،

حِكْمَةٌ : الغبارُ حِكمةُ اليَدِ والعتَبةُ غَريزَةُ القَدَم .

أُمْثولَة : أرْضَعَتِ الشَّمْسُ عَدَناً ونَسجَتْ لَها غَلائِلَ لا تَخْرِقُها أظافِرُ الدَّهْر .

شَطْحةٌ : النّجومُ في صَنْعاءَ قَطيعٌ
والقَمرُ راعٍ يَتوكّأُ على عَصاهُ وَراءَ سِياج الفَضاء .

مُكاشَفة : لَكَيْ لا تَتعثَّرَ في طَريقكَ أوْ تَسقُطَ
قُلْ لَقَلبِكَ أنْ يتَرجّلَ ويَمْشِي أمامَك .

لي في تُرابَ اليَمنِ عِرْقٌ ما /
مَنْ أجْلِ شَوارِعَ تَرْتَسمُ شامات فِي وَجْهِ النّهارِ
مِنْ أجلِ لَيْلٍ يَلبسُ النّجومَ قَلائدَ وأقْراطاً
مِنْ أجْلِ أراغِنَ تَضْحَك وتَبْكي في سرِيرَةِ كُلّ شَيْء
مِنْ أجْلِ غَرابةٍ تُهَيْمنُ علَى أحشائي
مِنْ أجلِ أيْدٍ تنسجُ البكاءَ خِياماً لِلْحُلْم
مِنْ أجْل مَجهولٍ أنْغَرِسُ فِيهِ وتَنْغرِسُ أرومَة الخَلْقِ ،
أقولُ فِي تُراب اليَمنِ
لي عِرْقٌ ما ،
وأنْتَمي إلَيْه
بَلَداً بَلا عُمْرٍ
كأنّهُ وَجْهُ الله .

هكذا نَنْضجُ في خَابِيةِ الزّمَنِ يَكْتُبُ دَمُنا ما لا تقْدرُ أنْ تمْحُوَهُ أَيْدينَا وكَيْفَ أكُونُ المُفْرَدَ وَمَا أنا، إنْ لَمْ أَلْبس الشّخُوصَ كلّهم إنْ لمْ أكُنْ هَذا الجَمْعَ؟ انظُروا إلى المَشْهَدِ يَتحرّكُ فيه

الخَليفةُ والإمامُ القاضِي والفَقيهُ المُشَرِّعُ والشُّرَطِيّ الأميرُ والجُنْديّ
أعْني يَتحرّكُ المُتمرِّدُ والمُرْتَدّ الثّائرُ والعاشِقُ الخارِجُ
والشّاعِرُ الصّعْلوكُ والفارِسُ
وبَيْنَ سَوْرَةِ القَلبِ تَتَفطّرُ شِعْراً وسَوْرةِ الذّهْنِ تَتلألأُ نظراً
أكتُبُ وأُعْلِنُ: كِتابَتي غِوايَةٌ ، ـ وأُكرِّر: لَسْتُ الجَوْهَرَ لَسْتُ النّوْعَ
النّقيّ أنَا جَواهِرُ وأنْواعٌ مَزيجُ قَمَرٍ وشَمْسٍ في
لحْظة واحِدَة
وَ«حينَ أضْحَكُ
أضْحكُ لِكَيْ أنْفصِل بِفرَحٍ عَنِ الماضي» (مَارْكس)
مُعْلِناً حَقّي في أنْ أكُونَ مُتَناقِضاً (مَنْطقي أكْثَرُ شُمولاً مَنْ
مَنْطِقكُم الظّاهِريّ)

وأنْتَ أيُّها الطّوفانُ يا صَديقِي تَقَدّمْ

هَكذا نَنْضجُ في خابِيَةِ الزّمَنِ ونَسْتَنبِتُ قاتاً آخَرَ، ـ

صَنعاءُ / «الإنْسانُ مِنْ حَيْثُ يوجَدُ لا مِنْ حَيْثُ يُولَدُ»
عَدَنٌ / «الإنْسانُ مِنْ حَيْثُ يَثْبُتُ لا مِنْ حَيْثُ ينْبُتُ»

صَنعاءُ / الجَسَدُ ثقافَةُ اللّغَة والحيَاة أنْ تُعاشِرَ المَوْت
عَدَنٌ / «لِماذا» هِيَ البَداهَةُ «كيْفَ» هِيَ المُشكِلةُ
صَنعاءُ / أُضَلِّلُكِ وأنا الهادي
عَدَنٌ / هَلْ أشْتمُ الفَلَكَ؟
صَنعاءُ / «الصّداقةُ رَضاعٌ ثان»
عَدَنٌ / لا سُلْطانَ كُلُّ إنْسانٍ سُلْطان
مَوْتٌ أنْ تَحْيا بِأفْكارٍ ماتَتْ الأفْكارُ لِكَيْ تَموتَ مِنْ أجْلِكَ

وأنْتَ أيُّها الطّوفان يا صَديقي تَقدّمْ .

7

الأُفُق جائعٌ وأنَا في خَليجِ عَدَنَ أخْبِزُ عَرَقي
أشْجارُ المُرَيّمِرةِ تَئِنُّ وتَكادُ أنْ تُجَنَّ وكَيفَ تقدِرُ أنْ
تَتَجنّبَ الفُؤوسَ التي تَخْرُجُ مِنْ نَعيقِ الغِرْبانِ؟

أُسْنِدُ جِسْمي عَلَى الغُروبِ أُوَحّدُ بَيْنَ مَشاعِري ولَعِبِ المَوْجِ
أقُولُ لِلرَّمْلِ الذي يَشْرَبُ المِلْح ولا يَرْتَوي : مِنْ أيْنَ لَكَ ، أيّها الضّامِرُ ، هَذِه المعِدَة؟
يا صَدْرِي ، يا صَدْراً بآلافِ الطّبَقاتِ ـ اكتَنِزْ بِهَذا النّسيم الذي يَهُبّ
في أحْضانِ الخَليجِ العَدَنيِّ لَوِّحْ لِتِلْكَ المَراكِب غَيْرِ المَرْئيّة التي

تَعْـمُرُ أُفق المَاء وأَوْسعْ فِي أنْحائِكَ المَرافِئَ أصْغِ لِشَمْسِ عَدَنٍ
تُوَشْوِشُ الخَليج وَهي تَغْتسِلُ بِرُطوبَةِ المَساء وانظُرْ لِهَذا النَّوْرَس
كَيْفَ يَحْمِلُ علَى كَتفَيْهِ عِبْءَ الشَّواطِئ

حقاً، لَكيْ تَدْخُلَ في إيقاع اليَمَنِ،
يَنْبَغي أنْ تَعْرِفَ كَيْفَ يُغَنِّي البُكاءُ الضَّحكَ، وكَيْفَ يَنامُ القَمرُ والشَّمسُ علَى مِخدَّةٍ واحِدَةٍ،
يَنْبَغي أنْ تَعْرِفَ كيْفَ تَكونُ في اللَّحْظَةِ نَفْسِها النَّهارَ واللَّيْلَ،

وكَيْفَ يَتحَوّلُ الغُبارُ في خُطواتِكَ إلى صَيّادٍ لِلْوَقْتِ،
يَنْبَغي أنْ تَعْرِفَ كَيفَ يُكْسَرُ الحَجرُ كَما يُكْسَرُ الجَوز.

... / أرْضٌ تَكتُبُ أعاجِيبَها بِحِبْرِ المادَّة البَحْرُ فِيها يَخْرُجُ مِنَ الصُّدورِ والأيْدي النَّجومُ تَطْلعُ مِنَ البُيوتِ
سمْعاً،

ما الّذي يَقولُهُ هَذا الحِزامُ الفِضّي لِخَصْرِ هَذِهِ المرْأة؟
ما هَذِهِ الشَّمْسُ التي تَنزَلِقُ خِفْيَةً في مُلاءةِ هَذِه المرْأة؟
مـا هَذِهِ الأَصْواتُ التي تَتحوّلُ إلى قُبَلٍ تَرْتَسِمُ هالاتٍ حَوْلَ جَسَدِ هَذِهِ المرْأة؟

كَلاّ، لَمْ يَصِلْ أحَدٌ إلى ذَلِكَ النَّهار الذي يَعْرِفُ وَحدَهُ كَيْفَ يَلْبسُ لَيْلَ هَذِهِ المرْأة.

نَفْهمُ الآنَ كَيْفَ تَسْتَنِدُ امرأةٌ يَمانِيةٌ إِلَى دُموعِها فِيما تَمْسَحُ الغُبارَ عَنْ وَجْهِ الأُفُقِ وكَيْفَ تلقِي التّاريخَ علَى كَتفيها كَمنْديلٍ أخْضَرَ   نَعْرِفُ الآنَ كَيْفَ تُزَفُّ عَرائِسُ البَحْرِ إِلَى رؤوسِ الجِبالِ   نَعْرِفُ اللّقاحَ الذي يُوَحِّدُ ويُعَدِّدُ   نَعْرِفُ كَيفَ يَعْملُ الجَبلُ لكَيْ يُصْبحَ سَماءً وكَيفَ تَعْملُ السّماءُ لكَيْ تُصْبحِ شَجرَةً نَقدر الآنَ أنْ نُسمّي الذّاكِرَةَ سَفينَةً وأنْ نَقولَ اللّيْلُ نَبْعٌ والنّهارُ إبْريقٌ ونَزْعم أنّ التّاريخَ كَثيراً ما يأخُذ هَيْئةَ شاعِرٍ ضَيْفٍ يأسِرُهُ الغِناء اليَمانِيّ

إنّها المادّةُ نَفْسُها تُطْلِقُ أفْراسَ المُخَيِّلةِ فِي الجِهات الخَفِيّة مِنْ كَوْكبِ الحَياةِ   أسْمعُ أجْراساً تَتدلّى مِنْ أعْناقِ الأشْياء   أكْتَشِفُ الأسْماءَ المَرْقومَةَ فِي كِتاب المجَرّةِ   أرَى الفَضاءَ عَتبةً لِرأْسٍ يَبْحثُ عَنْ وِسادةٍ فِي مَجْهولٍ ما ،
ولَسْتُ أتَحدّثُ عَنِ الغَيْبِ   أتَحدّثُ عَنْ هَذا الكَوْنِ الصّغيرِ ـ الإنْسانِ وعَنْ شَهْوتِه لِكَيْ يَحْتَضِنَ الكَوْنَ الكَبيرَ ويَلبس اللاّنهايَةَ

إذَنْ مِنْ إشْعاعِ البَشَرِ ومِنْ مَراكِب الظنِّ آخُذ هَذِه الحِكْمَةَ : لَيْسَ الإنْسانُ هُوَ الّذي يَنوءُ بَلْ الطّريقُ   وسَوْفَ نَتلألأُ فِي هَذا الكُسوفِ العَرَبيِّ نَفْتَتحُ طَريقاً آخَرَ   ونُطْلعُ شَمْسَنا الثّانِيةَ

اللّحَظاتُ تَزْدَهِرُ ضِدّ الصّحْراء والأشْياءُ انفِجارٌ ضَوْئيّ

الجَسَدُ أكْبَرُ مِنْ مَكانِهِ والعَيْنُ أوْسَعُ مِنْ فَضائِها ، ـ

نصْغِي لِكَي تَقولَنا مَوْجةٌ أوْ يبثّنا السّحَرُ نَدىً فَوْقَ
مُخْمَلِ الأرْض أو يَحْمِلَنا الصّباحُ ماءً وخُبْزاً ومَنْ
يَسْأَل الوَرْدةَ ماذا يَقولُ عِطْرُكِ أيّتُها الشّاعِرَة؟ هكذا لَنْ
يَسْأَلَكَ أحَدٌ : ماذا تَقولُ أيُّها الشّاعِرُ؟

وبَيْنَ العرَبيّ الذي يَلتَهِمُهُ الغَرْبُ والعرَبيّ الّذي يَلتهِمُهُ العَرَبُ سَيكونُ مَكانٌ لِتاريخٍ آخَر ، ـ

انْظُروا إنّها السّهولُ تَتدثّرُ بِغُبار الطّلع
إنّها البَراعِمُ تَدْخُلُ في أعْراسِ اللّقاحِ
«بلَى ، لاتَزالُ هُناكَ جَنّات» (مونْتيرْلان)
. . . أنْغمِسُ فِي نَواياي وأُهيّئُ حُروبي ، ـ
مُنْحَدَرُ التّاريخ يَنْعَكِسُ أعْطي نَشْوَةَ الحُلْم لِبَصيرَةِ
العَمَلِ أغْتَرِبُ لأعْرِفَ نَفْسي أهجّن
الأصالَة (أنْ تبدعَ هوَ أنْ تهجّن) وأسْأل مَنْ قالَ العَيْنُ هِيَ
وَحْدَها البَصَرُ؟ مَنْ قالَ اللّسانُ هُوَ وحْدَهُ الكَلامُ؟ مَنْ قالَ
اليَدُ لا تُفَكّرُ؟
وأقولُ الجَسَدُ إمْلائِي وشَرْعِيَ التّحَوّلات ، ـ
افْتَحي صَدْرَكِ يا مَليكَتي . .

. . . إذَنْ فِي انْفِجار التحَوّل تَبدُو الحَياةُ اسْتِعارَةً والحَقيقَةُ مجَازاً
إذَنْ أشَبِّه غُمْدانَ بِالنّهار وبلقيس بِاللّيْل وأَنا بيْنَهُما الهَديلْ .

(بيروت ، 10 آذار 1983)

المداعبة

1

اجْلِسوا لِكَيْ أقصَّ عليكُم نَبأَ الدّخان .

2

تَسكُن المدَاعةُ وحِيدةً في بيْتِ الكَلام
تَحْضنُها قَصَبةٌ تَصِل بيْنَ الماء والنّار .
فِي أسْفل قُطْبها
حيْثُ يَعومُ طيفٌ للنّرجِسِ ـ الاسْم العَربيٌ لزَهْرَةِ الأنَا ،
يحْلُم التّاريخُ هائِناً
تحْتَ هِلالٍ تَقوّسَ في شَكْل وسادَةٍ تتّكِئ عَلَيْها القَصَبة
للْقصَبة جَسَدٌ ليس لِهذَا الهِلالِ ، ولَيْسَ لَها ،
هُوَ لشَخصٍ آخَر ـ
حَرّكْ شَفَتيْكَ قَدْ يكونُ أنْتْ ،
تَنْتهي القصَبةُ إلَى الجَوْزةِ (اسْمُها كذَلِكَ الحَبّةُ ، والنّارَجِيلُ ،
والرّمّانة) ،
ظاهِرُها حَديقةُ ألوانٍ وزَخارِفُ ونقُوش ،

باطِنُها يمامَةٌ تحْملُ بُحَيْرةً شبْهَ سَوْداء
لا أراهَا ،
لكِنْ يُخيَّلُ إليَّ أنّني أرَى فيهَا جَبَلاً مِنَ الدُّخان
وأرَى حُوريّات وأَسِرّةً ،
ولِلْقصَبةِ طَرفٌ هُوَ المَشْرِبُ يَتقطَّر فِيه البُورِيُّ ـ بيتُ التّبغ ،
لِهَذا الطَّرفِ مَبْسَمٌ
حِينَ تُطبِقُ شفَتيْكَ علَيْه ، تَتذكَّرُ الثَّدْي والرَّضَاعَ ،
سائِلاً نفْسَكَ : ألَسْتِ هذَا المَزيجَ مِنَ النّارِ والمَاء والهَواء؟
ثُمّ يَطيبُ لكَ أنْ تُوشْوِشَ جَسَدكَ : أنتَ نفْسُكَ جزْءٌ مِنْ هذَا النّسيجِ الذِي
يجْمَعُ بيْنَ السّماء والأرْض .

3

يأْخُذكَ شَطْحُ العيْن (هُنا لا تنظُر العينُ بلْ تَتخطِف)
في جَمادٍ يَلبسُ آدميّةَ الحركَة ،
لا تكادُ تخْلصُ من هذا الغَزْوِ بالعَيْن حتّى يغْزُوكَ شَطْحُ التأمُّل : مَشهَدٌ
لتارِيخ لا تعْرِفُ كيْفَ ابتَدأَ ومِنْ أين
أيّةُ بصيرةٍ
هَذه التي رأَتْ ورسَمَتْ أيّةُ يَدٍ هذِه التي نفّذَتْ ولِمَنْ كانتِ الشّفتان
اللّتان قَبّلتا ذلكَ المَبْسَمَ للمرّةِ الأولى؟
مِنْ هَذا المشْهَد ، تنْبَثِقُ المُخيّلةُ آتيةً مِنْ عُمقٍ غيْرِ مرئيٍّ حيثُ تتلألأُ
المآذنُ وأشجارُ النّخِيل الغِزْلانُ وألْفُ ناقةٍ وناقَة القُصورُ والقِلاعُ

الدّروبُ والقَوافِلُ حيْثُ لا مكَانَ للْمَكانِ وحيْثُ الزّمنُ طِفلٌ لا يفارِقُ سَريرَهُ أهُوَ الشّرْقُ أمْ هُوَ الكيَانُ الذي أفْلَت منْ يدِ الخالِق دُونَ أن يكْتمِلَ آثرَ أنْ يظلّ عالِقاً بشهْوة البَدء؟

في السّحاب الذي يتَبخّر منَ النّارَجيل نَجْلسُ نقْرأُ الأرضَ ـ وسَطَها وأطْرافَها . القرّاءُ شَياطينُ رأْيِ ملائِكةُ لغَةٍ يُطلِقونَ أجنحَتهُمْ فِي فَضاء المَقيل

وبيْنَ الكَلِمةِ والكلمة الفكرةِ والفكْرة يَبْنُون أعْشاشاً لطيورِ التّاريخ

ما الغرْبُ ما الشّرقُ ماهَذهِ العُروبَةُ بينهُمَا؟

المَقيل ـ حلْقة 1

ـ لا شرقِيّة لا غرْبِيّة
بلْ نكْهَةُ مُستَقبل في فَمِ النّبُوة
ـ الشّرقُ الشّمسُ سافِرةً
والغربُ الشّمسُ مُحَجّبةً
ـ الشّمسُ سَريرٌ في الشّرْق
سَريرةٌ في الغَرب
ـ شَرْقُنا لا يُحبّ المرْأةَ إلاّ
مِنْ ورَاء حِجاب ـ
ـ رُبّما لكَيْ يتآلفَ معَ الغِياب
رُبّما لكَيْ تكُونَ المَرأةُ حِجاباً له :
موتَه قبلَ الموْت

المَقيل ـ حلْقة 2

ـ يَتحدّثُ مع النّسْيانِ ،
وهَا هُوَ يلْتَقيه في بيْتِ الذّاكِرَة .
ـ قلّما تتّسعُ شجَرةُ الذّاكِرَة
إلا لطُيور الموْت
ـ ألا يُعلّمُنا الشّعْرُ أنْ نُعْطِيَ
تجَاعِيدَنا للرّيح ،
ووجُوهَنا للأُفق؟
ـ الخَمْرةُ العجُوزُ ليْسَتْ عجُوزاً
ـ الشّعْرُ هوَ كَذَكِكَ يبْكِي . .
ـ لكِنْ لا يمْسَحُ دموعَهُ إلاّ بمنَادِيلِ الفَرَح

ـ لا يُعرَفُ الشَّرقُ إلاّ بغَيْره :		ـ اللّيلُ نفْسُهُ
أتُريدُون أنْ تعْرِفُوا الشّرْق؟		يخْلَعُ ثِيابَهُ ويضَعُها بيْنَ يدَيْ الشّعْر
إذَنْ اعْرِفوا الغَرْب .		ـ الشّعر هو جنوننا الحكيم .
ـ الشّرقُ خامةٌ والغرب يَصقلُ ويجلو
ـ الشّرق يَزرعُ ولِلْغَرْبِ الحَصَاد		ـ . . . .
ـ أيْنَ الشّرْق؟
ـ . . . .

نَتَحدَّثُ كـمَنْ يبْنونَ أعْـمِدَةً منَ الضّوء ، فـيـمـا يبْنون سُـقـوفـاً منَ الغـيْم لكنْ ، واحِـدٌ هوَ صـوْتُنا الآخَـرُ ، ـ نحْنُ إلى جـانِبِ كلِّ فَريسَةٍ ، باسْتِثْناء واحِدَة : الظّلمَة ـ مُمزَقةٌ ومحْمُولةٌ علَى أسِنَّة الضّوْء
أصْوَاتٌ أصْواتٌ أصْواتٌ
تُحاوِلُ أن تشْهدَ الأشْياءَ في بَريقِها الأوّلِ تحْفِرُ في الأعْماقِ في ذَلِكَ الدّاخِل حيْثُ البَشرةُ أكثرُ عُمْقاً وأكْثر غُموضاً منْ ذَلِكَ الطّيفِ الذي يُسمّونه الرُّوح
أصْواتٌ أصْواتٌ أصْواتٌ
تَتقصّى ذَلِكَ الذي لا يُروَّضُ ولا يُمَنْهَجُ الواحِدَ الذي يتَنوَّعُ ويتَعدَّدُ ولا يَتناهَى العصِيُّ القَصِيّ

ضَعْ شفتيكَ علَي مَبْسمِ المَداعَةِ انزِلْ في جَوْفِ الوقْتِ اسكُنِ اللّغَةَ الصامتةَ الأخرى انظرْ إلَى الفَضاء حوْلكَ يفتَحُ صدْرَهُ لِساعةِ الحكْمَة

ثَمّة أعْراسٌ فِي الدّمِ كَريمةٌ وعاشِقةٌ وخضْراءُ   ويا لتِلكَ الكواكِب التي
تَتطايرُ بيْنَ الشّفاهِ سائرةً على أكْتافِ الكَلام
بلَى سَيشفى الوقتُ منْ جراحِ ألْسِنتنا وسَوف نُوسْوس للحُبّ كيْ
يُؤسّسَ للْغائبِ القادرِ وخْدَه أن يسْبحَ في جدْولِ الطفولَةِ   وأن يُوحّدَ بيْنَ
الجُذْجدِ والطّبْع الذي هُوَ الطّبيعَة
وسَوف يُسعِدنا أنّ الأفقَ ليْس لَهُ كاحِلٌ   وأنّ للجُذْجُدِ أنوثةَ الرّبابَة

ثُم ها هُو العُودُ ــ البَخور يمُدّ جِسْرَه بين كِيمْياء الجَسدِ وأثيرِ السّماء
فِيما تَتفتح خِفْيةً بيْنَ البورِيّ والصّحْن طريقٌ صوْبَ الأعماق أستشفّ
علَى ضِفافِها أوْراقاً   تشْهقُ في رِيح الهَجْر هرَباً مِنَ الوَرّاقين والكَتَبة
أوْراقاً تحْمِلُ مُدُناً مِنَ الإشاراتِ وعَوالمَ علَى وشَك الانْطفاء
وتكادُ الكَلماتُ أنْ تفرّ من حِبْرهَا لكَيْ تخْتبئَ تحْتَ إبْطَيْك
إنّه شَرْقُ الجسَدِ ،
لا جغْرافيةُ التّرابِ   لا التّخومُ   لا خاتَمُ العبُور
بَل اللاّمكانُ   الرّحِمُ اللاّنهائيّةُ للطّفُولات
إنّه الطّرسُ
أحكّهُ وأجْلُوه وأسْتقْصِيه
وأسَطّر فوقَه أيّامي .

4

تبغٌ جَمْرٌ دُخَان ـ

أينَما وضعْتَ حِبْرَكَ بيْنَ هذهِ الكَلِماتِ الثّلاثِ يخْرجُ كِتابٌ في الشّهْوَة
لا تكادُ أنْ تقلِبَ إحْدى صفحَاتِه حتّى يتبيّن لكَ الهبَاءُ
العربيُّ وتصْرخُ شُكراً لهذه المَداعَة

بهَا أتَذوّقُ طعْمَ الحضُور في دُخانٍ يَرقُصُ في أنفاسٍ تَتناغَمُ
حيثُ أشاهدُ قطْعانَ رغَباتي تتسكّعُ علَى أرْصِفَة الفَضاء حيْثُ أسألُ
نفْسِي هلْ أرْعَى هذِه القطْعانَ أمْ أتركُ لهَا أنْ ترْعاني؟
وتَدعُو الهُدوءَ والتأمّلَ والحكْمةَ إلى الجُلُوس معَكَ تُصْغِي إلَى أصْدِقاء
المَقيلِ يتَجاذَبُون أطْرافَ المَعْنَى وكلٌّ يدْخلُ في غيْمهِ الخاصّ ـ

أَمْطِرْ، أيّها المَقيلُ، غيْثَ المعْنَى
ليْسَتِ الأرضُ لكَيْ تفْهَمَها، بلْ لكَيْ تتآخَى معَها
ولكَ أن تَشْطَحَ ـ
العقلُ يدٌ بلا أصابع،
والحياةُ أوّلُ الموْت.

ويكونُ لكَ أن تكْتَشِفَ شهْوَةَ الحَياةِ بِسحْرٍ
يكتشف لكلِّ يوْم شَهْوتَه
وليْسَ أوّلُ الشّهْوة كآخِرَها والوسَطُ شَهوةٌ منْ طَبيعَةٍ ثانية ـ
مَسْرحٌ بمقْعَدٍ واحِدٍ
أنتَ فيه المُمثّل والشّاهِدُ،

والمشْهَد نَرْدٌ فوْقَ سُرّة الحَياة .

ثاء / ثوبُ القصَبَة يتلوّن هُوَ الأحْمرُ ، بالأسْوَدِ والأخْضر . يَتفتّتُ منْهُ عطرٌ
يوَشْوِشُ الهِلالَ الذي تَتكِئُ عليهِ القصَبةُ حيْثُ المكانُ سَريرٌ يتمدّدُ
فيهِ الزّمنُ هائِماً

صَاد / صوْتُ الماء في القصَبة مُدوّرٌ
يَتنقّلُ عَلى ظهْرِ هَواء يتنقّل في غيْمةٍ منَ الدُّخانِ حيْثُ يتصَاعَدُ
المَقيلُ محْمُولاً في عَرباتٍ تجرّهَا أحْلامُ اليقظَة .

قَاف / القُطْبُ شَكْلٌ لضوء عمُوديٌّ باطنٍ لا يراهُ غيرُ المُريد

جِيم رَاء / الجَوْزةُ الرَّحِمُ تحْبلُ لكِنْ باللذّة
سَريرُكِ مِن أهْوائي أيّتها اللّذة ،
وَرضَاعُكِ مِنْ ثَدْيينِ لا أسمّيهما .

قَاف / القَفشةُ علَى النّارِ تَاجٌ منَ النُّور
القَفْشَةُ على النّار
قُنزُحةٌ لِطائرٍ نزلَ لِتوّهِ
مِنْ حَدائِق السرّ .

5

أضَعُ شـفَتيْها بيْنَ شـفَتيَّ ، عَنيتُ المدَاعَـة ، رامِياً رئَتيَّ في جوْف الرّمانةِ حيثُ تسْتقبلها رِئةُ هَواءٍ يبدُو كأنه آخرُ الهَواء الذي تبقّى لنَا منْ فَرادِيسِنا الضّائِعَة

تَنْفتِحُ لي في كُلّ خَليّـةٍ منْ جسَدي أكثرُ مِنْ حَاسَّـةٍ أسْتـدْرِجُ تَعبي والَمْلمُـهُ ذَرّةً ذَرّةً منْ أعضَـائِي ثُمَّ أقـذِفُ بِه فِي تلْكَ القـصَبـةِ حـيثُ يتدَحْرجُ ويهْبط لكَيْ يغْتسِلَ في رُمّانة المَاء

في هَذِه الرّمانةِ يَجد الجَوفَ الذي يبتَلعهُ مأخُوذاً بهذا الغيَاب ، خِلافاً لجدّنا يُونُس (ولا أقول يُونان ، تجنّباً لالْتِباسٍ مُمكِنٍ بَينَه وبين وَطنِ هُوميرُوس) وأرَى إلَى تَعبي ينْفصِلُ عَنّي بَعيداً قَريباً يتَملْمَلُ يتَسلّقُ القطبَ يتَصوّر شهْوةً وجُوعاً إليّ ناقلاً أنينَه إلَى مبْسِمِ القصَبة ــ

«الحياةُ أوّلاً

واجْتهدْ أيّها العقْلُ لكَي تكُون لائِقاً بهَا» ،

أَفصِلُ شـفَتيَّ عنْ مَبسَم القصَبةِ وأنهضُ يَنهضُ هُو خارِجاً مِنْ جوْفِ الرمّانة يسْبقُني إلَى أعضائِي يعُود فيهَا إلَى التّيه

أنزلقُ معهُ وأهْبطُ أقولُ إنه الهُبوطُ الذي يرْفَعكِ ، يا نفْسي ، لكِنْ ، لمَاذا لا أتَذكّرُ في هَذِه اللّحْظة ، وأنَا فِي أوْج الغبْطَة ، غيرَ العذَاب؟ كَما لوْ أنّ الفرَح ليْسَ إلاّ العتَبةَ البهيّةَ لقصْرٍ اسمُه الحُزْن .

أضَعُ بيْنَ شـفـتيَّ شـفـتـيْهـا ، عَنِيتُ المـدَاعـةَ ، بادِئاً رسْـماً آخَـر لخُطوطٍ

أُخْرَى   طُولاً وعرْضاً لهذَا الكوْكَب الكُرويّ الآخرِ الذي أُسَمّيه الحُلْمَ وأنْتمِي إليْه كأنّه بؤبؤٌ في عيْن الكوْنِ ثمّ أهمِسُ للشّخص الذي يشعُّ في ثيابِي   انظُرْ إلَى القصَبة في ثوْبِها الأحْمرِ   في كل خيطٍ وطَنٌ وثَمّةَ نوافذُ وأبوابٌ أنت عبْرها القريبُ إلَى كلّ شيْء

وأكونُ كَرّرتُ علَى الشّخصِ الذي يشعّ في ثِيابي أطبِقْ شفَتيكَ علَى شَفتَيْ هذهِ السُّمَيْراء قُلْ لا غَيْبَ أبعدَ منْ ذلِكَ الذي يتدوّر بيْنَ أحشائِها   وقُلْ لا تُعَلّمُ الكُتبُ أكثرَ ممّا تُعلّم شفتَاك   ضعْ مبْسَمَها فِي مبْسَمِك تَنفّسِ الطبيعةَ   اشربْ ما وَراءَها استرسلْ فِي أحلامِك   استَنْفرِ العرّافاتِ اللاّئي يَنْحدِرْنَ من سَبَأ وما قبْلها وجاهِرْ   بلقيسُ كَلامٌ والنّبأُ سَبأْ.

إنّه شَغفي يُهرْولُ بيْنَ الخَيْطِ والخيط   إنّه اللّون يُجَنْسِنُ المكَان   يتَباطأُ جسَدِي يتَسارعُ حُلمِي
يا أعْضائِي
هَلْ أنتِ السّفنُ أم الشّواطِئ؟
وأسْتَشيرُ جَوزةَ المَاء
ويَكونُ لِي أن أقولَ لسْتُ أنَا مَنْ يعيشُ الغِبطةَ بلِ الغبطةُ هِيَ التي تعيشُني.

6

أيْنَ نجْمتُكَ ، أيّها القُطْب؟

أُذَكّرُ القطبُ عمودٌ لِلّذّة ، وقامةٌ وعِبْره نُواكِبُ المَسيرةَ التي يتآخَى فيهَا الجَمْرُ والمَاءُ آنذَاك تجْلسُ معَ المَداعة كأنّكَ تَجْلس علَى مقْعد منَ الدّخان يحْملهُ صوتُ القَصبةِ كمِثْلِ خيْمةٍ عائمةٍ تشعُر كأنّ أحداً في هَذه الخيْمةِ يُمسِكُكَ منْ ذراعيْك ويَعلُو ، يا لَلفراغ آنذاكَ ــ الفراغِ الذي يمْتلئُ بنكْهَةِ الدّهْر يا لَلْكَسلِ آنذاكَ ــ الكسلِ الذي يُقطّر العملَ كأنه خمْرةُ الأزمنةِ ومَا أَغْمضَ الشّهوةَ آنذاكَ وما أبْهاهَا .

أيْنَ نجْمتُكَ ، أيّها القُطْب؟

أُذكّر ليس للمَدَاعةِ ذاكرةٌ إلاّ هذَا اللّقاحَ بيْنَ الجَمْر
والنّار لا يُلامِس أيٌّ منهُما الآخرَ معَ ذلكَ يَمزج بَينهُما
نَفَسٌ يَطيبُ لكَ أن تؤمنَ به مؤكّداً أنه طالعٌ منْ فمِ السّمَاء

أُذكّر في هذَا اللّقاح يُعلّمكَ ذلكَ الفراغُ وذلك الكَسلُ أن تَبْريَ الطُّرقَ بأغْصانِك أن تقُولَ للدّخانِ أنتَ الغيمُ الذي يقْطعُ المَقيل نِصْفين نِصْفاً لشمْسٍ المخيّلةِ ونصْفاً لقمَرِ الجسَد .

أيْنَ نجْمتُكَ ، أيّها القُطْب؟

أُذكّرُ المدَاعةُ كمِثْل امْرَأةٍ تعْقِلُ حواسّها فيما تنْتظرُ منْ يُحرّرهَا

نَبْضـةً نبـضـةً بِبُطء   لكِنْ بحُنُوٍّ   كـأنهُ الضـوءُ   ولَيْسَ مِنْ شاهِقٍ   بلْ مَنَ القدَمَيْنِ وما حوْلهُمَا صُعُوداً
رُبّما آنذاكَ تَرى الحلمَ ينْزِلُ عَارياً منْ بيْنَ أهْدابِكَ ويَتدثّر بالوَقْتِ
رُبّما تَرَى الحُبّ يقفُ بيْنَ يديْكَ محْفوفاً بحقائبه
رُبّما تَرى تلْكَ الزّهرةَ غيْرَ المرْئيةِ في مَاء النّارجيل تُريح ثِيابَهَا على عُنَق الهِلال وتُسند ساقَها علَى خاصِرة القُطْبِ   تاركةً لتُويجِها أن يتَحرّر منَ العادةِ حيثُ ينامُ ويستيقظُ في لحْظة واحدةٍ   وقُلْ حيثُ لا ينام ولا يسْتيقظُ بلْ يسْتسلِمُ لِخَدَرٍ   لا فرْق فيه بيْنَ الأرَقِ والنُّعاس
رُبما همَستَ   افْرِشي لِي سَريراً في أعْضائِي أيّتُها الزّهرةُ وَحّدي الجهَاتِ كُلّها   واكتُبي أسْمَاءَها علَى وِسادَتي مصْهُورةً في اسْمٍ واحِدٍ   لا شرْقَ لا غرْبَ لا شَمالَ لا جنُوبَ ، بل البؤرةُ العموديّة التي تتلاقى فيهَا الأنْحاء .

أيْنَ نجْمتُكَ ، أيّها القُطْب؟

7

هُو ذَا مَـاءُ الجـوْزةَ يشْـتـعِلُ بأحْـزاني لَكِنَّ أحْـزاني لا تلْبَسُ إلاّ ثيـابَ الصّمْتِ وقلّما يُقْرأ في وجْهي إلاّ غَيْمُ الأسئلةِ . وعنْدما يُحاصِر عينيَّ ذلكَ الأحـمـرُ ثوبُ القَـصـبـة الـذي يأبى قلْبي أن يَرى فـيـهِ غـيـرَ الأزرقِ البنَفْـسَج أقـولُ للّونِ هُوَ كـذلِكَ باطنٌ وظاهِرٌ لوْلا ذلكَ لغَـصّتِ الحياةُ بِحبْر الطبيعةِ ولكَان الفضَاءُ ضيّقاً علَى الرّيحِ وأقولُ المـدَاعةُ حيٌّ كاملٌ في مَدينةِ شهَواتي ويا لـلأشيـاء في هذَا الحَيِّ ـ لِبعْضِها غصُونٌ كأنّها الجداِئلُ ولبعْضِها نَهمٌ كأنه تلْكَ المُوْقَدةُ نَارُ اللّه .

8

يَنبـثقُ من مَـاء الجـوْزَة نورٌ يمْـشِي في أعْـضـائِي يشْطحُ فـيـمَـا ورَاءَ الكَتفِ عُنقِي سُلَّمٌ يتسلّق الأفقَ ورأسِي شمْسٌ زرْقَاء .

(صنعاء ـ باريس ، 25 تموز ـ 10 آب 1990)

المداعة : هو الاسم اليمنيّ للنارجيلة ، أو الشيشة كما تسمّى في مصر .

شهوة تتقدم في خرائط المادة

1

حَدَث هكَذا ـ

سكَاكينُ تَنْزلُ مِنَ السَّمَاء

الجسد يرْكُضُ إِلَى الأَمَامِ ، والرُّوحُ تَتجَرْجَرُ وَرَاءهُ .

حدَثَ هكَذا ـ

مَطَارِقُ حَدّادين يَعْمَلُونَ دَاخِلَ الجُمْجُمَة

خَرسٌ وانْقِرَاضُ سُلاَلاَت ، ـ

الكتَابَةُ حمضٌ إيدْيُولُوجي

والكُتُبُ زيزفُونِيَّاتْ .

2

(أ)

أَيْنَ سَأَحْفَظُ أَعْيَادِي التِي لَمْ تَمُتْ بَعْد؟
كَيْفَ أُحَرِّرُ أَجنِحَتِي التِي تَنتَحِبُ فِي
أَقْفَاصِ اللُّغةِ؟ وَكَيْفَ أَسْكُنُ
فِي ذَاكِرَتِي ، وَهَا هِيَ خَلِيجٌ مِنَ
الأَنْقَاضِ العَائِمَةِ؟

(سَمَّى اللُّغَةَ امرَأَةً
وَالكِتَابَةَ حُبّاً ،
وَأَخذَ يَبْحَثُ عَنْ أَصدَافِ
المُحيطَاتِ فِي كَلِمَاتِ الهُدْهُدِ ــ
[والإشَارَةُ هُنَا إِلَى شَيْءٍ آخَرَ
غَيْرِ بلْقِيس وَغَيْرِ سُلَيْمَان]) .

هَلْ سَيَنْمو بَيْنَ كَتِفَيَّ حَجَرٌ أَوْ جِذْرُ خَشْخَاشٍ؟ هَلِ الحَيَوَانَاتُ السَجِينَةُ فِيَّ ، سَتَعْرِفُ أخيراً طَرِيقَ الهُرُوبِ؟ هَلْ عَلَيَّ أَنْ أُدْخِلَ فِي سُبَاتٍ وأَنْ أَخُونَ أعضَائِي؟ هَلْ عَلَيَّ أَنْ أَصْنَعَ مِنَ الرَّملِ سُداداتٍ لِرِئَتَيَّ ، وَأَنْ أَسْتَلْقِيَ حَجَراً أَسْوَدَ فِي أَبَدِيَّةِ الطَّاعَةِ؟ هَلْ عَلَيَّ أنْ أدْهنَ جَسَدِي بِزَيْتِ الآلة ، وأَنْ أمْلأَ حُنْجُرَتِي بِنَعَمْ نَعَمْ ، لاَ لاَ؟

كلاَّ ، لَيْسَ لِي وَطَنٌ
إلاَّ فِي هَذِهِ الغُيُوم التِي تَتَبَخَّر مِنْ بُحَيْراتِ الشِّعْرِ .
أَوِينِي ، احْرُسِينِي أَيَّتُها الضَّاد الضَّاد ــ يَا لُغَتِي ، يَابَيْتِي
أُدَلِّلِكِ تميمةً فِي عُنُقِ هَذَا الوَقْتِ ، وَأُفَجِّر باسمِكِ أَهْوَائِي
لاَ لأَنَّكِ الهَيْكَلُ ، لاَ لأَنَّكِ الأَبُ أَو الأُمُّ
بَلْ لأَنَّنِي أَحْلُمُ أَنْ أَضْحَكَ وَأَبْكِيَ فِيكِ

أنْ أُتَرْجِمَ أحشَائِي
أَنْ أَلْتَصِقَ بِكِ وَأَرْتَعِشَ وتَصطَفِقَ أَنحَائِي
كَمِثْلِ نَوَافِذَ بَينَ يَديْ رِيحٍ خَرَجَتْ لِتَوِّها مِنْ أصَابعِ اللَّه ، ـ

هَكذَا أَتَحَوَّلُ فِيكِ إلى نَفَسٍ يَهْبِطُ مِنْ فَمِ السَّمَاء
وَيَنفُخُ فِي فَرْجِ الأرض ،
هَكَذا أحضُنُكِ وأقُولُ ـ مِنْ جدِيدٍ
أنْتِ الجَسَدُ الذِي يُسَمَّى الغَدَ
وَعَلى هَذَا الجَسَدِ يُرْمَى نَردُ التَّارِيخ .

3

مِنْ أَجْلِ أَنْ أخلقَ مِرْآةً تَجدُر انْ تَنْتَسبَ إلَيَّ وأَنْ أتَمرأَى فِيهَا
مِنْ أجْلِ انْ أبْتكرَ فَرَاغاً يَتَّسعُ لأهْوَالِي
رِبَمَا فَكَّرْتُ أَنْ أَلْبسَ معْطَفاً بِنِصْف ذرَاع
وأَنْ أمْشِيَ بِقَدَمِ نِصْف حَافيَة .
رُبَّما حَاوَلْتُ أَنْ أَشقَّ شريان غيمة لِكَيْ أَرْوِيَ عَطَشِي
رُبّما تمتمْتُ : الوَطَن ـ واكْتَفَيْتُ بأَنْ أَرْوِيَ تاريخَ دَرْويشٍ
يُشْرف عَلَى المَوت كاسياً قَبرَهُ بِصَوتِي .
أوْ رُبَّمَا حَاوَلتُ انْ أَقتَلعَ بُرجَ إيفِّلَ وأَزْرَعَ مَكَانَهُ شَجرَةَ ياسَمِينٍ شَامِيَّ
وَرُبَّمَا ارتَأَيتُ أن أدعُو مِن جديدٍ آدم لِكَي يَبْنِي لِحُبِّهِ بَيتاً عَلَى الأرضِ

وَيتَعرّف عَلَى أَبْنَائِه ، ــ
إِنّهَا الشّمسُ تَمشُطُ رَأسَ الغُرُوبِ ، وَثَمّةَ خَمَّارَاتٌ تَصْعَدُ فِي بَاريسَ صُعُود العَذْرَاء ، ــ

أعْقدُ جلْسَةً مَعَ مَلائِكَة الإسعاف العضَلي ، ــ
أَتَشبّهُ بِالمَاء وأنسَكبُ فى جُرْنِ أحزَاني
أَوْ
أَتَشبّهُ بِالأُفقِ وأصْعَدُ إِلَى ذرْوَة رَغبَاتي .
أَعْرِفُ ــ نَمُوتُ مَرّةً وَاحِدَةً ، ونَوْلَدُ مِرَاراً ، وَلَيْسَ المَوْتُ صَالِحاً
إِلاّ لِكَيْ نَعيشَهُ ،
أعْرِفُ ــ الغَيْبُ هَذِهِ الوَرْدَةُ
الغَيْبُ هَذِه المَرْأَةُ
وَالوَجْهُ نَفْسُهُ قَفَا السّمَاء .

أَعْرِفُ ــ غَيْمَةً غَيْمَةً
سَتَصْعَدُ سَمَاوَاتِي منْ جَنَّاتِ الأَرْضِ ،
وأهلاً بِالتّارِيخِ وَهَبَاتِه :
كَيْفَ يَيأَسُ الزّائِلُ وَطَرِيقَهُ الرّيحُ؟

4

لَمْ يَكُنْ وَارداً أَنْ أُقَابِلَ رِيشَار قَلْبَ الأَسَد ، أَوْ لويسَ الرَّابعَ عَشَرْ ، أَوْ حَتَّى نَابُلْيُونْ ، هكَذَا وَجَدْتُني حُرّاً

أَلْبَسُ الضَّبَابَ ، وأستَمْتعُ بِرُؤْيَةِ كِلاَبٍ تَفْتَرِشُ نُهُودَ النِّسَاء .

لَكِنْ ، لاَ أَذْكُرُ أَنَّني لَمَحْتُ نَجْمَةً وَاحِدَةً تَرْقُصُ أَوْ تَقْرَأُ أَوْ تَمْشِي كَمَا كَانَتْ
تَفْعَلُ النُّجُومُ عَادَةً فِي أيَّامِ طُفُولَتِي ،

كُنْتُ مُضْطَرّاً أَنْ أتَخَيَّل نُجُومَ قَصَّابِين وأَنْ أَهْتَدِي بِهَا ،
فِيمَا أُطُوفُ الشَّوَارِع ، وأسْمَعُ أنِينَ البَشَرِ يَهْدِرُ
حَوْل السِّين ، وَلاَ مَصبَّ لَهُ .

إِلَى المَقهَى جَاءَ ـــ (الدُّومَاغُو ، أَظنّ) ،
جاءتْ مَعَهُ كَنِيسةُ السَّان ـــ جِيرْمانْ
جَاءَتْ سَمَاءٌ بِعَمُودِ فقَرِيٍّ مَشْلُولٍ
جَاءَ جَانْ جِينِيه يُقْنِعهُ أَنْ يُصَالِح اللهَ لِسَبَبٍ لَمْ يُقْنِعهُ :
(أَنْ يَكْتَشِفَ جَحِيمَ الجَنَّة)
جَاءَتْ أرضٌ لاَ تُرِيدُ أنْ تَرَى السَّمَاءَ
جَاءَ مُشَعْبِذُونَ يَتَسَلَّقُونَ النُّجُومَ
جَاءَتْ أصْواتٌ مَلأَى بِقِرَاءَاتِ
الغَيْبِ فِي العَالَمِ
الثَّالِثِ العَرَبِيِّ ، ـــ

[(كَيفَ أُزَيِّنُ لِلْغَزَالِي أَنْ
يُنَوِّر عَقلَهُ بِضَوء
نِيتْشه؟
مَعَ ذَلِكَ ، سَأُذَكِّرُهُ :
مُنْذُ النَّشْأة ،
تُسَافِرُ إلى العَالَمِ ،
ولَمْ تَصِلْ بَعْدُ .)]

(ب)

(في أورلِي ،
يَبْدُو العَالَمُ الثَّالِثُ فِيلاً أَعْرَجَ
يَهبطُ مِنْ مِظَلَّة تَبُثُّ مَا يُشبِهُ
هَذَا الكَلاَم : «بَارِيس تَعْقِدُ أحلاَفاً
جَدِيدَةً مَعَ الكَوَاكِب ،
وتَتَعَلَّمُ ثَورَةَ الشَّمس» .
ثُمَّ يَتَحَوَّلُ الفِيلُ ، بِقُدْرَةٍ مَا ،
إلى جَدْوَلٍ مِنَ الدَّمِ
يَتَشَرَّدُ فِي البُيُوتِ والحَوَانِيت .)

5

فِي المَقْهَى
كُنْتُ أَسْمَعُ الضَّجِيجَ لاَ مُبَالِياً
فِيمَا أَقْرَأُ نِيتْشه وأَحْسَبُهُ طُوفَاناً ، ــ
حَقّاً ، يَنْبَغِي أَنْ أُذْعِنَ لِطُوفَانِ المَعْنَى
يَنبَغِي أَنْ أُصَادِقَ الشَّمْس مَاثِلاً كَدَوَّارِ الشَّمْس
يَنْبَغِي أَنْ أَسْتَسْلِمَ لِنيلُوفَر الرَّغْبَةِ فِي بُحَيْرَةِ الجَسَدْ
يَنْبَغِي أَنْ أُفرِغَ نَفْسِيَ كَطِفْلة أُهَيِّئُهَا لِلْمُسْتَقْبَل .

6

هَل رَأَيتَ الشَّاعرَ ـ يَختَلِطُ وَجهُهُ
بِالصَّبَاحِ
خَالِطاً قَدَمَيْهِ باللَّيْلِ؟
هَلْ رأيتَهُ ـ يُسندُ ظَهرَهُ عَلى الضَّوْء ،
وَيُحَاوِلُ
أَنْ يُشْعِلَ المَاء؟
هَلْ رَأَيتَ كَيفَ تَتحَوَّلُ أوراقُهُ تيجَاناً
للرِّيح؟

(ت)
(. . . فِي مَكَانٍ ـ لَهُ شَكْلُ طَاحُـونَةِ
الهَوَاء .
حَـيْثُ الزَّمنُ كَلمَـاتٌ ـ جُـدرَانٌ يكَادُ
المِلاطُ
الذي يُثبِّتها يذوبُ كالحِبْر .
. . . تمـثَالٌ مِنَ الوَرَقِ لِدُونْ كِـيشُـوتْ ـ
وَحيداً .
تِمْثَالٌ لحصَانه ـ وَحيداً ،
والهَـواءُ عَبـاءَاتٌ تتـدلَّى مِنْ سَـمَـاء بِلَونِ
الرَّصَاص .)

كَانَ الجِنْسُ يَأخُذُ العَرْشَ ،
كَانتْ تَخرُجُ مِنْ لافُونتين ذئَابٌ تَكْمُنُ لِطَرَائدِهَا فِي فَرْوِ الكَلِمَات ،
كَانَ مُتَشرِّدون يَتَوَسَّدُونَ أعنَاقَ زُجَاجَاتٍ فَارِغَة ، ـ
بَعْضُهُمْ يَهجُو مَالارميه ،
بَعضُهُمْ يَحلُمُ بِرَامبُو ،
وبَعضُهُم يَقْرَأُ المَرْكِيزْ دُوسَاد
وكَانَ الحَيُّ السَادِس عَشَر يَتَراءى كَمِثْل غَابَةٍ لا تَتَحَرَّكُ فِيهَا إلاَّ رُؤوسٌ تُقِيمُ فِي كُلِّ زَاوِيَة مُتْحَفاً للأَعضَاء الجِنْسيَّة ،
وَفِي رَمَادٍ يُغَطِّي وَجْهَ الفَضَاء ، كَانَتْ حِبَالٌ صَوْتِيَّةٌ تُدَنْدِنُ بِمَا يُشْبهُ النَّذير ـ رَامْبُو ،

كَيْفَ أَعْبُرُ هَذَا العَالَم الأَبيَض ، ــ أَنَا الَّذِي جَسَدُهُ النبُوَّةُ وَبَيتُهُ الصَّحْرَاء؟
كَيفَ أَشرَحُ بِكَلمَاتٍ تجيءُ مِنَ العَالَم ،
ضَوءاً يَجيءُ مِمَّا وَرَاءَهُ؟
لاَ بُدَّ ، لاَ بُدَّ .
سَأَبتَكِرُ عِلْمَ أخلاق خَاصّاً بِي ،
سَأَجْعَلُ مِنْ مَوْتِي قَصِيدَةً أفْتَتِحُ بِهَا حَيَاتِي .

7

يُهَيِّئُونَ غُبَارَهُمُ الذَّرِّيَّ / تُرَدِّدُ صَلاَةَ المَوْتَى
مِنَ الماء إلى الرَّمْل ــ مِنَ الرَّمْلِ إلى الثَّلجِ
العَالَمُ كُلُّهُ سَمَكَةٌ لِلصَّيدِ :

(ث)
(. . . هَذَا مَا قِيلَ عَنِ العَدْوَى
وتَعَفُّنِ المَبِيضِ الزَّمنيِّ
آلاتٌ تُحَوِّلُ البَشَرَ إلى حسَاء أرجُوانيٍّ
فِي شَرق مُؤَنَّثٍ بِآلِهَة لاَ نَرَى مِنْهَا
غَيرَ أَضْلاَفِهَا .
فِي غَرْبٍ لَمْ يَعُدْ يَقرَأ إلاَّ أمْعَاءَهُ
وأنيَابَهُ ،
وَهَا هُوَ يَنْخَسِفُ تَحتَ أهرَاء البِذَارِ
الإلِيكْتُرُونِي .)

الشَّرْقُ جُرْح ولَمْ تَعُدِ السِّيَاسَةُ إلاَّ تَقَيُّحاً
لَكِنْ ، سَتُمْطِرُ أيْضاً فِي الغَرْبِ
سَتُمْطِرُ فَوْقَ بُيُوتٍ تَنْمُو فِيهَا أَعشَابُ الدِّيزَل والأُورَانيُومْ
وَسَوفَ يَكُونُ المَطَرُ مُوحِلاً وأَسْوَدَ .

8

أُوه ـ كَلْبَةُ السَيِّد تَتَبَوَّلُ عَلَى الأَنفَالِيد ،
أُوه ـ كَلْبُ السيِّدَةِ يَزْرِقُ عَلَى مَخَدَّةِ قَوْس النَّصْرِ .

9

مَيِّتٌ أعطَى مَيِّتٌ أَخَذ ،
والّذي نَفْسي بِيَدِهِ ، والذّي
نَفْسُهُ بِيَدي ، يَتّحِدَانِ فِي
جَوْقةِ الكَلاَمِ ـ فِي شَفَا
جُرُفٍ هَارٍ
هَلْ هَذَا العَالمُ شَيْءٌ آخَرُ
غَيْرُ هَذَا الّذِي أرَاهُ؟

(ج)

(مِنَ الجِهَاتِ كُلّهَا ، تَتَقاطَرُ غُيُومٌ سُودٌ ، ـ
الأعيَادُ الّتي لَمْ تمُتْ تَكَادُ انْ
تمُوت ،
والـذّرَّةُ ذُبَابَةٌ تطِنُّ زَاحِـفَـةَ عَلَى
جَبهَةِ الوَقْت/
يَالَلْمَلكَ الخُبْـزِ الـسـرّيِّ ـ تأكُلُهُ الجـرْذَان
الإليكْتْرُونية) .

وأَنْتِ ، إلَى وَلِيمَةِ المِحْنَة ، أَدْعوك أيّتُها
السيَّارَات العُلْوِيّة الِتِي تُحَرِّكُهَا الأَظَافِرُ ،
التَّاريخُ مُتَبَلٌ بِعطّارين يُزَيّنُونَ الأَوْبِئَةَ
والعَمَلُ كُلُّهُ كَسَيفٍ فِي المَاء .

(ح)

(يَنْبَغِي انْ يَتَعوّدَ شَاعِرُ الغَرْبِ ، هُوَ أيْضاً ،
أَنْ يَبْكيَ عَلَى الطَّلَلِ ،
وانْ يَكتُبَ عَلَى الرّمْلِ .
يَنْبَغي انْ يَعْرِفَ كَيْفَ يُوَحّدُ بَيْنَ التّرْيَاقِ
وَالسُّمِّ
وانْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَحُلّ مَا
لا يُمْكِنُ حَلُّهُ ،
يَنْبَغِي ، هُوَ أيْضاً ،
أَنْ يَعْرِفَ كيفَ يَشْكُر الرّيح .)

هُنَا ، حَيْثُ تُبْنَى أَعْشَاشُ اليَسَار
وَيبيضُ اليَمينُ ،
أَرَى إِلَى الوَقْتِ يَتَكَدَّسُ بَارُوداً
أَبْيَضَ ، فِيمَا أَقِيسُ الأَعَالِيَ
الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَرْقَى إِلَيْهَا طُيُورُ
الحُلْم ، وَفِيمَا يَتوضَأُ جَامعُ الحَيِّ
الخَامِس ، دَاخِلاً فِي بَيَاضِ الصَّلاَة ،

وَفِي الصَّبَاحِ ، إِذْ يَسْعُلُ بُولْفَارْ السَّان مِيشِيلْ ،
وتَلَتطِمُ أحشَاؤُهُ بِأَقْدَام المَارَّة ، يَحلُو أَنْ
أَرَى السَّمَاءَ تَنزَلِقُ مِنْ بَيْن كَتِفَيّ ،
وأَنْ تمُوءَ
قِطَّةٌ شَارِدَةٌ فِي أُذْنِ الرِّيح ،

وَأَكادُ لاَ أَرَى فِي بَارِيس إلاَّ شَخْصَيْنِ :
وَاحِداً يَحْلُمُ تَائِهاً فِي دُرُوبِ أَيَّار 68
وآخَـرَ يَستَلقِي بَينَ طَنَافِس القَرْنِ السَّادِس
عَشَرْ .
كَيفَ أُصالح إِذَنْ ، بَينَ رَمادِ بارِيس وشَمْسِنا
الّتي تَقطرُ دماً؟ كَيفَ ألائم بَينَ شاطِئَيْ
بَحْرِنا المُتوسِّطِ المُشتَرِكِ ، فِيما نَتعثَّر

(خ)

(« مَاهَذِه النِّسَاءُ ، مَا هَذِهِ الكُتُبُ ! »
يتَعَجَّبُ الثَّائرُ الضَّيفُ الذي لاَ يَلْبثُ
أَنْ يَصيحَ كَمِثْلِ نُقطَة ، في سطْر ،
في هامِش ، في زاوية ما .
ــ هَل التَصقَ حَلْقُكَ بِهَذا
الإسْمَنْت؟ هلْ تَقلّصَ طوفَانُكَ في
هَذا المَقْهى؟
وماذا يَختزِنُ لصَحْرائِكَ ، غيْرَ الرَّمْل ،
هَذا الأطْلسُ الغَرْب؟
ولماذا لا يُسْمَعُ صَوتُكَ إلاّ حين
يَجيءُ طالعاً من القصب الذي
لايزالُ يَنْبت حَولَ ما تبقّى لكَ من
الينابيع في أرضِك الكَرِيمَة؟
أيُّها الضّيْفُ الغامِضُ : رَجاءً لا
تَتعجَّبْ أيضاً ، إذْ أقولُ لكَ : اعْمَلْ
قبلَ أنْ يَستَضيفَكَ المَوتُ ، لِكيْ
تَموتَ ، لا كمثْلِ فَراشةٍ ، بلْ كمِثلِ
وَردةٍ .)

بأباطِرة العَبثِ ، ونَخْلعُ سُلطانَ المَعْنى؟ كيفَ
أوَفِّقُ بينَ بُرْجِ إيفَلْ والمسلَّة المِصْرية في
ساحَة الكُونْكُوردْ؟
أقْسمُ إنّه باردٌ وشِبْهُ مَيِّت
أُقسِمُ إنّها أجْمَلُ عاشِقة ، وأنّ قامَتَها
هيَ الألِفُ الحَقّ .
أُقْسِمُ إنّ سَريرَ الحَضانَةِ البَشَريّة
لمْ يَعْرِف عُرَياً أبْهَى .

10

(د)

1 ـ (قُلْ جَاءَ الوَقت بِموائدِهِ ، ـ
الحَياةُ حَصاتُهُ التي تُطْبَخُ
والمَوْتُ لَحْمةُ النّيْء)

2 ـ (قُلِ الكَلامُ خَليفَةُ الوَرَقِ ،
نُبُوّةُ الرّيح .)

باريس ،
ضَوْءُكِ يَكادُ أنْ يَخونَني
(يَجلِسُ القُرْفصاءَ /
يَسيرُ علَى عُكّازَيْنِ) ،
هَلْ أقولُ لِبساطِ المُخَيِّلة احْمِلْني؟ ـ
أهْبِطُ في مونْمَارْتِرْ ، علَى عَتَبةِ
السّاكري ـ كُورْ ، في صَحْنٍ بَيْضَويّ
يَحْمِلُهُ خَروفٌ مِنَ القُدْسِ ،

أتعرّفُ علَى جَاكْ سيمُونْ الّذي رَبّى الماعِزَ في غُرْفَتِهِ ،
أرَى أشْخاصاً كمِثْلِ السيِّدْ بِيسُونْ
والسيِّدَة زَوْجَته «يُزيِّنونَ الحَيوانات ، ويُهيِّئون مَآتِمَها» ،
أزُورُ مقْبَرَةً (سرِّيةً ــ خَوْفَ أنْ تُنْبَشَ الجُثَثُ) ،
أجْلِسُ في مَقاهٍ تُذكِّر بِمَقْهى العُمْيانِ
في أرْوقَةِ البّالِيهْ ــ رُويَالْ ، مَع مُتْعَبين
مِنْ كُلِّ نَوْع ،
يَنْفُشونَ السّاعاتِ كالْقُطْنِ .

(ذ)

(يأخذُ السّماءَ مصلوبةً علَى قامَة أنْدْريه بْرُوتُونْ .
ويَترُكُ لِنَجْمةٍ خانَها ضوءُ السّورْيالية
أن تبكي علَى ذِراعَيْهِ .)

باريسُ ، لَمِمْتُ أنْحاءكِ المُتناثِرَةَ فِي أعْضائِي ،
وابْتكَرْتُ لكِ جَسَداً
آخَر ، ــ

(ر)

(الرّوحُ شبَحٌ لا يَنْطِقُ ،
والجَسَدُ ، وَحْدَهُ ، يقْدِرُ
أنْ يَقولَ الجَسَدْ) .

(لَيسَ فينيقُ المعدة بَل التَخَيُّل ،
إذَنْ ، ما نَفْعُ أنْ تقْرَعوا رأسَ ماركْس
كما يُقْرَعُ البابُ ، وأنْ تَتَخِذُوا
مِنْ قامَتِه سُلَّماً للصُّعود ،
إنْ كانَتِ الرَّغْبَةُ ستظلُّ عَزْلاء ،
إنْ كانَ الحُلْمُ سَيبْقَى نَهْراً مُتجمِّداً؟ بِاضطِرابٍ ،
ألْقَى هَذه الموْعِظةَ في ساحة الباسْتيلْ ،
[كانَ بَيْنَ الحُضورِ سانْ ــ جوسْتْ ،
ورُبِسْبيير ، ودانْتون ، وبَقيّةُ الخَلَف]
وارْتفعَ صَوْتٌ يَقولُ : سُحْقاً لِلْفَراغِ
الّذي يَبْتلعُ الذّاتَ والحُنْجرَةَ ،
واخَذَتْ أصْوات تُردِّدُ : آمينْ!)

وها أنا أقْتَفي خطَوَاتِ الأحْدَبِ ،
لا الأحْدَبُ الّذي نامَتْ بَيْنَ
يَدَيْهِ نُوتَرْدامْ ، بَلْ ذَلِكَ الذي

لايَزالُ يَظْهرُ ، كُلَّ يَوْم ، شَبَحاً
يَزْحَفُ علَى أرْصِفةِ السَّانْ ـ ميشيلْ ،
ويَتَقوّس فَوْقَهُ اللّيْل في الحَيّ السّادِس
عَشَر ، حَيْثُ الذّكَرُ بُستانُ حَيوانات ،
والأُنْثَى حَديقَةٌ لِنباتاتٍ خُنْثَى .

أقُولُ هَامِساً : شَبَحٌ وأسْألُ : نِرْفال!
هَلْ كانَ الحَبْلُ ناعماً ، كَما اشْتَهَيْتَ؟

فيرْلين!
انظُرْ ، إنّها ذِراعُ الشّعْرِ تَنحَدِرُ مِنْ قِمّةَ الأوبّرا ، حامِلةً القيثارَ الذّهَبي .
وانْظُرْ! إنّها تَتَحطّمُ حَيثُ عَبَرَ جُثْمانُكَ في طَريقِهِ إلى غُرْفَتِهِ الأخيرةِ .

وكانَت «أعْيادُكَ العاشِقَةُ» تُرافِقُ العربَةَ التي نَقلَتْ بِرْلْيُوز إلَى مِقْبَرةِ مُونمارْتْرْ ، وتُصْغِي إلَيْهَا تُحَمْحِمُ الوَداعَ .
أقولُ هامِساً : شبحٌ ، فيما أنْعَطِفُ نَحْوَ كَنيسة السّان ـ جيرْمَانْ ، لِكَيْ أحَيِّي أبُوللّينير :
سَلاماً ، أيُّها الشَّبَحُ ، أنْتَ أيْضاً .

11

بُرْجُ إيفَلْ نُوتِرْدَامْ اللُّوفرْ

هَلْ أحلُم؟ ـ لَمْ يَعُدْ بُرْجُ إيفَلْ في مَكانِهِ
وها هُوَ اللُّوفر يَزْحَفُ نَحْوَ الشَّاطِئِ الشَّرْقيّ مِنَ المُتَوسِّطِ
كأنّهُ يُريدُ ، هوَ أيضاً ، أنْ يَقْتَفي خُطُواتِ الإسْكَنْدَرِ ،
وها هِيَ نُوتَرْدامْ تَنامُ ، فِيما تَبْتَهِلُ وتُرَبِّتُ علَى كَتفِ
السَّماء لِكَيْ تَتَّخِذَها وسادَةً لأحْلامِها .

بُرْجُ إيفَلْ نُوتِرْدَامْ اللُّوفرْ

جَامع الحَيّ الخامِس

أتِمْثالٌ يُريدُ أنْ يُقْنِعَني أنّ عَذْراءَ مِنَ الغَرْبِ هيَ الّتي حَبِلتْ بِالْعَقل لِلْمَرّةِ الأولَى؟
ولِمَنْ هَذا القَوْلُ : «هَكذا تَكلَّمَت المعدَة :
نُسَمِّي الشَّرْقَ والغرْبَ خَصْمَيْنِ ،
والغُبارَ حَكَماً؟»
ثُمَّ أنْظُرُ إلَى الوُجُوهِ وأقُولُ :
الجَمادُ لَيْسَ في الجَماد ، بَلْ فِي الإنْسان .

ابْكِي ، يا مَلائِكةَ الجَحيمِ ،
لَنْ تَجِدي بَعْدَ الآنَ زائِراً تَسْتَمْتِعينَ بِشوائِهِ :
أفْواجاً ، أفْواجاً ــ تَمْضِي إِلَى النَّعيمِ الحَيواناتُ كُلُّها ، ناطِقَةً وعَجْماء .

12

حدَثَ هكذا
ولْتَنْفَجرْ ذاكِرَةُ السُّلالاتْ ، ــ

أبو نَواس
بَشَرٌ مِنْ فَصيلةِ الإنْسانِ النّاطِقِ
لكِنَّهُمْ لا يَنْطِقون ،
ولَيْسَ ذلِكَ بِسَببٍ مِنَ الخَرَس
أوْ أيَّةِ عاهَةٍ جَسَدية ،

في صَحْراءَ ــ غازٍ ، لِلْغَزْوِ
حَرْبٌ يُعْلِنُها ذلِكَ هَذا ذَاكَ
لا لِكَيْ يَتحرَّر ،

بُودلِير
مَلائِكَةٌ جامِدُونَ في أنْحاء نُوترْدَامْ
يَحْتاجونَ إِلَى أجسادٍ أُنْثوِيَّة
لِكَيْ يَعْرِفوا كَيفَ يَسيرونَ فِي
الهَوَاء ــ

هَواءٌ يَرْفُضُ أنْ يَتحرَّكَ ، إلاّ إذا
نَفَخْتَ فيهِ مِنْ رُوحِكَ ــ
حَيْثُ النِّساء جِرارٌ نِصْف

بَلْ لِكَيْ يَبْقَى عَبْداً ـ
لكِنْ ، ها هِيَ يَدُ تُعَـرِّي الهَـواءَ مِنْ
ثِيابِه ،
تكْسُوهُ بِثيابٍ أُخرَى
لَكِنْ ، ها هُوَ بَيْتٌ يأْخُذُني إليْهِ
جَسَدي
أتعَرَّفُ علَيْهِ كأنَّهُ لَيسَ جَسَدي
في لَيْلة لَمْ أقدِرْ لِجمالِها
أنْ أُمَيِّزَ بَيْنَها وبيْنَ سِرْوالي
حَيثُ الله نَفْسُهُ
مُبَلَّلٌ بِعَرَقِ العَصْرِ

مَكْسورَات
في أسِرَّةٍ تَخْتبِئُ تَحْتَ قَناطِر
السين والجُسورُ أحْلامُها
العائمَة
حـيثُ يَلتَـحِفُ العَـقْلُ الإليكْتْـرُونيّ
بِعَباءةِ
كْريشْنَا ، ويَضْطَجع المِينُوتُور
الأسْـوَدُ فِي أحْـضـانِ المـرْأة
البَيْضاء .
حَـيثُ تَخـرجُ مَـلائِكةُ الحِكْمـةِ مِنْ
سُجونِها
وتَنـدَفعُ إلى عِناقِ مَـــلائِكةِ
الرَّغْبةِ في سَديم إشاراتٍ
وكُلُّ إشارَةٍ مُعْجَم .

حدَثَ هكذا ـ وانْفَجِري
يا ذَاكِرةَ السّلالات ، ـ

المُتنبّي | **هوغو**

غَرّازاتٌ لِمَسامير العَقيدةِ
طَرائدُ تَتعقّبُها الفِئْرانُ

في زَمَنٍ ــ مِصفاةٍ يَنْزِلُ مِنْها بِدفْقٍ
واحِدٍ، دَمُ القَتيل ولُعابُ القاتِل

كـائنـاتٌ بِرُؤوسِ الدّجـاجِ وقـامـاتِ
العَمالِقةَ
في مَمالكَ ــ جوارٍ
شَخْصٌ يَحْمِلُ مِذْراةً تَحمِلُ رأساً رَمْزاً
لِسُلْطانِه
قُصاصاتُ أشْلاء، والرّؤوسُ فَواصلُ
وحَركاتٌ

سَديمٌ تَمْتَزِجُ فيهِ الأشْياء، ــ
حَيواناتٌ مِنَ القشّ تَرْكُضُ، يَتْبعُها
أطْفالٌ عُمْيان،
رُؤوسٌ تُذكِّرُ بِرأس أورْفيوس
لكِنّها لا تَسْبحُ في المَاء، بَلْ في
الدُّخان

خُرافاتٌ تَنْبُضُ بَيْنَ الوَريد والوَريد في
تاريخٍ يُلَفّ عَلَى وشيعةٍ لِلْحفْظِ،
والحَمْدُ لِلكافورِ والسّيلولوز،

في صُراخٍ لا يخرُج مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْنِ،
وتَرَى فيه أيْديَ تَتَخبَّطُ ولا تَرَى
أجْساماً

أقدامٌ تَمْشي في اللّحْظةِ نَفْسِها إلى
اليَمين
وإلى اليَسار

عُمّالٌ يعودون كلّ ليلة إلى أكواخهم
يحملون عيداناً ليست إلاّ أفخاذاً

لآخرين عاطلين عن العمل .
هَلْ أحوالُ الجِسْمِ تَتْبعُ حَقّاً أحْوالَ النّفْسِ؟
أسْألُ ذلِكَ الرَّجُلَ الذي كانَ يُكرِّرُ علَيَّ هَذا
القَوْلَ في بَيْروت ، والذي كانَ يَلبَسُ خُفّاً أحْمرَ ـ
يَمتطي جرادَةً ويَصيح الدُّنيا باطِلٌ باطِل .
كَلاّ ، كلاّ
جَسَدي يُحِبُّ شُحوبَ السّماء
وأحلامِي تُغَيِّرُ طَريقَها ، ـ
أظُنُّ أنّ الكائِنَ الذي يَسيرُ صالِياً وَجْهَهُ كَمِثْلِ أُنْشوطةٍ
والّذي يُشاطِئُ الفُراتَ والنّيل
فيما يُشاطِئُ السّينَ والهِدْسنَ والتّايْمزْ ،
لا يَسير ، بَلْ يُسَرْنِمُ لِكَيْ يقدرَ أنْ يتعرَّفَ علَى أعْضائِهِ ،
والحَمْدُ لِكُلِّ التِباسٍ .
هَلْ لي أنْ أنتظِرَ تَسَنْبُلَ بِذارٍ آخرَ؟

13

شَغفي مَليءٌ بِبذارٍ يَخرجُ خِفْيةً مِنْ هيراقْليطس ونِيتْشه ،
ذلكَ أنّ في أحْزانيَ شَيئاً مِنْ ورَقِ الغارِ ، وأنّ بَيْنَ كَتفَيَّ شِراعاً رأيْتُ شَبيهَهُ مَرّةً في البحر المُتوسِّطِ ، قُرْبَ جَزيرةِ أرواد (والغريبُ أنّ اسْمَهُ هَجَرَ ذاكِرَتي) ،

ذلكَ أنّني أُطاردُ رأسَ ذَرَّةٍ
يَخْرُجُ مِنْ كَهْفٍ إليكْتروني ،
يَلْتَفُّ حَوْلَ نَفْسِهِ كالبَصَلَة ، ثمّ يَتفكّكُ صَوْتاً في بُوقٍ كَنسيّ
لايزالُ يلتصِقُ بجِذْعِ القرْنِ السّادِس عَشَرَ ،

ذلكِ أنّهُ يكفِي لِكيْ تُشكّلَ جَسَدَ إنْسانٍ في هَذا العَصْرِ
أن تمْزِجَ أرْجُلَ نَملةٍ برأسِ جَرادةٍ (واخْتَرْ ، لكيْ تُشكّل روحَهُ ، ما شِئْتَ مِن
تِلْكَ المَوادّ التي تَمْلأُ الحوانيت) ،
ذلكَ أنّ سُلْطةَ السّماء لاتزالُ تَنحني أمامَ كُرْسِيّ جانْ دارك ،
وأنّ ماءً لايزالُ يَتقطّر مِنْ حَدّ سَيْفِها .

14

هلْ جَسَدُ باريسَ يَجِفُّ؟ تَساءلتُ ، وأنا أسْتَقْبِلُ في شامب دُو مارس كَوْكَباً
سُرْعانَ ما تَحوّلَ إلى فَرْوِ مِيمُوزِيٍّ ، أخَذتْ تَتحلّق حَولَهُ نُجومٌ
مِنَ الكَلِمات صَغيرةٌ كَعجيزَةِ ماري أنْطوانيتْ ،
ولَمْ يكُن الشّجَرُ يُصَدّق الزّهْرَ ، ولا الزّهْرُ يَثقُ بِالشّمسِ ،
كانتِ الرِّيحُ وحْدَهَا لا مُباليةً وكانَ الغُبار يُصَفّقُ لَها .
وحَسِبْتُ وأنا أنظُرُ إلَي بُرْجِ إيفَلَ أنّ طِفْلَةً تَرْفَعُهُ بِساعِدَيْها ، خِلافاً لِما يُؤكّدُهُ
لويسْ كارُولْ ،
وكانَ لِلوجوهِ حَوْلَهُ أشْكالُ غُيومٍ تُغَيّرُ لَوْنَها دائِماً ،

ولمْ تكُن الرؤوس قَمريّةً ولا شَمْسيةً ،
كانَت ، بالأحْرَى ، تَنْتسِبُ إلى كَوْكَبٍ آخَرَ نَسَيْتُ كَيْفَ أصفهُ (سأسْألُ عنهُ ليتّري ، فيما بَعْدُ) .
يا لَلأشياء المُتناقِضةِ التي لا نَقْدِر أنْ نَرَى وَحْدَةً إلاّ فيها!
وإذْ هَدأَ تَعَجُّبي ، قُلْتُ مُطْمَئِناً ـ باريس ،
رُبّما في هُنَيْهةٍ ما (فيما أدخُل إلى أحْشاء
الطّبيعةِ ، تالياً أسماءَ شَوارعِكِ
شَارِع الشّلاّلات ، شارع الجَداوِل ، شارع الحَور ، شارع الأكَاسْيا ، شارع الصّفْصاف ، شارع اللّوز ، شارع الكسْتِناء ، شارع الكَرَز ، شارع التُّوت ، شَارع الخَوخ ، شارِع التّين ، شَارع الوَرْدِ ، شَارع الزّيْزَفونْ ـ

دُونَ أنْ أنسى شارع مُوزَايا ورَنينَهُ العَرَبي) ـ رُبّما في هُنَيْهةٍ ما ، سأُوَحِّدُ بَيْنَ حُروفِكِ الصّائتةَ ومَثيلاتها في اسْمي ، تارِكاً الحُرُوفَ السّاكِنة لُنُعاسِهَا السّماويّ ، أو رُبّما صَنَعْتُ مِنْها سجّادَةً لنْ يقدر شاعِرٌ فرَنسيٌّ حتّى بُونْج نَفْسُهُ ، أن يُميّزَ بينَها وبينَ الجَناحِ .

15

تَقولُ إنْ . أقولُ ليكُنْ .
أرْمِي أقْلامِي لِحُفْرَةٍ في وَجْه القَمَرِ ، وأُعْطِي ذِكْرَياتي لَتْجْعيدةٍ في عُنُقِ السِّين ، ـ
اجْرِ ، أيُّها النّهرُ ، حامِلاً الغُبارَ وفُصولَهُ

لا تَنْسَ ذلكَ النَّهْر الآخَرَ الّذي يَجْري بَيْنَك وبيْنَكَ
احْتَرِسْ مِنَ الأُنوثَةِ التي فيكَ والتي لا تَظْهَرُ إلاّ ذُكُورَةً
احْتَرِسْ مِنَ الكائِنِ الذي فيكَ ، والذي يُوَسْوِسُ أنّهُ أكْمَلُك .
اجْرِ ، أيُّها السِّينْ

(ز)

مَوْجاً يَخْتَرِعُ طمْيَه مِنَ البَشَرِ والأنْقَاضِ الأُخْرَى —
وأرَى إلى السِّينِ جارِياً —
يَحْمِلُ طَمْيَهُ منَ العَرب والبُرتُغاليّين
مِنْ إفْرِيقْيا وآسيا ، وبَقيَّة المَتاهَات ،
يَحْمِلُ أجْراسَ أورُوبّا التي بَدَأَ الطّحْلبُ يُغَطِّيهَا ،

(الوقْتُ يَجِيءُ بِوُحُوشِهِ ، لَكِنْ
كَيْفَ يُرَوِّضُها؟
الوَقْتُ يَجِيءُ بِمَسهاوِيهِ ، لَكِنْ
هَلْ يقْدِرُ أنْ يتَمرْأَى فِيها؟
الوَقْتُ يَجِيءُ بِمَـــفــاصِلِهِ
والأشْياء كُلّها ترْتَجِف ، —
أظُنُّ أنْ اسْمَكَ ، أيُّها الوَقْتُ ،
هُوَ الذي يقْبَعُ في حُنْجرَتِهِ
كجوزةِ القَيْء .)

أرَى إلَيْهِ يَجْري —
تَجْري مَعَهُ أفْراسُ القُرونِ الوُسْطَى
وعَرَباتُ النَّهْضَة ودُمَى الحَداثَة ،
تَجْري أصْواتُ بودْلير ولُوتريامُونْ ،
نرفَال ، وهِيجُو ، رامْبُو ، مَالارْمِيه ،
بيكاسُو ،
يَجْري وتَنْكَسِرُ في تَموُّجاتِهِ الثّوراتُ
والتَواريخُ كَخُبْزٍ يابِسٍ .

(س)

(الحياةُ تَتلكأُ بَيْنَ خُطُواتِهِ ، —
ألِهذا يُحَيِّي المادَةَ التي تَجْثُم حَوْلَهُ ، كأنّها
موتُهُ المُسَبّق؟
ألِهَذا يُكرِّر سُؤالَهُ :
ألَنْ يقدِرَ هَذا العالَمُ أنْ يَرْقُدَ
في أسِرَّةٍ لَيْسَتْ لِلقَتْلِ؟)

أقولُ إنَّ ،
تَقولُ ليكُنْ ـــ
اجْرِ ، أيُّها النَّهْرُ ،
أَجْلِسْ أطْرافَ العالَمِ علَى رُكْبَتَيْكَ ،
وقَدِّمْ لَها آخِرِ هَبّةٍ لِلهَواء ـــ

الماءُ رغْبةٌ وغَطّاسونَ يَرْتَجلونَ اللّذّة ،
والشّهوةُ تَمْلِكُ الضّفاف .

16

إنّها شَهْوتي تَتدفَّقُ في خَرائطِ المادَّةِ ،
وها هِيَ الدّقائقُ تَتفتَّحُ في أسِرَّةِ
المكَانِ ، كمِثْلِ أعْضاء جِنْسيَّةٍ .

وفي سَيْري ، كُلَّ صَباحٍ مِنْ 116 ، شارع
لُورْمِيل ، إلَى 1 ، شارع ميوُلّيس ، أقْرأُ
في نُقْطَة الماء كِتابَ المُحيطات ،
ألْمَسُ الضّوْءَ الذي يَعْمَلُ كالمِحْراث
وأكْتَشِفُ كَيْفَ يظلُّ الشّاعِرُ طِفْلاً ولَهُ عُمْرُ الأُفُق .

(ش)
(لا الشّرْقُ للّه ، ولا الغَرْبُ ، [وَعذْراً لغُوته]
وهَا هُوَ الشّمال يَغْرقُ في جَليدِ الذّاكِرة
وكُلّما ظَنَّ الجَنوبُ أنّهُ خَرجَ مِنْ داء ،
دَخلَ في دَاء آخَر ،
ثمّ يقنع مُكرِّراً هَذه الحِكمَة :
الفرَحُ أقْربُ الأصْدِقاء إلى الحُزْن) .

ثُمّ لا أعودُ أتردّدُ في القَوْلِ : «الذّاتُ
والآخر
أنا »
ولَيْسَ الوقْتُ نفْسُهُ إلاّ سَلّةً
لقطاف الشّعْر .
فجْأةً ، ألْتَقي رَامْبُو ، ونُجَدِّد ميثاقَنا :
الحجابُ هُوَ نفْسُهُ الضوْء /
الغَرْبُ اسْمٌ آخَرُ لِلشرْق .

(ص)
(ما الذي يجعلُ قدمَيْهِ تعرِفانِ السّين ،
أكثرَ من دجْلةَ أو بردَى؟

يا لهُ مِن بُهْلول ـ
يُحِبّ الإنسانَ أكثرَ مِما يُحِبُّ الأرْضَ ،
ويحِبّ الأرضَ أكثرَ ممّا يُحبُّ الوَطَن .)

17

كلاّ ، ليْسَ جَسَدِي بَجعاً ولا نيلُوفراً ،
لكِنْ تحْتَ أهْدابي ترْقُدُ أُوفيلْيا ،
كانَت قَدْ اكْتشفَتْني خَطَأً ،
وأحْلامِي كلّهَا بُحَيْرات جُنَّتْ .

والآنَ ، أنْصَحُ نَفْسي بِصوْتٍ عالٍ
أمامَ هامْلِتْ :

لأكُنْ حَكيماً ـ
لأتذكَّرْ دائِماً أنّ الحُبّ
والمَرَضَ مِنْ عائلةٍ واحِدةٍ ،

(ض)
I ـ (يبْقَى انْ يُشرِّقَ السّين
[الإشارَةُ هُنا إلى شَيْء آخرَ غَيْر
«النِّعَم الإلَهيّة» التي امْتَدحَها
غُوته في «الدّيوان» :
العمامَة ، الخَيْمة ، السّيْف
المحدَّب ، النّشيد] ،
يبْقَى انْ يَخْتلطَ ماؤهُ ،
كَماء الفُرات ، بِضَوْء الكَوكَب .)
II ـ (يَبقَى أنْ نَرْفَعَ لِلْحكمة عَموداً آخرَ ،
يَبْقَى أنْ نَصنعَ مَراكِبَ فَضائيّةً ،
لا لِكَيْ نَذْهبَ إلى الكَوكَب ،
بلْ إلى بُيوتِنا ،
يَبْقَى أنْ نبْتكِرَ حَيوانات مُجنَّحة
تَنْقلُ مَجّاناً جَميعَ الفُقراء
الذينَ يَحْلُمونَ بالطّواف حَوْلَ
الأماكِن التي يُقدِّسونَها ،
يَبْقى انْ نَعْرِفَ كيْفَ تُحوّلُ الرّيح إلَى بَرْدٍ
صائِبٍ .)

لأتوقّفَ عنِ الاهْتِمـامِ بالنّهـارِ
والليْلِ ، القَمَرِ والشّمْس
حقّاً ، لِلْحُبِّ كَما يُعَلِّمُ هامْلِت ، حُرُوبٌ كَثيرَة
ولا بدّ ، بيْنَ وقْتٍ وآخَر ، مِنْ عاصِفَةٍ
في الجَسَدِ تُعيدُ تَرْتيبَ أعْضائه ، ــ
هكذا رَعَيْتُ ، هَذا المساء ، قطْعانَ الشّوارع في بَاريس ،
وحِينَ رأيْتُ نَوافِيرَ اللّهَب تتفجّرُ مِنْ أفْخاذِ العِمارات ، تَمْتَمْتُ :
لا شَيْءَ يمْلَؤُني وُضوحاً كَهذا الغُموض
(أوْ لَعلّي تَمْتَمْتُ : لا شَيْءَ يمْلَؤُني غُموضاً كَهذا الوُضوحِ .)

هُوَ ذا أنَا ، ــ
أخْرُجُ مِنْ سُلالَتي كَعِطْرِ وَرْدةٍ
تَكادُ أنْ تموتَ ،
أتمَوّجُ وأتعدّدُ ،
أتشبّهُ بالنّخْلِ وأصْنَعُ شَهْديَ الخاصّ .
وها هِيَ الحَياةُ بارِدةٌ وأقَلّ
مِنْ أنْ تَكونَ جُرْحاً
لا أرَى غَيْرَ آلاتٍ تَتزاحَمُ
في حُقولٍ مِنْ أنْفاسِ البَشَرِ ،
ولَيْسَ ثمّةَ نَهارٌ ولا لَيْلٌ
بَلْ شَريطٌ يَتواصَلُ مِنْ لَحظاتٍ تَتقطّعُ ــ

III ــ (كَيفَ تُؤخَذُ هَذِهِ الرّاحةُ ــ
السّمكةُ في ماءِ العصْرِ؟
كَيفَ يُقيمُ في جَسَدِهِ الذي
يَفرَغُ حتّى منهُ؟
كَيفَ يُفكّكُ هَذا الجِسْمَ
المَرئيُّ مِنْ كَلامِهِ الذي تَسْنُدُهُ
أعْمِدةُ لغةٍ غَيْر
مَرئيّة؟)

لا الخارِجُ بَيْتي ،
والدّاخِلُ ضَيِّقٌ علَيَّ ــ
كعِطْرِ وَرْدة تَكادُ أنْ تَموتَ
أخْرُجُ منْ سُلالَتي
لا أُريدُ أنْ أُسَمّي / أريد أنْ أكونَ سمِيّاً لِلضَّوْءْ ،
لا أُريدُ أنْ أسْتَمْسِكَ / أريدُ أنْ أُرادِفَ الرِّيح .

(باريس ، أواخر 1986 ــ أوائل 1987)

في حضن أبجدية ثانية

فِي حِضْنِ أبجدِيَّةٍ تخضِبُ الأرضَ ، يسْهَر قاسَيون وأسْتيقظُ .
أقْرأ وأكتبُ وأقولُ كَلاماً لِلنَّبْذ : ليْس شِعراً وليسَ نثْراً ،
لَكِنْ ، إليَّ بالبَخُور ،
الشّمسُ تَلتصِقُ بأحْشائِي ، وأُريد ظلّكَ أيُّها اللّيْل .

ــ ألنْ تتّعِظَ؟ كَثُر بَخورُ بيتِكَ أيّها العاشِقُ ، وها هُو الهَواءُ يهُبّ كمِثْل بُحّةٍ في حُنْجرَة الفَضاء .
ــ عَوِّذْني ، ابتكِرْ طِلّسْماً لأحْوالي .
ــ أقدرُ أنْ أرقيكَ أيّها العاشق ، لكِن مَن يَشْفيك؟
ــ سَأقولُ لِمهبّ الرّغباتِ جسدي غابَةٌ تُلائِمُ رِياحَه .

* خرجَ من عُزْلتهِ دخلَ إلى المَنْفى .
* دائماً تَفصِلهُ عَن الأمام بضعُ خُطواتٍ إلى الوراء : لا يَصلُه إلاّ ما يفْصِله .
* ليْسَ لهُ طفولَةٌ ؛ الشّعرُ طفولَتُه .
* مِن مسْحُوق الكبِد هَذِه الخمْرةُ ، لا مِن العِنَب .

* لا تَحْيا دِمشْقُ إلاّ إذا أعادَتْ بِناءَ السّماء .

I ـ أبواب

في صَباحٍ تحْمِلُه الجراحُ ، هرَبتْ من سُورِ دمشقَ ضاحِيةٌ ، وتَنزّهتْ في بَساتِين الزّينبيّة . قالتْ : لنْ أعودَ ، وسمّيتُ نفسيَ حيّ القَصّاع .

جاءَ ،
نَزلَ في هذَا الحيّ ، في قَبْو بنَاية تَنْحدرُ من سُلالَة الإسمنْت .
فَرشَ القبوَ سَريراً لأحلامٍ كانَ أكثرُها يتَبخّر بيْن حَمّاماتٍ
قَرأَ عنْها

حَمّام المسْكِ حَمّام الوَرْدِ حمّام الزّينِ
حَمّام السّلْسلَة حَمّام الحَاجِبِ حَمّام الجُوزَةِ
حمّام القيشَانِي حَمّام المَلِكَة

وتِلْكَ هِيَ الأسْماءُ الأكثرُ طِيباً .

ـ الشّدادُ؟ أهو حَمّامٌ آخَر؟
ـ مَعْجونٌ تُدلِّك بِه المُسْتحمّةُ جَسدَها
زَنجبيلٌ وقَرْفة زيتٌ ولِسانُ عُصْفُور

دبْسٌ وبيضٌ وآسٌ
وتُضيفُ بَعضُهنّ أشياءَ تبْدُو مَرافِئَ لموْجِ الجَسَد .

كَثيراً ، شُبّه لَهُ القَبوُ غاراً ينزِفُ دَماً ،
كَثيراً ، رآهُ كهْفاً يَضطرِبُ ويترنَّحُ ويكادُ أن يَهْوِي .

* هَلِ الحقُّ دائِماً معَ الرّحيل؟
* هَلْ يكُون العالَمُ أكثرَ جمالاً ،لَوْ خَلا مِنَ القُبحْ؟
* هَلُ يُؤسّسُ الدّمُ لغَيْرِ الدّم؟
* هَلِ الكتابَةُ هي أيضاً ساعةٌ رمْليةٌ؟
* هَلِ اللاّمبالاةُ هيَ الوردةُ الوَحيدةُ التي تَنْحني لها الرّيح؟
* هَلِ الأصابعُ المقطوعَةُ هيَ وحْدَها التي تعْرِفُ كيْف تَلتحمُ أوصالُ التّاريخ؟
* هَلِ الوَفاءُ للأفْكارِ أمْ لِتوْليدِها؟
* هَلِ الإسمُ هُنا إثْمٌ؟
* هَلِ الحياةُ هنا حَجٌّ إلَى المَوْت؟
* هَلْ حِجابُ دمشْق هُوَ الذي يكشِفُها لَه؟

يَظُنُّ ــ الكَلِماتُ التي رَدّدت معَهُ أسماءَ الشّجرِ والنّجومِ والأصدقاء ، تجْلسُ

الآنَ في كُوَّةٍ تحْيا وَحيدةً في القَبْو ،
أو تتمَشّى علَى الرّصيفِ الذي يُتاخِمُه ،
تَتحالَفُ مَع الهَباء أو مَع الهَواء
تَنْتَقِدُ سُلطةَ الوَرقِ ، أَوْ تتواطَأُ معَ الحِبْر .

مِن شَفتيْ هذِه الكُوّة ، يهْبطُ عليْه كَلامٌ عَصيٌّ علَى البَوْحِ . آسِفاً ، يَعتذِرُ لَها :
ليْس سيّد الطّبيعةِ لكَيْ يَضعَ الآنَ رأسَه تحْتَ كَتفَيْها .

جاءَ كَمنْ يبدأُ تاريخاً . هَكذا وجَد نفسَه يتموّج في مُحيطِ أسْرار .
* جاءتِ النّساءُ سُفناً ، ولَهُنّ جسَدُ الماء .
) «جاؤُوا . كلٌّ مُحْتَسِبٌ طامعٌ . جَرتِ الدّماءُ في الماء» . (البلاذري ، فتوح البلدان)
) * «الفتُوح ثلاثةٌ : فتوحُ عِبارةٍ ، وفتوحُ حَلاوةٍ ، وفتوحُ مُكاشَفة» . (ابن عربي) .
) لا تدْخُلوا البحرَ إلاّ إذا كانتِ الأشْرِعَةُ نِساءً .
* الغُوطة خَيْمةٌ والشّهوةُ حِبالٌ تَشُدّ أوتادَها .
* السّماءُ في عقْل النّملة ، نَملَة .
* لِكَيْ تفْهمَ الرّمْلَ ، لسْتَ في حاجَةٍ إلَى أن تكُونَ مَوْجاً .

بَعْد الحَمّام ومِسْكه ،

تُنوِّرُ أعضاؤُكَ وتَرْقَى . تُصْبِحُ جَديراً بأبوابِ السّرّ .

قُلْ ، إذَنْ ، لجَسدِكَ فيما يُواكِبُ السّرَّ أن يتَنوّرَ بابَ الفَرَج

* سَواءٌ تحْريكُ الرّاء وتسْكينُها : لنْ تقدرَ أن تُحوّلَ الكَلِماتِ إلى أشْياء .

) * تَكلّموا علَى ما مَضَى ، لا عَلى ما يأْتي . وخُوضوا مَا شِئْتُم مِنَ الحُروبِ ، لَكِن بيْن شِفاهِكُم العُليا وشِفاهِكُم السُّفلَى .

جاءَ ،

في حَديثِهِ معَ الكواكب ، كان يُؤثِر الزُّهرة . تَسْتقبلُه ، وهْيَ في سَريرِهَا .

ولَمْ تكُن تحاورهُ إلاّ بعْدَ أن تُطفِئَ شمُوعَها .

يُغْفيكِ أيّتها النّبوءاتُ مِنَ التوجّه إليهِ . وجْههُ مأخوذٌ بِجهاتٍ لا تَذْهبينَ إليها ولا تَجيئينَ منْها .

* يا قِطارَ الحِبْر ، ليسَ لهُ علَى الورَقِ أيّةُ محَطّة .

* اتركُوهُ يتَوسَّدْ ذراعَ هذِه الكَلِمة : الحُبّ .

* لَمْ يَفهم بَعدُ الحَجَر ، لكَيْ يُحْسِنَ الكتابةَ عَنِ الأجْنحَة .

* الدّمُ هُوَ الذي يُفكّر ، والجسدُ هُو الذي يكْتُب .

تُوقِنُ أنّ التاريخَ دَخَلَ مَليءٌ بأعْشاشِ الخَتْلِ مِنْ كلّ نوعٍ ، فيما تخرجُ مِنْ بابِ الفَرج إلى بابِ السّلام ـ

يُسَمّى

بابَ الشّريفِ وبابَ السّلامَة . كانَ عصيّاً على الغُزاةِ يحْرسُهُ شجرٌ يُشبِهُ العِصيّ السُّيوفَ البنَادقَ وِفْقاً لِلغُزاة والغَزْو . تحْرسُهُ كذلِك عرائِسُ الماء ـ بَردَى ، العقربَاني ، الدّاعياني . «وكانَ كمِثْل اسْمِه بابَ التّسليم والتحيّة . يَجيءُ النّاسُ أفواجاً للسّلام علَى خُلفائِهِمْ .» القوسُ التي فيّأَتْ رقابَهمْ هيَ نفسُها تُظلّل رِقاباً أخرى لسَلام آخرَ . الضّوءُ نفسُه يتَلألأُ مِرآةً يكْتشفُ النّاسُ فيها وُجوهَهمْ فيما يَدخلُون ويخْرجُون . وثمّة جنودٌ كالمَلائكَة لا تَراهُمُ العيْن .

* دِمشقُ ، بِذارُكِ ، لا بيْن يَديْهِ ، ولا فِي خُطُواتِه ،
ماذاً ، إذَنْ ، ستُجْديهِ الحُقُول؟
* في كلّ صُنْدوقٍ ، يوقِظ وضّاحَ اليَمن ، ويَدعوهُ إلى نُزهةٍ سِرّية .

هُو ذا جَرِيرٌ يُولِمُ حياتَه للخليفةِ في سُرادقِ الشّعْرِ . وأرَى إلى الأخْطلِ يُقدّم لأصْدقائِه ، علَى مَشْهدٍ مِنَ الخِلافَة ، أعْتقَ خوابِيه . وأسمعُ الفَرزدقَ يَتلعثَمُ في حضرةِ امرأةٍ لا تَمْدحُ لا تَهجو لا تقُولُ إلا الحُبّ . اشْرَبُوا مِنْ ينابيع ذِي الرمّة ، ـ انظرُوا إليْهِ يرْتجلُ ما يُمْسِكُ بالأُفُق . والخُلفاءُ يتَوارَوْن : كلٌّ منهمْ يَنْكمِشُ في

شَعْرةٍ، أو في دِرْهمٍ، أو في سَيْف.

* سَمائيَ ـ لا فَوْقَ رأسيَ بلْ تحْت كَتِفيَ: سَلامٌ لِلشّيخ الأكبر.
* يا للغـــرائبِ في هَذا المَكانِ الذي يُناديه ابْنُ تيميّةَ: يا بُسْتاني.
* الأفقُ يروزُ أصواتَ المآذنِ، فيما تَنْبَسِطُ الجَنّةُ تحت قَدميْ قاسَيون.

إنْتَسبْ إلى زُحَل، لِكي تُحسِنَ المكاشفةَ في بَاب كِيسان، أوْ لِكيْ تنزِلَ في سلّةٍ، شأنَ القدّيس بولس، متدليّاً من السّور، خارجاً إلى يونانَ وما وراء البحر. كمثله، لا تقصد البابَ لذاته، بل لما يُخْبئه. تفتحهُ لكي تشاهدَ ما يَنْغَلِقُ عليه. وربّما سألتَ: هل الباب جسد؟ وما بابُ الجسد؟ وأين؟ ولماذا لا يُسْكنُ إلاّ بوصْفهِ زائلاً؟ هلْ أجملُ الأشياء التي تَسكُنها في الجَسدِ وتسكُنكَ هِيَ التي لا ترَاها؟ ولا تَنْسَ أن تتصوّرَ باباً مليئاً بِالجمال مُشْرعاً على عالَم مليء بالفراغ. ولا تَنْس الحَلْقةَ التي تقرع بها البابَ لكي تسمع نَعم أوْ لا. يُتيح لكَ أن تَسْبحَ في أجملِ بُحيْرات الضّوء، أوْ يُبقيكَ في ظَلامك الأليفِ. هَلِ الحياةُ بابٌ ـ واقعاً ورَمْزاً؟

أقواسٌ خطوطٌ تَستقيمُ تَنحني تَتَلولَبُ دَوائرُ وأنْصافُ
دوائِر مربّعاتٌ مستطيلاتٌ مُثلّثاتٌ مُخمّسَاتٌ

* التَقَيْنا ، ـ لمْ نتكلّمْ ، غيْرَ أنّنا تَرامَزْنا .
* شَوارِعُ ، ـ أنهارٌ تحكّ ضفافَها بمُوسيقَى التّاريخ .
* يُغنّي الياسَمين بصوْتٍ خافتٍ ، ويدورُ في الأزقّة ، حَافياً .
) * دَمٌ أبيضُ علَى فِراش القَمر .
) لا تَضعْ سلّةَ الغُبار في يَدِ الرّيح .
) يَجيءُ الشّقاءُ معْجوناً بيَدِ اللّهِ ، مخْتوماً بخاتمهِ ،
وَيجيءُ الفَرح هارِباً في ثيابِ وَرْدةٍ تكادُ أن تَذبُل .
* لِكُلّ نجْمةٍ طبلٌ ، والفجرُ نايٌ مكسُور .
) تسْبح ملائكةٌ سودٌ فِي أحْواضٍ منَ الفضّة .
) شوارعُ ـ حُقولُ نَباتاتٍ تَقْتاتُ باللّحْم .
) اسْتيقظتِ السّماءُ وأخذتْ تُوزّعُ جَرائدَ الصّباح .

يَخِفُّ إليكَ الواقعُ ويُجلِسُكَ علَى أطْرافِ أظافِره : لحِجارهِ حِبالٌ صوتيّةٌ ، وأنّى توجّهتَ فيهِ ، يبْدُو وجْهُه سَراباً يُقَبّل الأرضَ . أيّامُه لَدائنُ ينمو فيهَا عُشْبُ التّاريخ .
هل الحياةُ هُنا بريدٌ يُنْقَلُ في جُعبةِ الرّمل؟
وأين ذَلك الخَنِثُ المُترَفُ الذي يَعرِفُ كيْفَ يضُمّ السّريرَ إلَى السّرير ، وكيف يتسلّقُ لطيفَ الشهَواتِ وخفيِّها؟ يَفرحُ وهْوَ يظنّ أنّه يحْزَن . يتَلذّذ وهْو

يظنّ أنّه يألَم .
اكْتُبي ، دمشقُ ، من جَديدٍ ، تاريخَكِ علَى عَسيبِ النّخْلِ وعلَى أكتافِ الإبِل . طَريقي فيكِ وَعْرَةٌ ، وحافياً أمشي .

بابُ الشّاغُور ، —
الغُبارُ حِصانٌ جامحٌ وَهيْهاتَ أن يُروّضَ ، والطّرقُ مُغطّاةٌ بحَيْضِ الأقْدام .

بابُ الفرادِيس ، —
ادفِنوهُ في دَمهِ . إنْسوْا لا تَنْسَوْا .

بابُ الجابِية ، —
دُوارٌ في رأْسِ اللُّغَة .

* كيْفَ يتَصالَحُ ياسمِينُ دِمشْقٍ معَ جَسدٍ لا تَنْبُتُ فيهِ غيرُ الشّقائقِ؟
* ما لِهذِه السّماء ، —
لا تُقدّم غيْرَ البَلْسَمِ ، وليْسَ في جَسَدِها غَيرُ الجِراح؟
* اتّكِئي ، أيّتها الأحلامُ ، حزينةً علَى نوافذِ أهْدابِي .
* قاسَيونُ ، أيّها السّائرُ واقِفاً ، هَلْ تعْرِف أنّ الفصولَ أعْطَتْ لغَيْريَ كلّ شيْء ، وخَصّتْني بخُطُواتِها؟

دِمَشْق ،

ظِلُّكِ لابِسٌ قامَتي ، وأبوابُكِ مُحيطةٌ بي . هَبَطَ سِرُّكِ إليّ :

لا يسكنُ الفرَحُ إلاّ الثنيّةَ والطَّيّةَ والزّاوية .

II ــ خلوات

أ ــ

نافِذةٌ ــ مُثلّثٌ ، يَنحدِرُ منْها ضوْءُ الطّبعِ . يتسرّبُ منْها هَواءٌ يحمِلُ أشْكالاً كمِثْلِ الخُيول ، ــ

الخَلْوتيّة الشّافِعيّة

ب ــ

سَلالِمُ منْ أرْدافٍ وكَواحِل . حِنّاءٌ وزعفرانٌ ينْتظِرانَ شِهاباً أخْضرَ ، ــ

الخَلْوتيّة القادريّة

حـ ــ

نسيَ الملْحُ قدَميْهِ في الماء . ظِلُّ الدّنيا رَصاصٌ مغْموسٌ في الجَمْر لا فَرقَ فِيها بيْنَ الكلام والطّينِ . إنْ كان هُناك شَقاءٌ فهُو الفرَح . يجلِسُ الغبارُ علَى هَذهِ العتَبة ، منذُ قرونٍ ، ولمْ ينهَض بعْد

ـ هَلْ تُجامعُ الإنسيّة جِنّياً؟
ـ مسْألةٌ فيها خلافٌ .
ـ لكَن ، جائزٌ عَقصُ الشّعرِ ، وتجوزُ الضّفائِر .
ـ المرأةُ في الآخرَةِ هي دائِماً لآخِرِ أزْواجِها ، وقيلَ لأوّلِهِمْ ـ
الخَلْوتيّة التقويّة الحَنْبليّة

د ـ
لِلزّمن يدان رَخْوتانِ ، وللأبديّة فَمٌ لا يتوقّفُ عنِ التّثاؤُب .
أفراسٌ تجيءُ منْ كلّ صوْبٍ وتجْلِسُ بيْنَ الركَبِ . أشجارُ وَرْدٍ جُوريٌّ تخْلَعُ ثيابَها الدّاخليّة . آهِ ، اللّذة يَسيرةٌ والحيرةُ كثيرة ، ـ
الخَلْوتيّة المَوْلَويّة

هـ ـ
أكاليلُ نُجومٍ تتَدلّى مِنَ السّقْفِ . تُرفْرِفُ الأرضُ كالأجْنحَة ، والعَناصِرُ خلايا أحلامٍ . الوحدةُ حِبر السّفَر ، ـ
الخَلْوتيّة النّقْشَبنْديّة

وَاو ـ
إمْشِ فوْقَ رُؤوس الأزهارِ ، وامتَزِجْ ببراعِمِها . يَداكَ بنفسَجٌ وعلَى جسَدكَ يتسلّق غُبارُ الطّلعِ . هُنا تعرِف أنّ للأيّام قشرةً أكثرَ حَناناً مِنَ اللّبّ ، ـ
الخَلْوتيّة الرّفاعية

زاي ـــ
تُمسِكُ يدُ الزّاويةِ بريشةٍ وترْسُم الفَراغ
ما أحنَّ هذهِ الأشْرعةَ التي تُقْبِلُ مِنَ السّماء .
هُنا يدْخلُ العاشِقُ في الفَصيلة الشَّفَويّة كمِثْلِ الرّيحان ، ـــ
الخَلْوتيّة البكْتاشيّة

* تَمثّلْ بالورْدَةِ وعِشْ صامِتاً :
إنْ كان لا بد منَ الكلام ، فلا تَتفوّه إلاّ بالعِطْر .
* هَلِ الكِتابةُ شَهدٌ يابسٌ فِي قَفيرٍ مهْجُور؟
* الحَجرُ كِتابٌ يعلّم التّسامُح .

III ـــ مُكاشَفَات

أمِنْ سُوقِ الورّاقينَ ، تَجيءُ هذهِ الحُنْجُرةُ؟ أمِنْ أنينِ خَشَبٍ تَفتّتَ وبُعِثَ ، تصْعدُ هذهِ الكلماتُ؟ هلْ عرفتَ سُوق الكتُبِ؟ زُرْها لتَرى كيْفَ تَتمدّد العُقولُ علَى بِساطٍ مِنَ الحِبْر ، ولكَي تَتملّى شُحوبَ الأيّام .
زُرْهُ ــ احتفِلْ بكِيمياء التّحوُّلِ ، ـــ
رأسٌ فِي القدَم ،
وقدَمٌ تقطُّر العِطْر .

والتحيّةُ لِمنْ قال : «القدَمُ لا الرأسُ ، نِهايةُ الشّكْلِ وغايَةُ الهَيْئَة» .

إنّه ركْنُ العَنْبَرانِيّينَ في سُوقِ النّساء . قبائِلُ أعْشابٍ ، أفخاذُ نباتاتٍ وزهُورٍ ، والعُطورُ تَتناسَلُ . وفي سُوقِ الحَرير وسوقِ الصّاغةِ ، ستَرى الرّغبةَ جسَداً ورُوحاً . نِساءٌ يَسِرْنَ كأنهنّ يتَنقّلْنَ في أسرّة النّوْمْ . شَمسٌ مَبلولةٌ بماء القمَرِ . وتَرى الموْتَ يتقلّبُ ويزحَفُ واهِناً . وفي سوقِ المزامير وسوق الأبازير وسوق الفاكِهة ، تتنهّد في مُناخٍ تقول إنّه هابِطٌ لِتوّهِ من فراديس المخيِّلة . وبين أهدابكَ تختلِط المُلاءاتُ والسّراويلُ والزّنانيرُ في بَهاء يَسْرَحُ معَكَ بيْنَ الظّاهريّة والعادليّة حيثُ يَنْهض أبو العزّ مائدةً يتحلّق حولها الأقْصَيَانِ الشّرْقُ والغرْبُ وتَتلألأُ اليدُ الصّانِعة ،ــ

زجاجٌ مُعَشّقٌ ، شرّاباتٌ ، مَسانِدُ ، أرائكُ ، نُحاسٌ
مُخرّمٌ ، وسائد ، بُسطٌ ، نارجيلةٌ ــ
إنّها الدُّنيا وعائِلتُها تحْتَ سَقْفٍ يتَلْمَذُ علَى حِكْمَة الدّهْر .

* غيْرَ بعيدٍ عنْ رأسِ يوحنّا المَعْمَدان ، تَتدلّى أذنا تِيمُورلَنكْ .
) هَلْ يحْدُثُ حقّاً لِلبَقْل أن يصيرَ نَخْلاً؟
) ليْسَ هُناك نُورٌ لا ظُلمةَ فيه .
) لا تُنكِروا خرْق العادَة .

) استَسْلِم للواقع إنْ شئتَ أن يَسْتسلِمَ لكَ المُمْكِن .

* ربّما كان الوحْلُ الذي تهْرَبُ مِنْه ،
يَسيلُ في الماء ذاتهِ الذي تَشربُه .

* بَلَى ، تَتذكّر النّارُ أنّها كانتْ مَاء .

* الفضاءُ هُنا نارٌ ، والطّيورُ قِصْديرٌ .

* قتَلهم جَميعاً ، تحْقِيقاً للحِكْمَة القائِلَة :
«ما أكلتَه وأنتَ تَشْتَهيه ، فَقدْ أكلْتَه
وما أكلتَه وأنتَ لا تَشْتهيه ، فقَدْ أكَلَك» .

* ازْدادَ البردُ والثّلجُ ، مُنذ قُتِل المُتَنبّي .

* لا يَسْتقيمُ هذا المربّعُ إلاّ إذا أصبحَ مُثَلّثاً .

* «رُبَّ اعْوجاجٍ أفضلُ مِنَ الاسْتِواء» .

أطْلقتُ العِنانَ لِلْقِيافةِ والزّجْرِ والعِيافَة ،
للسّانح والبارِح ،
للتّفاؤُلِ والتّطيُّر ،
وقلتُ : أنا الفَطِنُ المتدرِّبُ ، غيْرَ أنّني أميلُ إلَى النّظَرِ في الكَتِفَيْنِ ،
وفي الرّدفيْنِ ، وفي ما أوتِيَ السّرّ .

IV ـ مُشاهَدَات

أ ـ ساحَةُ الشُّهدَاء

لبِسَتْ أسْماءَ كَثيرةً : الجَزيرة ، بيْنَ النّهريْن ، المرْجَة ، الميْدان الكبير ، ساحَة السّراي . غيرَ أنّ دمَ أبنائِها الذين شَنقهُم السّفاحُ محَا هذِه الأسماءَ كلَّها وأعْطاها اسْمَها الأخيرَ الشّهيدَ . علَى أطرافِها وفيها ، تَعانَقَ اليونان والغربُ والخِلاسيّة العُثمانيّة . مَسْرَحٌ لِلتّحول ـ وَضَعَتِ الحداثةُ عليْه أولى خُطواتِها : السّيارةَ ، والحافلةَ الكهْربائيّة . وعِنْدما كانَ بَرَدَى يَفيضُ ، كان فيضانُه يُذكّر بِالدّم الذي تدفّق من أبنائها دِفاعاً عنْها . يُصْغونَ إلَى أحشائِها التي غَطّاها الإسْفلْتُ لِكَيْ يسْمعوا أباءَهُم . وتَرى حنينَهم يَطوفُ حَوْلَك في كُؤوسٍ غير مَرْئيّة . نَجمةٌ تَرْبِطُ بخُيوطِ أشعّتها دمشقَ ـ شوارعَ وأزِقّةً وأحياء . تجْلِسُ غالِباً في اسْتِرْخاء كمِثْل امرأةٍ تَسْتحمُّ في العرَاء . مَسْرَحٌ . قِلّةٌ همُ الذين يُتابِعون المشْهَدَ جالِسينَ . بضْعةُ أطْفالٍ ، بِضْعَة شيوخ .

ـ ما هذِه المسْرحيّة؟

ـ هواجِسُ وأسْئِلَة .

ـ الأكْلُ قليلٌ ، والشّرابُ نادِر .

ـ إسْرافٌ ، لكِن في المَنْع .

ـ تكَادُ كلّ نُقْطةٍ في جَسدِ هذِه السّاحةِ أنْ تكونَ . . .

* الأعمارُ بيدِ الأجور والأسْعار .

* هَل البياضُ سَوادٌ نسِيَ اسْمَهُ؟
* عَمّر بيتاً لغايةٍ واحدةِ : أنْ يسْجِنَ فيه الرّيحَ التي يقبضُ عليها .
* يظنّ حيّ القدَم أنّه رأسٌ لِحيّ الصّالحيّة .
* كتابَةٌ كمِثْل زَهْرٍ يُزرَع في حُقولٍ مِنَ الزّجاج .
* لا تتأخّر أيّها المَطر ، تأخّري أيّتها السّماء .
* ينامُ الشّارعُ والحارسِ سَاهِرٌ علَى عنُقه .
* خَيّط شفتيكَ إنْ شئتَ أن تَتكلّم .
* أيّتها المادّة الشّاميّة ، هلِ الشّعْرُ ، وحْدَهُ ، رُوحُكِ العاصِيةُ؟

ب ـ حيّ النّوْفَرة

تَنمو علَى جانِبيْهِ ، وعلَى أطْرافـهِ منْ جِهَة القيْمَريّة وباب جِيرون ، أشجارٌ للمعرفة لا يَراها غيرُ تلامذةِ الشيْخ الأكْبر . كلُّ شجرةٍ سُرّةٌ منَ الكلام يَحسُنُ بك لكَيْ تُحسِنَ فهْمَه أنْ تجلس في مقْهَى النّوْفَرة . حوْلَ المقْهَى ، تَرك الأسلافُ آثار خُطواتِهم في حُفَرٍ وشُقوقٍ يَصعَدُ منْها غبارٌ يكادُ أن يكونَ ذهَباً . نقْرأ معكَ ، أيّها الحكواتيّ ، ليلَ الماضي ، ـ

ـ بِضَرْبةٍ واحدةٍ منْ سيْفهِ ، قطعَ خمْسين رأساً .

والويلُ لِلّغةِ إنْ وقع في الأسْر عَنترة . لا تَهْدأ كَلِمةٌ فيها ، قبْلَ أن يُفَكّ أسرُه .
يتَوكّأُ الزّيْر سالِم علَى أنْصارِه . يتوكّأُ جَسّاسُ على صوْته . يَتّحد الغضَبُ والسّرورُ كمِثْل وَجْهِ الورَقةِ وقَفاهَا . لا عَداءَ في تبادُلِ اللّكَماتِ بيْنَ المُتحاربين ، بلْ حركةُ أيْدٍ كأنّها أغصانُ شجَرة واحدة يُحرّكها هَواءٌ عاشق . كلٌّ يَقِفُ وَراء فارِسه ، أوْ يقدّم لهُ الشّاي والهُتاف . ينقشُ اسْمَهُ بأنْفاسهِ علَى بَشَرةِ الوقْت .

أَخْرِجوا جِيادَكُم من أقْفاصِ الحُلُم وسَرِّحُوها . ليْسَ في المقْهَى سُروجٌ تَليقُ بها . ابحثُوا لهَا عنْ سُهوبٍ أُخرى . لِلمقْهَى أذنانِ مسْدُودَتان . وفي الصّراخ تتوحّد الشّفاهُ كأنّها فَمٌ واحِدٌ . كَلاّ ، لمْ يمُتْ عنترةُ . ولا يزَال الزّيرُ سالِمٌ وجسّاسُ يتَقاسَمانِ بُرْكةَ الماء الفوّارةَ في ساحةِ المقْهَى . ما أعْندَ الحُلْمَ بالنّصرْ . يَتّخذ منَ الجُدرانِ والطّينِ أهداباً يرقدُ تحتَها . يمْتلئُ المقْهَى بجُثَثِ القَتْلَى ، غيرَ أنّ الروائحَ التي تَتنَشّقُها طيّبةٌ كأنّها طالِعةٌ من ضَفائرِ الغُوطة .

ـ مالَهُ ، حِصانُ عنْترَة؟
يَتساءلُ شيخٌ تَبْتلعهُ ثيابُه ، فيما يُتابعُ معارِكَ اللّغةِ ، ويَرى إلى دِمائهَا الجارية ، كأنه يَرى جيْشاً منَ الغَيْم ،
ـ نَسِيتْ عَبلةُ أن تَمسَح قوائمَه بِغَرارِ الصّحْراء .
* لِلذاكرةِ ماءٌ لا تَتّسعُ له بُحيْرَةُ الحاضِر .

* نَعمْ ، لا يتــوقَف البــابُ والكرسيّ ، القـــهــوةُ
والنّارجيلةُ ، الماءُ والجمرُ عن كِتابة الشّعْر .
* أسرارُ اللّيلِ أجنحةُ النّهار .
* يلْبَس المَساءُ قناعاً ليْس إلاّ وجْهاً لِلصّباح .
* يُقال : لا تنامُ دِمَشْق ،
ويُقال : إنْ نامَتْ ، فَنومُها خفيفٌ كالحُلْم .
* لا جذْرَ لا ثَمرَة : يَتشرّد بيْنهُما .
* لا يعبدُ الشّيءَ إلا لِكَيْ يَسْتعْبِدَه .
* دمشقُ ، أنتِ حياتُنا ، ـ
لَكِنْ ، ما هَذهِ الحياةُ التي لا تُعطينا إلاّ المَوْت .

حَيّيتُ عِيواظَ ، وقلتُ لِكراكُوز : اسْمَحْ لي أن أقدّمَ لكَ هذا الزّمنَ في هَذهِ الوَرْدةِ اليابسَةِ . كان خيالُ الظلّ يتسلّقُ الشّايَ في الفناجينِ وعلَى الشّفاهِ ، ويَتدحْرَجُ صوْتُ الحَكواتيّ .

ـ «مِنَ الخيالِ ، جاءَتِ الخَيْل .
ـ منَ الخُيلاء ، جاءَتِ الخَيْل .
ـ أوحِيَ إلَى الرّيحِ الجنوبِ أن تَجْتَمع . اجتَمعَتْ . أخذَ جبريلُ قبضةً وخَلقَ الخيل .
ـ سلامٌ لحِصانِ عنترة . هُوَ مِنَ الخَلقِ الذي بِهِ العِزّ . لم يُعْقَدْ بِناصيتهِ غيرُ النّصر .» ، ـ

كان الغبارُ الذي تُثيرُهُ حوافِرهُ يتموّجُ أعْلاماً علَى سَقْفِ المقْهَى . آثَرعِيواظُ وكَراكُوز، ذلك المساء، أن يتحَدّثا هَمْساً . كانت الوردةُ اليابسةُ تَسهَرُ علَى البابِ، وعلَى السّطح، وفي الهَواء . أشارا إلى العشْق بينَ الزّهور . هَمسا لِلحُضور أن يُلصقوا آذانَهم علَى أكْمام الياسَمين والوَرْد لكَيْ يَسمعوا شهيقَ البراعِم وهْيَ تَخلعُ سَراوِيلَها . وأخذَتِ الأشجارُ التي تُحيط بالمقْهَى تنقَلبُ كلُّها إلَى شجَرةٍ واحِدة : عِطْرِ اللّيل . وأخذَتِ الحجارةُ تتغطَّى بالعِطْرِ . لمْ تبقَ زَهرةٌ إلا تَفتّحتْ مِنَ التبلُّلِ بِندَى الحُبّ . صارتِ الأزقّة نفسُها كمِثلِ أعناقٍ تتدَلّى منْها عقود الياسَمين . وتحوّل الفضاءُ إلَى حُنْجُرةٍ تهْتفُ احتفاءً بالعُشّاق .

* الزّائِلُ أجملُ ما يمْلِكُه الأبديّ .

* هُنا لا تقود الرّوحُ إلاّ إلَى المادّة .

* الماء المالُ : حَرْبٌ لا تَنْتهي بيْنَ الهمْزةِ واللاّم .

* لا يُقبّل إلاّ شفَتَيْه : ألِهَذا يقبّل جَميعَ الأيدي؟

) * أفْهِمْني : كيفَ تَقُصّ ذَيْلَ الشّيطانِ بجَناحِ المَلاك؟

) * القمرُ بيْنَ النّهدَيْنِ هِلالٌ دائم .

* يَتمرأَى، لا لِكَيْ يرَى الحَياةَ بلْ لِكَيْ يَرَى المَوْت .

) قَدَمٌ بيضاءُ علَى كَتِفَيْ قاسَيون : القمَر .

* وجوهٌ ـ فراشاتٌ بلا أجنحَة .

إذا شَرِبَ منْهُ زِنَةَ تِسْعِ حبّاتٍ، لم تَنلْهُ مَضرَّةٌ من السّمّ. والمتَختِّم به تُنافِرهُ ذواتُ السُّموم. وإذا قُرِّبَ مِن بَصرِ الأفعى، سالَتْ عيْناهَا.»

هـ ـ سُوق الأبازير

أساتِذةٌ يجلِسونَ في أحْضانِ التّوابِلِ والعُطور ويُعلّمون كيمْياءَ الملَذّاتِ. يَزدادُ يَقينُكَ أنّ الجسَدَ هوَ الأكثرُ بقاءً. ويُسْعِدُني في ذَلك أن يُقالَ: جُنّ القائِلُ. أو يُقالَ: دَخلَ غارَ المعْنَى، حيْثُ نزلَتِ السّماءُ وأحرقتْ سَلالِمَ الصّعودِ. لنْ تَستَطيع بعْدَ زِيارةِ هذِهِ السّوقِ أن تقُول كَغيْرِكَ:

عجَباً للْمَقابرِ في دِمَشْق،
تُزهرُ أكثرَ مِنَ الحُقول.

* يكْفِي أنْ تُقطِّر الصّحْراءَ في فَمِ الكَلام.
) ليْسَ المعْنَى وراءَ دِمشْقَ، ليْسَ أمامَها،
لا يَميناً ولا يَساراً، ـ المعْنى بيْنَ قدَمَيْها.
) كَلامٌ ربيعٌ دائِمٌ، عَملٌ خَريفٌ دائمٌ.
) * كِتابُها المُقْبِلُ: «كيْفَ عَشقتُ جِنّياً أسْلمَ علَى يَدَيّ.»
* لا يليقُ بأحدٍ أنْ يكونَ شاعِراً كمَا يليقُ بالوَليدِ بْنِ يَزيد.

* يُمكِنُ أنْ يكُونَ الغُبارُ في دِمشْقَ بيْتاً لِلشّمْس .
* أفْكارٌ تتدَفّأُ علَى جمْرِ المَال .
* زَمنٌ أعمَى يَتوكّأُ علَى عُكّازٍ مَليءٍ بالعيُون .
* الصّـلاةُ هنَا أقـصـرُ طريقٍ للذهَابِ عـمُـوديّاً إلَى السّماء .
* السّحْر والعِلْم هُنا مسْحُوقانِ يُقيمان فِي زُجاجَةٍ واحدةٍ علَى رفٍّ واحِد .
* يتعذّرُ وصفُ شهْوةِ الكَلام عنْد جُدران دِمشْق .
* الدّائرةُ هنَا نَبِيّةُ المُستَقيم ، والمُثلّثُ الوَحْي .
* هُنا ينْزِلُ الرّأسُ ويرْتَقِي البَطْن .
* ليْس لكَلِماتِهِ أرْجُلٌ ، ليْس لأفكاره معَاول ، ــ
كلاّ ، ما يقولُه لا يبْدَأ وَليمةً ، ولا يجْلبُ غَنيمة .
* يعْجِنُ الخرْدلَ بالخَلّ ورَمادِ البلّوطِ ، ويخْلِطُهُ باللّوزِ والزّبيبِ ، لكِنْ مِنْ أيْنَ لهُ المَاء؟
* كيْف تُريد أن تكون خالِقاً ، دونَ أن تكونَ ماحِياً؟

دِمَشْق ، ــ

قُلِ الشّامُ وجِلّقُ ، العذْراءُ وجيرُونُ ، قُلْ عينُ الشّرقِ إرمٌ ذاتُ العِماد ، بابُ الكعبَة . قلْ ، وأسْلِمْ جسَدكَ إليْها .

أسْلمَ جسَدهُ إلَيْها ، ــ

في حارةِ الخلْخال أصْغَى إلَى رأسٍ يتَحدّث عنْ زوايا الرّجال ، وجسَدُهُ في مَكانٍ آخرَ ، في كُلِّ رِباطٍ لِلنّساء ـ مهْجُوراتٍ ، مُطلّقاتٍ ، متعبّداتٍ ، صوفيّات ، حيثُ تجفّف الأيّامُ عِظامَها على خيوطِ الكتّان .

وَبيْنَ بابِ الجابِية وبوّابة الله ، اسْتأثرَتْ به طَويلاً زاوِيةٌ كانتْ تحْتضِنُ بيتَ يهوذا . تخيّل البيتَ ، وهَمّ أن يَسْألَ الحَجرَ أوْ أيَّ شيءٍ آخر : أَإلَى هَذا البيتِ لَجأَ القدّيسُ بولس؟

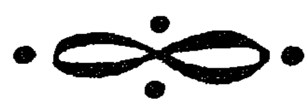
وأخذَتْ بعضُ الكَلِمات فِي قامُوسِ الأسْرارِ ، تظْهَر وتتحَوّلُ إلى أقواسِ قُزَحٍ وإلى أشجارٍ وبُحَيْراتٍ . وأخذَ بعضُها يتَحوّل إلى كائناتٍ أكثرَ إيغالاً في السرّ .
وضع يدَهُ في يَدِ كوْكَب الزُّهرةِ ليعْرِفَ كيْفَ يخْرُج سِرّاً منْ بساتين الزّينبيّة إلَى بابِ تُوما جارِها القَريب . لمْ يَر في باب تُوما ، أوْ هكَذا ظنّ ، إلاّ شِفاهاً عالِقةً في الفضاء تتبادَلُ القُبَلَ ، وإلاّ مخْلوقاتٍ ليْست لها الوجُوهُ والأرجلُ التي تكون عادةً لحَيوانات اللّغة . كانتْ تُشرّدهُ في رؤوسِ جِبالٍ وبطون أوْديةٍ . ولَمْ يتذَكّر عُمرو بْن العاصِ الذي نزَل علَى هذا البابِ . ولمْ يُدهِشْه هذَا النّسيان .

V ـ طِلّسْمات

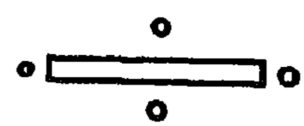
(منْ أجل الغُوطة ، وتحيّة لعبْد الغني النّابُلْسي)



«ابْحَثْ عنْ جَاريةٍ عذْراءَ حان نِكاحُها
عَرِّها ، وانْفِشْ شعْرَهَا ،
أعْطِها دِيكاً وقُلْ لها : طُوفي بهِ حَوْل الزّرع .
يَسْلمُ الزّرع من الآفاتِ ،
ويهْلَك الزّوّانُ لوقْته .»



«خُذْ أظْلافَ الماعزِ ، وقَرْنَ الأيّلِ ، وأصولَ السّوْسَنِ ، اسْحَقْها جَميعاً معَ البنْدُق ، بَخّرْ بها البيْتَ ،
تهْرَبُ الحَيّاتُ ، وجَميعُ الحشَرات .»



«خُذْ قلب بُومةٍ كَبيرَةٍ
شُدّهُ إلى جِلْدِ ذئْبٍ

عَلِّقه علَى ساعِدكَ ،
تأمنِ اللُّصوصَ وسائرَ الحشَرات ،
وتُصبحْ مُعظَّماً عنْدَ النّاس .»

«اصْنَعْ مِنَ النُّحاسِ تِمْثالَ جَرادةٍ
جَوِّفْهُ ،
ضَعْ فيهِ جَرادةً وسُدَّه بشَمْعٍ
ادفِنْهُ ،
يتفرّقِ الجَرادُ ، ولا تعِيشُ جرادةٌ في ذلك المكان .»

«خُذْ قَليلاً مِنْ حبّة البَركَة ،
وقَليلاً مِنَ البلَسَان
وقَليلاً مِنْ قشور الزّنجَبيل ،
امْزِجْهَا ، وضع المَزيجَ في طعام ،
تَحلّ في مَنْ يأكلهُ رُوحانيّةُ المَحبّة .»
(المِلاحَة في عِلْم الفِلاحَة) .

VI ـ شَطَحات

ماذا يفْعل جِدارٌ ماذا يفْعَل دُخانٌ بيْنَ نهْدَيْنِ   ماذا يفعلُ شُرطِيٌّ ماذا يفْعَل سِجْنٌ بيْنَ   الكَبِد والعَيْنِ   هَلِ الأفُق هُنا عَمودٌ مِنَ المِلْح؟ يا لهَذَا الهَواء الذي يمْلأُ الفضَاءَ بالتَّجاعِيد .

ماذا تفْعَلُ بهذا الكَلامِ الذي تَنْبِشُه مُتَكئاً علَى صَلْصالٍ يُذَكِّر بِآدَمَ   ماذا
تفْعَلُ بمُدنٍ لا تُطلّ إلاّ على الهاوِيَةِ   ماذا تفْعَلُ بشَوارعَ ليْسَتْ إلاّ
سيولاً مِنَ الدّمع
خيرٌ لكَ أن تُعْطيَ هذِه اليمامَةَ مِنْديلاً لكَيْ تمْسَحَ عيْنَيْها .

سَرَطانٌ يَلتَهِمُ جسَدَ الواقع ، وفي الرّيحِ وَرَقٌ ليْسَ الشّجَر بَلِ البَشَر . وليْسَ
الرّمادُ في الهواء بلْ في الرّئةِ ، وليْسَ الوحَلُ في الطّبيعَةِ بلِ في
الطّبْع

) * يعْتَذِرُ دائِماً عنِ الالْتِقاء بالآخَرين ، هامِساً :
امرأةٌ مَن الجِنّ في ضِيافَتي .
* الأصابعُ أزهارُ الجَسَد .
* يؤْمِنون بالكَواكِب ، ويأْخُذون العِلْمَ بالشّمّ .
* أجْسامٌ تتَعلّم الركُوعَ قبلَ أن تتعَلّم المَشْي .

* حِكْمتُهُ الأولَى : النّاسُ دَجاجٌ يتَتلمذون علَى الثّعالِب .
* فَوْقَ سَرِيره ، هَذهِ السّطور :
«الله صَديقٌ للفُقراء في الحُلْم ،
وللأغْنِياء في الواقع .»
* «رِزْقُ الفقِير حَصَاةٌ يمصُّها حَتّى المَوْتِ» : قائلُ هذهِ العبارة قَديمٌ لايزال حيّاً .
* يَصِفُ الناسَ :
«لِسانٌ خَصْبٌ ، وقَلبٌ قاحِلٌ .»
وهُو نفْسُه «عَينٌ صحِيحةٌ وجِسْمٌ ذائِب .»
* كانَ يقول : «ليْسَ الإنْسانُ جسَداً ، بَلْ عدَدٌ . يمْضي شيْءٌ منهُ معَ كلّ يوْم يمْضي .»
* يُناضِلُ ، لكِنْ كَمَنْ يُريدُ أنْ يُحوّلَ الحَجرَ إلى خرُوف .

يَلْزمُني أنْ أفكّكَ جسَدَ اللّيلِ عُضواً عُضْواً لِكَيْ أقدِرَ أنْ أكْتُبَ خُطوةً واحِدةً مِنْ خُطواتِ الشّام ،
هَكذا لِكَيْ أعَرّيَ نَهارَها ألْبِسُ ليْلَها ، وما أكْتُبه يُمليهِ التّيهُ
إنْ صَحّ قولُها : لِلْكتابةِ شَياطينُ ، فأهوالُها هِيَ هذهِ الشّياطِين
أهُوَ الوقْتُ يتَسلَّحُ بها ضِدّها؟
لَها لِهَذا الهيْكَل الذي عاشَتْ فيه أرتَميس ، أَنذُرُ هَذهِ البُقعَ مِنَ

الحِبْر، ــ
مَتَى تَقْتنعُ بعَشْتار؟

(باريس، أوائل كانون الثاني 1993)

الفهرست



ISBN => 2-84305-005-7
EAN => 9782843050053